2271
.4075
.942

a32101 004841191b

304
Surūr, Ṭāhā ʿAbd al-Bāqī

طه عبد الباقي سرور

محيي الدين بن عربي

Muḥyī al-Dīn ibn ʿArabī

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الخانجي بمصر

2271
.4075
.942

إهـــداء

إلى سعادة الأستاذ أحمد حمزة باشا

عرفتك المؤمن القوى المجاهد ، والصوفى التقى العابد . تحلم بالمثالية دائما ، وتنشد الأفق الأعلى دائما . وتتطلع إلى الروحانية الإسلامية . مؤمنا بأنها نور هذا الكون وسره . ولديها . ولديها وحدها ، سعادته ونجاته .

فإليك أهدى

« محيى الدين بن عربى » وهو أول كتاب يصدر بالعربية . عن إمام الصوفية . وقطب الرحى فى المثالية المحمدية . والشيخ الأكبر للروحانية الإسلامية . والقمة العليا للعلوم اللدنية ، والعبادة الربانية

وهدية التصوف نور وحب ، وسلام الله وبركاته ؟

طه عبد الباقى سرور نعيم

227
.405
.84

بسم الله الرحمن الرحيم

أفق ... ونجم

... انطلقت الخيل العربية الأصيلة ، من هضاب مكة ، وأودية المدينة ، فى أمواج متدفقة تحمل إلى الدنيا قوة جديدة ، فوارة بالبأس ، رحيمة بالهدى والإيمان .

وغمرت تلك الأمواج سهول آسيا ، وطوت بوادى أفريقيا ، فلم يصدها عن الطواف بالكوكب الأرضى إلا أمواج المحيطات فى الشمال والجنوب .

ووقف عقبة بن نافع ، فى أقصى بقعة من الشمال الأفريقى المواجه لأوربا ، يرقب الأفق ويفكر فى شىء غير مرئى ، ثم دفع بجواده إلى الماء هاتفاً « اللهم رب محمد لو أعلم أن وراء هذا الماء أرضاً تغزى فى سبيلك لغزوتها .

ومضت سنون . فإذا بفرسان الصحراء يستبدلون بصهوات جيادهم ؛ الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام ، المتحكمات فى عروش الماء ، وإذا بالمحيطات ميدان جديد ، لتلك القوة ، الفوارة بالبأس الرحيمة بالهدى والإيمان .

وانطلقت سابحات الماء العربية ، تجوب البحار ، وتقرع أبواب أوربا

يتم لها التطواف حول الأرض حتى لا تكون فتنة ، وحتى يكون الدين كله لله .

وكانت الوثبة الأولى على الجزيرة الخضراء ، مفتاح أوربا ورأسها المفكر ؛ وبسيادة العرب على الأندلس ، أضاء الإسلام قارات الدنيا الثلاث المعروفة فى ذلك الحين ، فتمت له السيادة العالمية .

وفى الأندلس دخلت الحضارة المحمدية ، أفقاً جديداً ، والتقت وامتزجت بثقافات وعادات وأمم جديدة . وإلى الأندلس وهى أقصى مد للموجة الحربية المنتصرة ؛ نفر الأبطال والرجال أولو البأس والعزم والطموح وإليها ، وهى أبعد المراكز الإسلامية عن مقر الخلافة الحاكمة ، ذات العنفوان والجاه ، هرع الأحرار والعلماء ورجال الفكر .

وبذلك ظفرت الأرض الجديدة بالصفوة المختارة ، فتهيأت لأن تكون مهداً وساحة للعصر الذهبى فى الإسلام ، وأعدت لمشاهدة أعظم حضارات العالم القديم .

يقول كاتب أسبانيا الأكبر « بلاسكوا أبانيز » فى كتابه — ظلال الكنيسة — متحدثاً عن العصر الإسلامى فى أسبانيا .

« ... وأخذ فرسان محمد — صلى الله عليه وسلم — يتدفقون من جانب المضيق فتستقر معهم تلك الثقافة الغنية الموطدة الأركان ، نابضة بالحياة ، بعيدة الشوط ، ولدت منتصرة وبث فيها النبي حمية مقدسة ، واجتمع لها ما فى وحى إسرائيل ؛ وعلم بيزنطية ، وتراث الهند ، وذخائر فارس ، ومعارف الصين .

ثم يقول « لقد نمت فى أسبانيا ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر ؛ أجمل الحضارات وأغناها وفى الوقت الذى كانت فيه أمم الشمال فريسة للفتن الدينية والمعارك الهمجية؛ كان سكان أسبانيا العرب ؛ يزدادون فيزيدون على ثلاثين مليوناً تنسجم بينهم جميع العناصر البشرية ؛ والعقائد الدينية وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التى عرفها التاريخ . فلا ترى لها قريناً تقابله به غير ما نجده فى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ من تنوع الأجناس ، واتصال الحركة والنشاط ، فعاشت فى الأندلس تحت ظلال العرب ؛ طوائف من النصارى وأهل الجزيرة ويهود أسبانيا والمشرق ، فكان منهم ذلك المزيج العجيب وعاشت بفضل ذلك التفاعل بين العناصر والعروق جميع الآراء والعادات ونمت الكشوف العلمية والأنظمة الفنية؛ وانبعثت من تجاوب هذه القوى ، مواهب الإبداع والتجديد »

تلك شهادة كاتب أوربى معاصر متعصب . تنطق فى حرارة عميقة بعظمة تلك الحضارة الاسلامية التى أشرقت فى الأندلس ، وهى حضارة لم يجد لها الكاتب مثيلا من حيث العظمة والضخامة والسرعة والانتاج والمعارف العلمية إلا حضارة الولايات المتحدة الحديثة .

وأى حضارة تسامق تلك الحضارة الأندلسية ، وأى أيام تضارع أيام الحكم الثانى أحد ملوكها الذى أسس فى قرطبة وحدها سبعا وعشرين مدرسة للتعليم المجانى ، كما أنشأ فى قصر مروان مكتبة ضمت أكثر من ستمائة ألف مجلد ، وجعلها بين الحدائق والرياض للعلماء والأدباء والشعراء ، كما أصدر أمرا ملكيا لايزال إلى يومنا عجبا من أعاجيب التقدم الإنسانى

بل حلما من أحلام رجال الاصلاح الاجتماعى ، فقد خصص فى هذا الأمر لكل أعمى مرشد يقوده ، ولكل مريض طبيب يعالجه ، ولكل أمى هاد يرشده ويثقفه .

يقول المستشرق دوزى فى كتابه « تاريخ المسلمين باسبانيا » لقد كان كل فرد فى الأندلس يعرف القراءة والكتابة ، بينما كان نبلاء أوربا لا يعرفون حتى التوقيع بأسمائهم ، وكانت جامعة قرطبة منارة للعلم لاتزاحمها منارة تماثلها فى العالم ، تدرس فيها العلوم الطبية والرياضية والفلكية والكيميائية دراسة ورثتها أوربا فأضاءت لها الطريق الى هذا الملك العريض .

ويقول الأستاذ « ح . ب نرند » فى مجموعة تراث الاسلام . واصفا قرطبة فى القرن الرابع الهجرى . وكان الرحالة القادمون من الشمال — من أوربا — يتسامعون بين الخشوع والرهبة بأخبار المدينة التى كان بها سبعون دارا للكتب ، وتسعمائة حمام للجمهور .

ذلك هو الأفق الأندلسى الذى حلق فيه المسلمون بأجنحتهم الجبارة ، فنظرت اليهم الأمم بعين الخشوع والرهبة . ثم هرعت اليهم ، لتنهل من العلم ، وتقتات من الإيمان ، وتتزود بالهدى .

كانت الأندلس هى المنارة التى ترسل شعاعها كالشمس تنير جنبات الأرض ، وتضيف إلى أمجاد الانسان فنونا من العلوم ، وألوانا من الآداب ، وفيوضا من من الكشوف العلمية ، والفكرية والدينية .

وتجلت الأندلس ، وتحلت بأجمل حلاها فى القرن الخامس الهجرى ، حتى ليشبهها دوزى بالنمر العاشق ، والجسر الذى تلاقت عنده ثقافات أوربا

القديمة ، بتلك الثقافة المحمدية المقدسة المنتصرة . كما تدفقت اليها معارف الشرق الاسلامى ، فنمت وزكت حتى غدت مجمعا أعلى للفكر الانسانى العالمى .

ولقد درج التصوف مع الفكر الاسلامى منذ يومه الأول ، يصعد بصعوده ويهبط بهبوطه ، كما تدرجت المعارف الصوفية تدرجا طبيعيا . من الزهد والعزلة والذكر والتصفية القلبية . وما يلهمه صفاء القلب من فهم فى كتاب الله وادراك لأسرار كلام رسوله . كما نشاهد فى صوفية القرن الأول الى سمات امتاز بها القرن الثانى ، اذا انتقل التصوف الى آفاق أرحب وأشمل ، إلى معارف الروح والهاماتها ، ومعانى المحبة واقباسها ، وحنين القلوب وأشواقها ، وتعددت مدارس التصوف ، وتعددت ألوانه وطرائقه ومذاهبه ، تعددا ظهرت آثاره واضحة مشرقة فى صوفية القرن الثالث والقرون التالية .

فمدرسة سعيد بن المسيب ، وهى مدرسة التصوف الممزوج بالفقه والتوحيد بلغت ذروتها فى الأعلام الحداة الغزالى . والرفاعى . والجيلانى .

ومدرسة ابراهيم بن أدهم ، وهى مدرسة التصوف الذى سمته المحبة المشبوبة ، أنجبت ذا النون المصرى ، أكبر المتحدثين عن النفس ومقاماتها ، والبسطامى العلم الفرد فى توضيح حالات الفناء وهى أسمى مراتب المريدين ، وأعلى قمة المحبين ، حيث تنكشف فى ساحاتها الحقائق الالهية المكنونة على غير أهلها ، وحيث تسمو الروح فى رحابها إلى مرتبة الفيض والأشراق .

ثم يأتى دور الكمال الصوفى ، ممثلا فى شيخ الطريقة الجنيد ، ودور الابداع الفنى فى المحب الفانى الحلاج ، الذى شرب من كأس الحب . حتى انتشى ثم غرق . فكان فتنة للناس ؟ ودور الكمال العلمى متجليا فى

العبقرى ، شهاب الدين السهروردى . رئيس الاشراقيين ، وابن سبعين ، الصقلى امام المفسرين وعمدة الشارحين .

فإذا تمت للتصوف فى القرن الخامس الهجرى ، مدرسة جامعة ، مميزة بسمات وعلامات ، لها عناصرها وعلومها . وأساتذتها ومريدوها ، وإذا تم للتصوف نفوذه القوى الغلاب على الأرواح والقلوب ، فى سائر أنحاء المجتمع الاسلامى ، وشيد الصرح الأسنى ورفعت قواعده . فقد آن له أن يتحلى بالمحراب والامام والزعيم الأكبر فى علوم الفيض والالهام . وفنون العطايا الالهية ، والمعارف اللدنية والكاتب المصطفى الذى يهب الحياة والخلود ، لكل ما تدركه خواطره ، أو يمسه قلمه ، أو ينفث فى قلبه من هدى ونور .

وجاء محيى الدين ، على عرش قدر وأعد . فكان اسمه يحمل حقيقة رسالته ، وكانت سمته الغلابة السلطنة والسيادة ، وكان مقامه من التصوف كلمة الامام صفى الدين : الجنيد يربى المريدين ، ومحيى الدين يربى العارفين وتربية العارفين ، وهم من هم . قمة فى التصوف تفرد بها ، فهو أولها وهو أيضا ختامها .

جاء محيى الدين فى العصر الذهبى للحضارة الاسلامية الاندلسية ، جاء فى عصر مأهول بالعلماء عامر الأفق بنجوم السماء ، فلما ألقى من فيض ما تلقى ، بيانه وهداه ، خشعت له القلوب ، ودانت له العقول ثم طوف فى رحاب العالم الاسلامى ، كالغيث المبارك أينما حل هطل فانبت وأحيى .

وللبيئة الأندلسية التى وجد فيها محيى الدين ، تأثير حاسم فى حياته ، فبينما كان المشرق الاسلامى يموج بطوائف من الملل والنحل والمذاهب . منهم من الخوارج والمرجئة ، ومجادلين من الأشاعرة والماتردية والمعتزلة ،

وبينما كانت هذه الطوائف تتصارع وتتلاحى، وتفنى حيويتها فى الصراع والتلاحى. كانت الأندلس، تحت أجنحة الرحمة، أمة واحدة، متجانسة الفكر، موحدة المذهب، رضية الجدل والحوار.

ولهذا لم يفن محيي الدين حياته صراعا وقتالا كما فعل الغزالى الذى سبقه بقليل فى المشرق فى حروبه ومجادلاته، مع الفلاسفة والفقهاء ورجال المذاهب.

ولم تتلظ حياته بأوار مستعر من الخصومات العنيفة، كما نشاهد فى ابن تيمية فى المشرق أيضاً بعده بقليل. مع القرامطة والفلاسفة والصوفية وغيرهم بل امتازت حياته بالهدوء والصفاء والتفرغ المطمئن للتعبد والتلقى.

وإذا اشتبك فى جدال أو حوار، وقليلا ما يشتبك فهو الهادى السمح الرحب الأفق والصدر فلا يرمى بالكفر وما إلى الكفر من نعوت وألقاب، كما فعل الغزالى، ولا يقذف بالزندقة والفجور كما صنع ابن تيمية، بل أقصى ما يرمى وأجرح ما يوجه، هو أن يقول لخصمه فى سماحة «لقد أخطأ عقلك، ولم يخطىء إيمانك» كما قال للمجسدة والمعتزلة خلال مناقشته لهم فى صفات الذات. فالإيمان عنده فى القلب، أما الآراء فمن وثبات العقول.

وثمة صفة أخرى واضحة فى حياة محيي الدين. فعلومه علوم كشف وفيض، ومصادر الكشف والفيض هى الالهام الالهي والفتح الربانى، وهو يقول فى صراحة، إنه لا يكتب عن روية وفكر، وإنما عن نفث فى

روعه وأن تصانيفه من خزائن القرآن ، وقد أعطى مفاتيح الفهم فيها والامداد منها

وعلوم الكشف والفيض لا يمكن أن تجادل ، ولا يمكن أن تناقش ، لأنها علوم ذوق وتذوق ، وليس فى الذوق جدل ولا جدال .

وإذا كان محيى الدين ، قد سلم من الجدل والخصومة فى حياته ، فقد انطلقت العواصف فى أثره جامحة هادرة . فقد ترك فى الدنيا دويا ، وأحدث زلزالا ، اختصمت فيه الدنيا وتصارعت حوله العقول . فهو القطب الامام ، والعالم الفرد الأوحد عند رجال التصوف ، وهو الزنديق المتفلسف الهاتف بالحلول ووحدة الوجود عند الماديين وبعض الفقهاء الجامدين ، ولكن هؤلاء وهؤلاء ، وإن تجادلوا وتصارعوا فى عقيدته ، لم يختصموا فى علمه ولم تجرؤ ألسنتهم على الانتقاص منه .

ولعل من آيات محيى الدين التى تفرد بها أن كتبه أمة وحدها ، فقد برىء قلمه مما أصيبت به أقلام الكاتبين الذين تلمح فى آثارهم معارف عصرهم ، أو تراث عصور سابقة ، فقد تغلب بمواهبه العقلية والروحية وبإلهاماته الدينية وكشوفه القلبية على جيله وعلى الأجيال التى سبقته ، بل لقد احتفظ بتفرده وتفوقه على الأجيال التى تعاقبت بعده فعاش فى التاريخ منارة لا تطاول ، وصرحا شامخا ممرداً ترتد عنه العيون ، وتخشع لديه الأفئدة .

وما فكرت يوما فى محيى الدين ، إلا وترتسم فى مخيلتى ، قمة جبل افرست ، والصراع الذى دار حولها للوصول إليها ، وتواثبت فى خواطرى صور هؤلاء الذين جاهدوا للوصول إلى تلك القمة الباذخة المعتصمة بجلالها

ورهبتها . وكيف توالى عجز الواثبين والطامحين . وكيف فشلت الجهود متفرقة ومجتمعة فى الوصول ، إلى أعلى قمم الدنيا ، وأرهب مرتفعاتها .

وكذلك عند محيى الدين . قمة شامخة فى سموها الرائع ، شامخة بأسرارها وعلومها وإلهاماتها ، قمة هى أعظم ما وصل إليه الخيال المحلق فى ميادين العلم والفلسفة والدين ، قمة قد أحاطها صاحبها بالصعاب والمشاق والتهاويل ، حتى غدا الوصول إليها ضربا من كفاح لا ينتهى ، وغدا المرتقى قاسيا مرهقا حتى لجبابرة الأجنحة .

قمة تدفع عنها الضعيف المتخاذل بل وترد أيضا عن سرها القوى المناضل إنها لقمة الذوق والتذوق ، فهى فى حاجة أولا إلى الذوق والتذوق .

وإذا كان الأصمعى يقول .. إن الكتاب أشبه بساحات الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والنوى ، فساحة محيى الدين كالمحراب . لا تقع فيها إلا على در مكنون ، أو سر مصون ، أو نور موهوب ، لأنها ساحة فوق قمة ، قمة متطلعة إلى السماء وهدى السماء .

ولست أزعم لك أن هذا الكتاب ، معراج يرقى بك إلى تلك القمة ، أو مفتاح سحرى يوصلك إلى محرابها المقدس ، وانك ستشاهد المحراب ، وستحظى بعجائبه ، وستظفر بأسراره ، وستتنعم ببدائعه ، فذلك مطمح لا تطيقه الأقلام ، ولا تدعيه الأذواق .

وإنما أرجو أن أكون قد فتحت لك نافذة تشاهد منها ذلك الأفق العلوى ، أو دفعت إلى يدك بمنظار مكبر ، يجلو ويوضح ، ما يمكن أن يرى من تلك القمة الشامخة .

مولده ـ ونشأته

هو محمد بن على بن محمد بن احمد بن عبد الله الحاتمى ، من ولد عبد الله ابن حاتم أخى عدى بن حاتم ، من قبيلة طى مهد النبوغ والتفوق العقلى فى جاهليتها وإسلامها ، يكنى أبا بكر ويلقب بمحيى الدين ، ويعرف بالحاتمى وبابن عربى لدى أهل المشرق ، تفريقا بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى وبابن العربى لدى المغاربة ، وكما يسمى هو نفسه فى كتبه ، ويعرف فى الأندلس بابن سراقة ، ويصعد به نسب خولته إلى الأنصار .

وقد وهبه الله للدنيا فى ليلة خالدة فى تاريخ الإسلام ، ليلة تتجدد ذكراها كلما نطق مسلم بكلمة التوحيد وهتاف الإيمان ، إذ كان مولده فى يوم الاثنين سابع عشر من رمضان عام ٥٦٠ هـ فى « مرسية » — بضم الميم وسكون الراء وكسر السين — أى فى الشهر الذى أنزل فيه القرآن وهبط وحى السماء . وفى اليوم المماثل ليوم الفتح والنصر ، يوم بدر الأغر الميمون ، ولد تحت ظلال تلك الذكرى ، فكان فتحا ونصرا .

ومرسية مهبط مولده ، بلد إسلامى ، أنشأه المسلمون فى الأندلس فى أيام الأمويين ، وهى فى شرق الأندلس إحدى مفاتن الجزيرة الخضراء بكثرة المنازه والبساتين ودور العلم ومساجد الطاعة والعبادة .

وهو سليل أسرة ، عريقة فى العلم والتقوى ، عراقتها فى الحروب والنضال . كان جده الأعلى عبدالله الحاتمى . أحد قادة الحروب والفتوحات .

وكان جده الأدنى . أحد قضاة الأندلس وعلمائها وكان أبوه على بن محمد . من أئمة الفقه والحديث . ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف . ولنترك محيي الدين يحدثنا عن أبيه . فقد وصف لنا فى الجزء الأول من الفتوحات أحوال الأولياء بعد مماتهم فمن كان عبدا خالصا لربه فى الأولى . كان فى الثانية ملكا له جاهه وسيادته . ومن كان معرضا زاهدا فى مظاهرها . فلا يحجبه الموت ولاينال منه الفناء عند صعود روحه إلى خالقها. فمن صفات صاحب هذا المقام ، أن من نظر فى وجهه وهو ميت يقول فيه حي . ثم يقول . .

« ولقد رأيت ذلك لوالدى رحمه الله . فانا دفناه على شك مما كان عليه فى وجهه من صورة الأحياء . ومما كان عليه من سكون عروقه وانقطاع نفسه من صورة الأموات . وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوما. أخبرنى بموته ، وأنه يموت يوم الأربعاء ، وكذلك كان ، فلما كان يوم موته ، وكان مريضا شديد المرض استوى قاعدا غير مستند . وقال . . يا ولدى . اليوم يكون الرحيل واللقاء ، فقلت له كتب الله سلامتك فى سفرك هذا ، وبارك لك فى لقائك ، ففرح بذلك ، وقال لى . جزاك الله يا ولدى عني خيراً ، فكل ما كنت أسمعه منك ، ولا أعرفه ، وربما كنت أنكر بعضه هوذا أنا أشهده ، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء ، لها نور يتلألأ ، فشعر بها الوالد ، ثم إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه ، فقبلت يده وودعته وخرجت من عنده ، وقلت له أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتينى نعيك ، فقال لى : رح

ولا تترك أحداً يدخل على ؛ وجمع أهله و بناته ، فلما جاء الظهر جاءنى نعيه فجئت إليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الموت والحياة ، وعلى تلك الحالة دفناه وكان له مشهد عظيم ، فسبحان من يختص برحمته من يشاء ، فصاحب هذا المقام حياته وموته سواء » .

هذا هو النبع الأبوى الزكى ، الذى أنجب محيى الدين ، أما نبعه من حيث خؤلته ؛ فهو سليل الأنصار الأطهار ، الذين لا يسلكون فجاً إلا سلكه الرسول صلوات الله عليه ، معهم ، ولنترك محيي الدين أيضاً يحدثنا عن خاله الصوفى صاحب الأحوال والأنفاس .

« كان خالى أبو مسلم الخولانى ، يقوم الليل ، فإذا أدركه الإعياء ضرب رجليه . قائلا أنتما أحق بالضرب من دابتى ، أيظن أصحاب محمد صلوات الله عليه ، أن يفوزوا به دوننا ، والله لأزاحمنهم عليه ، حتى يعلموا أنهم خلفوا من بعدهم رجالا » . (١)

وهكذا درج محيى الدين بين بيت والده ، ودار خاله ، فى جو عامر بنور التقوى ؛ فيه سباق حار نحو الشرفات العليا للإيمان ، وفيه عزمات لرجال أقوياء ؛ ينشدون نصراً وفوزاً فى محاريب الهدى والطاعة .

وانتقل والده إلى أشبيلة ، إلى حاكمها السلطان محمد بن سعد ، وهى عاصمة من عواصم الحضارة والعلم فى الأندلس ، وفيها شب محيى الدين ودرج ، وما كاد لسانه يبين ، حتى دفع به والده إلى أبى بكر بن خلف عميد الفقهاء ، فقرأ عليه القرآن الكريم بالسبع فى كتاب الكافى ، فما أتم العاشرة من عمره حتى كان مبرزاً فى القراءات ، ملهما فى المعانى والإشارات

(١) الجزء الاول من الفتوحات المكية

ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الحديث والفقه ، يذكرهم لنا الامام شمس الدين بن مسدى فى روايته عن محيى الدين إذ يقول .

« كان جميل الجملة والتفصيل ؛ محصلا لفنون العلم أخص تحصيل ، وله فى الأدب الشأو الذى لا يلحق ؛ والتقدم الذى لا يسبق ؛ سمع فى بلاده فى شبابه الباكر ، من ابن زرقون والحافظ بن الجد ؛ وأبى الوليد الحضرمى ؛ والشيخ أبى الحسن بن نصر ... »

ثم لا يذكر لنا التاريخ بعد ذلك شيئاً عن شباب محيى الدين ولا عن شيوخه ؛ ومقدار ما حصل من العلوم والفنون . ولكن محيى الدين ، أرخ نفسه ومجلا حياته ، فهو يذكر لنا فى الفتوحات ، أنه قد أعرض عن العلم والشيوخ ، وأنه قد اتجه بروحه إلى محاريب الله ، ومهابط إلهامه ، إلى التفكر فى خلق السموات والأرض وإلى الذكر الدائم المطهر الملهم .

ثم إلى الخلوة والخلوة ، يطهر خواطره ، ويطهر وجدانه ، ويزكى نفسه لتلهم تقواها ، حتى تفجرت فى قلبه ينابيع الفيض ، وأشرقت فى حياته شمس الهبات والعطايا اللدنية .

وتراث محيى الدين ، يشهد بأنه كان فى صباه ، مرهف الحس والذوق قوى العاطفة ، غلاب الوجدان ، رحب الآفاق فى الهمة والتطلع .

ويشهد بأن روحه ، كانت أعظم من أن تطيق ذلك التلقين الرتيب من شيوخه وأساتذته ، وأن تلك الروح قد انطلقت تنشد حباً أكبر من تلك العواطف التى تحيط به ، وتبغي أفقاً أعظم وأشمل من تلك الألوان من العلوم والمعارف .

والهمة كما يقول، هي أساس الفتح والفيض، فإن التجرد يعطي الطهارة والطاعة: أما الكشف والفيض فأساسهما الهمة وعزمات الرجال.

وإن كانت همة خاله أبي مسلم، قد قعدت به عن اللحوق بأصحاب محمد صلوات الله عليه وإن كانت عزيمته قد ضعفت أجنحتها عن التحلق والتفوق في الكشف وفنونه؛ والإلهام وعلومه، فإن لمحي الدين لهمة وإن له لعزما، وإنه لسباق لا يسبق، وهداف لا يخطىء؛ وإن لروحه وثبات تكاد تذهب بها إلى الملأ الأعلى، وإن في قلبه لشيئاً يكاد يضيء، ولو لم تمسه تلك العلوم والمعارف.

وإذن فليعرض محي الدين عن شيوخه وأضابير معارفهم، وليختصر الطريق الممل الشاق، في وثبات روحية جبارة، إلى منابع العلوم ومصادرها إلى النور الذي تعيش فيه الفئة التي رضي الله عنها وأحبها فوهبها وعلمها من لدنه علما.

واعتزل محي الدين الدنيا عزلته الأولى، عزلة هي سر بينه وبين فاطر السموات والأرض، ولكنها عزلة مهدت لتكوين تلك القوة العلمية الربانية العظمى، عزلة أحدثت عجباً، وأورثت علماً، خشع له أكبر جبار في عالم العقل والفلسفة، خشع لها وأكبرها أبو الوليد بن رشد، ولنترك محي الدين يحدثنا بقلمه الساحر، عن الالتقاء بين علم الهبات الربانية، والعلم المكتسب من العقل المتفوق المثقف يقول محي الدين في الفتوحات»

بين ابن رشد ومحي الدين

«... دخلت يوما بقرطبة، على قاضيها أبي الوليد بن رشد، وكان يرغب في لقائي لما سمع وبلغه ما فتح الله عليّ في خلوتي، وكان يظهر التعجب

مما سمع ، فبعثنى والدى إليه ، فى حاجة قصداً منه ، حتى يجتمع بى ، فإنه كان من أصدقائه ، وأنا صبى مابقل وجهى، ولا طر شاربى ، فلما دخلت عليه قام من مكانه إلى محبة و إعظاما ، فعانقنى وقال لى نعم؟ فقلت له نعم ؟ فزاد فرحه بى ، لفهمى عنه ، ثم استشعرت بما أفرحه من ذلك ، فقلت له لا ؟ فانقبض وتغير لونه ، وشك فيما عنده وقال كيف وجدتم الأمر فى الكشف والفيض الآلهى ، هل هو ما أعطاه النظر ، قلت له نعم ولا ، و بين نعم ولا تطير الأرواح ، فاصفر لونه ، وقعد يحوقل؛وعرف ماأشرت به اليه»

وابن رشد ، كان يهدف فى فلسفته إلى التوفيق بين الدين والفلسفة ؛ وله فى ذلك محاولات وجولات ، وقد نشد فى مقابلته لمحيى الدين أن يطمئن وأن يأخذ اعترافا من رجل من رجال الدين والكشف بأن القمة التى تصل إليها الفلسفة ؛ هى بعينها غاية الدين وهدفه ؛ وأن العقل يلتقى بالروح فى خاتمة المطاف .

وأن ما ذهبت إليه الفلسفة من شرح للسنن الكونية ؛ وتمثيل لقدرة الله سبحانه وآياته فى خلقه لا تتعارض مع الدين بل تؤيده وتدعمه .

وقد قال له محيى الدين فى البداية نعم . ففرح ابن رشد؛ ثم استدرك محيى الدين ؛ فقال لا . ؟ فحزن ابن رشد ؛ وأراد توضيحاً ؛ فقال . . هل وجدتم الأمر فى الكشف والفيض هو ماأعطاه النظر ، فقال محيى الدين . نعم . ولا .

نعم لأن العقل قد يهدى إلى الله ،و يدرك و يلمس أسرار الكون ، ولكن العقل المجرد مع وصوله إلى تلك القمة ، ينحدر و ينزلق و يضل فى

المتشابهات ، فضلا عن ابتعاده عن التعبد والتطهر وتحلله من الكمالات الخلقية والشرعية .

والعقل المجرد ، ليس له قيداً يعصمه ولا حداً يتفق عليه بين العقول التى تتطاير حول المعارف مع الريح فى شتى الاتجاهات والغايات . ولذلك قال له محى الدين : و بين نعم ولا ، تطير الأرواح .

ولم يكن هذا الاجتماع فاصلا بين الرجلين العظيمين، ولا بين المدرستين المتناظرتين فسعى ابن رشد إلى لقاء آخر مع الصبى ، الذى كبر بالخلوة ، وتعلم فى الجلوة ، وتفوق وما يقل وجهه ولا طرشار به .

يقول محى الدين وطلب ابن رشد من أبى بعد هذا الاجتماع أن يلتقى بنا ليعرض ما عنده علينا لنرى هل هو يوافق أم يخالف ، فإنه كان من أرباب الفكر والنظر العقلى ؛ فشكر الله الذى كان فى زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا . وخرج مثل هذا الخروج ، من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة ؛ وقال هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أر باباً ، فالحمد لله الذى أنا فى زمان فيه واحد من أر بابها ، الفاتحين مغاليق أبوابها، والحمد لله الذى خصنى برؤيته »

ولم يسفر اجتماعهما الثانى عن نتيجة ترضى ابن رسد، ولكن الرجلين كل منهما أحب الآخر وأجله وأكبره .

ولم ينكر ابن رشد على محى الدين ، علومه الكشفية ، ولا طريقته فى المعرفة والتلقى . بل حمد الله الذى من عليه فأوجده فى زمان فيه مثل محيى الدين . الذى دخل الخلوة جاهلا وخرج منها إماماً مرشداً .

ولقد أطمع هذا الإيمان والحب محيي الدين فى هداية ابن رشد وجذبه إلى نطاق المتصوفة الراشدين ، فأراد أن يجتمع به مرة ثالثة ، وأعد عدة اللقاء ، وهيأ الجو لما ينشد ويريد ، ولكن الله أراد غير ما يريد .

يقول . ابن عربى « ولكن قبل أن ألتقى به أراه الله تعالى لى فى منظر قد ضرب بينه و بينى حجاب رقيق ، فكنت أنظر إليه منه ، ولا يبصرنى فعلمت أنه غير مراد لما نحن عليه ، فما اجتمعت به حتى درج فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش ، ونقل إلى قرطبة ودفن بها »

كان حجاب رقيق ، هو الذى يفصل ابن رشد عن محيي الدين . وهذا الحجاب الرقيق هو الفيصل بين الهدى والضلال ، والرضا والغضب ، والإعراض والاصطفاء ، أو كما يقول محيي الدين ، بين نعم ولا تطير الأرواح ، وما أيسر ما بينهما ، وما أعظمه .

وتلك فترة دقيقة حاسمة فى حياة محيي الدين ، فهو صريح كل الصراحة فى أنه دخل الخلوة صغيرا لم يطر شاربه ، دخلها بدون قراءة ولا مطالعة ، إلا أيسر ما تكون القراءة والمطالعة ، فرشد وألهم ، وتعلم من لدن ربه الوهاب علما أخذ يزداد مع أنفاسه ، ويترقى مع تسبيحاته ، حتى بلغ من علم ربه ما قدر له ، وحتى تمت له الزعامة التى لا تطاول ولا تغالب فى علوم الإيمان وفيوضات القلب .

ويحدثنا محيي الدين عن علمه الموهوب فيقول وأنا أستمد علمى من كلمات الله التى لا تنفد — قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى — ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر

يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » —

ويقول . لو أن علمه كان نتيجة بحث أو فكر لحصر فى أقرب فرصة ، ولكنهما موارد الحق تبارك وتعالى تتوالى على قلب العبد وأرواح البررة تتنزل عليه من عالم غيبه برحمته التى من عنده وعلمه الذى من لدنه ، والحق تعالى وهاب على الدوام ، فياض على الاستمرار ، والقلب البشرى ، قابل على الدوام للتلقى .

العلم النظرى . واللدنى

انها لموارد الحق تبارك وتعالى تتوالى على قلبه ، وانها لأرواح برزة تتنزل عليه من عالم غيبه ، وانه لقلب زكى مختار ، قابل على الدوام للتلقى ، وانه لروح أعد واصطفاه ربه ، لأكمل ما يصطفى العلماء من الأولياء ، وان هذا الفيض الربانى ، ليتوالى عليه ، ولم يطر شار به ولا بقل وجهه ، ولم يلقن من قبل عنما دنيويا يزاحم به ويفاخر .

بل انه ليرى كما ترى جمهرة أهل التصوف ، أن القلب إذا سلم من النظر الفكرى شرعا وعقلا فى البداية ، كان قابلا للفتح الإلهى على أكمل ما يكون الفيض والفتح ، فليس فى القلب عوائق من معارف سابقة تتصدى للواردات أو تناقضها .

يقول الامام الغزالى « لما أردت أن انخرط فى سلكهم وآخذ مأخذهم وأغترف من البحر الذى اغترفوا منه ، خلوت بنفسى واعتزلت عن نظرى وفكرى ، وشغلت نفسى بالذكر فانقدح لى من العلم ما لم يكن عندى ،

ففرحت بذلك وقلت انه حصل لى ما حصل للقوم ، فتأملت فيه ، فاذا فيه قوة فقهية . مما كنت عليه قبل ذلك . فعلمت أنه بعد ما خلص لى . فعدت إلى خلوتى واستعملت ما استعمله القوم ، فوجدت مثل الذى وجدت أولا وأوضح وأسنى . فسررت . فتأملت فإذا فيه قوة فقهية مما كنت عليه أولا . وما خلص لى فعاودت ذلك مرارا والحال الحال . فتميزت عن سائر النظار أصحاب الأفكار بهذا المقدار . ولم ألحق بدرجة القوم فى ذلك . وعلمت أن الكتابة على المحو . ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الأولى... »

كان محيى الدين . على الصفاء الأول . وعلى الطهارة الأولى . عندما دخل خلوته . فتولاه ربه من بدايته . وفتح له خزائن مننه وعلمه وأفاض عليه من هباته . ومد له سلما من الصفاء يعرج فيه قلبه إلى معارج الملأ الأعلى .

ولكن المتصوف المختار المصطفى . وان لم يكن فى حاجة إلى العلوم العقلية والنظرية . فهو فى ضرورة لاتجادل إلى المرشد المربى . إلى الشيخ الذى يملكه ليسعده . ويصوغه ليجليه ويحليه صفاء ونورا .

مكانة الشيخ فى الطريق

وللشيخ فى التصوف مكانة عليا . فهو للطريق كالفنار للماء . لايهتدى السائر إلا به . ولايرشد إلا بنوره . انه غير المعلم العقلى . والمربى المدرسى . فوظائفه فوق التعليم والتلقين . مراقبة القلب والخواطر والواردات . أو كما يقول محيى الدين يعرف من مريده موارد حركاته ومصادرها ، وعلوم الخواطر مذمومها ومحمودها . ويعرف الأنفاس والنظرة . ويعرف مالها وما

يحتويان عليه . من الخير الذى يرضى الله . ومن الشر الذى يسخط الله . ويعرف العلل والأدوية . ويعرف الأزمنة والألسن والأمكنة والأغذية وما يصلح المزاج وما يفسده . والفرق بين الكشف الحقيقى والكشف الخيالى . ويعلم التجلى الإلهى . ويعلم التربية . وانتقال المريدين من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة . ويعلم متى يترك التحكم في طبيعة المريد . ويحكم فى عقله . ومتى يصدق المريد خواطره . ويعلم ما للنفس من الأحكام . وما للشيطان من الأحكام . ويعلم الحجب التى تعصم الانسان من القاء الشيطان فى قلبه . ويعلم ما تكنه نفس المريد مما لا يشعر به المريد . ويفرق المريد إذا فتح عليه فى باطنه بين الفتح الروحانى و بين الفتح الالهى ويعلم بالاسم أهل الطريق الذين يصلحون له من الذين لا يصلحون . ويعلم التجلية التى يحلى بها نفوس المريدين الذين هم عرائس الحق .

فهم أدباء الله العاملون بآداب الحضرة ، وما تستحقه من الحرمة ، والجامع لمقامهم . إن الشيخ عبارة عمن جمع جميع مايحتاج اليه المريد السالك فى حال تربيته وكشفه ، إلى أن ينتهى إلى الأهلية للشيخوخة ، وجميع ما يحتاج اليه المريد إذا مرض خاطره وقلبه بشبهة وقعت له لا يعرف صحتها من سقمها،وحرمة الحق فى حرمة الشيخ ، وعقوقه فى عقوقه » .

ذلك هو جماع ما يمكن أن يقال عن مكانة الشيوخ فى طريق الله ، فهم أساتذة تلك الجامعة الربانية وأطباؤها ، ولا بد المريد السائر على الصراط الأعظم من أن يلجأ اليهم حتى تعصمه حكمتهم من الزلل ، فطريق التصوف ليس طريقاً سلطانياً هينا سهلا . إنه لطريق المزالق والشباك والمحن والمهالك

والصبر والمجاهدة المرة ، التى لا يقدر عليها إلا أهل الفتوة والقوة ، والمناعة الروحية ، والعظمة القلبية والعقلية ، وفوق هذا وذاك ، الاجتباء والاصطفاء والمحبة والرضا .

ولهذا خرج محيى الدين من خلوته ، فقد نهل من العلم المصفى ما أذهل به ابن رشد ، وما حير به أئمة عصره ، ولكن التربية غير العلم ، والطبيب غير المعلم ، خرج ينشد الدليل والقائد ، وحامل المصباح .

الخضر وشيوخه فى الطريق

وكان أول شيوخه فى الطريق الامام أبو العباس العريبى ، أحد فحول أصحاب الأحوال والأنفاس وطبق عليه شيخه شرعة الطريق ، غير عابىء ولا ملتفت إلى علوم محيى الدين ومعارفه ، ولهذا كان يجمح محيى الدين أحيانا ، بل ويتمرد على ما اصطلح عليه من تسليم المريد المطلق لشيخه وهاديه لوثوقه من علمه وتمكنه من معارفه .

ولكن عناية الله ، وهي سر هؤلاء الرجال ، وهى الدعامة الأولى التى ترتكز عليها حياتهم وتتلون بهاشخصياتهم ، قيضت له أمام شيوخ الطريق كافة ، الولى الخفى ، الذى شهد له القرآن بأنه أوتى من لدن ربه علما لم يطقه موسى النبى ، قيضت له الخضر فأرشده وكفكف من غرب نفسه ورده إلى شيخه ، يقول محى الدين :

«وذلك أن شيخنا أبا العباس العريبى جرت بينى و بينه مسألة فى حق شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله صلوات الله عليه ، فقال لى هو فلان

ابن فلان ، وسمى لى شخصا أعرفه باسمه وما رأيته ، فتوقفت فيه ولم آخذ بالقبول ، لكونى على بصيرة فى أمره فتأذى الشيخ فى باطنه ، ولم أشعر بذلك فانى كنت فى بداية أمرى ، فانصرفت عنه إلى منزلى ، ولما كنت فى الطريق بسوق الخنة باشبيلية لقينى شخص لا أعرفه ، فسلم على ابتداء سلام محب مشفق ، وقال لى . يامحمد . سلم إلى الشيخ مقاله ، فيما ذكر لك عن فلان . وسمى لى الشخص الذى ذكره أبو العباس . فقلت له نعم . وعلمت ما أراد . ورجعت من حينى إلى شيخى . لأعرفه بما جرى . فعندما دخلت عليه كلمنى قبل أن أكلمه . قال لى . يا أبا عبد الله . احتاج معك إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى أن الخضر يتعرض اليك ، ويقول سلم لفلان فيما ذكره لك . ومن أين يتفق لك هذا فى كل مسألة تسمعها منى فتتوقف . قلت أهو الخضر ؟ قال نعم . قلت أن باب التوبة مفتوح . فقال وقبول التوبة واقع . فلما كان بعد مدة رأيت شيخى قد رجع إلى قولى فى تلك المسألة . وقال لى إنى كنت على غلط فى تلك المسألة . فقلت له ياسيدى علمت الساعة أن الخضر ما أوصانى إلا بالتسليم وماعرفنى بأنك مصيب فى تلك الحالة . ولكن التسليم واجب »

والتقى محيى الدين بالخضر مرة أخرى حينما كان مع شيخه الثانى الامام جراح بن خميس ويحدثنا محيى الدين عن هذا اللقاء فيقول :

«ثم اتفق لى مرة أخرى أنى كنت فى مركب فى البحر . فأخذنى وجع فى بطنى وأهل المركب قد ناموا . فقمت إلى جانب السفينة . وتطلعت إلى البحر فرأيت شخصا على بعد فى ضوء القمر . وكانت ليلة البدر . وهو يأتى

على وجه الماء حتى وصل إلى ووقف معى. ثم تكلم معى بكلام كان عنده . ولقننى أشياء وأشياء . ثم سلم وانصرف يطلب المغارة مائلا نحو تل على شاطىء فيبننا و بينه مسافة تزيد على ميلين فقطع تلك المسافة فى خطوتين . أو ثلاث اسمعت صوته وهو على ظهر المغارة يسبح الله . وربما مشى إلى شيخنا جراح بن خميس الكتانى وكان من سادات القوم وكنت جئت من عنده بالأمس من ليلتى تلك ، فلما جئت المدينة لقيت رجلا صالحا . فقال لى كيف كانت ليلتك البارحة فى المركب مع الخضر . ما قال لك وما قلت له فعلمت أنه الخضر»

وكان شيخه الثالث . أبو محمد بن عبد الله ، ذروة مرموقة فى علوم الكشف ، ويحدثنا عنه فيقول

« دخلت على شيخنا ابى محمد بن عبد الله بغرناطه سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وهو من أكبر من لقيته فى هذا الطريق ، ولم أر فى طريقته مثله فى الاجتهاد وكان ممن أوتوا فهما فى القرآن ارثا محمديا ، فقال لى : الرجال اربعة .

رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه وهم رجال الظاهر . ورجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وهم رجال الباطن ، جلساء الحق تعالى . ولهم المشورة . ورجال الأعراف ، وهم رجال الحد ، قال الله تعالى « وعلى الأعراف رجال » وهم أهل الشم والتميز والسراح عن الأوصاف ، فلا صفة لهم ، كان منهم أبو اليزيد البسطامى . ورجال إذا دعاهم الحق يأتونه رجالا لسرعة الاجابة لا يركبون . قال تعالى ﴿وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ﴾ وهم ورجال المطلع .

فرجال الظاهر لهم التصرف فى عالم الملك والشهادة ، وأما رجال

الباطن فهم الذين لهم التصرف فى عالم الغيب والملكوت . فيستنزلون الأرواح العلوية بهممهم فيما يريدونه . أعنى أرواح الكواكب لا أرواح الملائكة ، فيفتح لهؤلاء الرجال فى باطن الكتب المنزلة والصحف المطهرة وكلام العالم كله ونظم الحروف والأسماء من جهة معانيها، مالا يمكن لغيرهم اختصاصا إلهيا ، وأما رجال الحد فهم الذين لهم التصرف فى عالم الأرواح النارية ، وهو عالم البرزخ والجبروت، وهم رجال الاعراف ، والاعراف سور حاجز بين الجنة والنار ، برزخ . باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فهو حد بين دار السعداء ودار الاشقياء ، وهؤلاء الرجال أسعد الناس بمعرفة هذا السور ، ولهم فى كل حضرة دخول واستشراف . وأما رجال المطلع فهم الذين لهم التصرف فى الاسماء الآلهية فيستنزلون بها منها ماشاء الله، وهذا ليس لغيرهم و يستنزلون بها كل ماهو تحت تصرف الرجال الثلاثة وهم أعظم الرجال ، وهم الملامتية» وكان محيى الدين منهم .

وكان شيخه الرابع الفقيه العابد ، يوسف الكومى ، يحدثنا عنه محيى الدين فيقول

« سألنى شيخى يوسف الكومى سنة ست وثمانين وخمسمائة عن مسألة من مشكلات التصوف فقال .

إذا اجتمع عارفان فى حضرة شهودية عند الله تعالى ماحكمها . قلت . . ياسيدى . هذه مسألة تفرض ولاتقع لأن الحضرة لاتسع اثنين . ولا تشهدها عين زائدة ، فإن أفترضناها مثالا ، فإذا اجتمعا فلا يخلو كل واحد منهما أن يجمعهما مقام واحد أولا يجمعهما. ثم حكم التجلى من حيث

الظهور واحد ، ومن حيث المتجلى له مختلف . فالتذوق متباين لاختلافهما فى أعيانهما ، ولا يجتمع شهود وخطاب وتجلى ورؤية غير »

وتأذن ربك لمحيى الدين بالانتقال إلى مرتبة الشيخ والامام وآن له أن يشرق فى أفق جديد رحب . وأن يغادر ركب المريدين إلى طلائع المرشدين .

يقول محى الدين « ولقد أنعم الله على بشارة عظمى بشرنى بها وكنت لاأعرفها من حالى وكانت حالى فأوقفنى عليها الامام خليفة القطب ، فقد نهانى عند التقائى به ، عن الانتماء إلى من لقيت من الشيوخ ، وقال لى : لاتنتم إلا إلى الله ، فليس لأحد ممن لقيته عليك يد مما أنت فيه ، بل الله تولاك برعايته وعنايته ، فاذكر فضل من لاقيت إن شئت . ولا تنتسب إلا إلى الله »

وبذلك دخل فى نطاق الذين أدبهم ربهم واجتباهم . وهم قلة فى الطريق لا يتجاوزون الآحاد بل وضع قدمه على أول الطريق إلى القمة العلمية الربانية . وهى شرعة هو صاحبها ورائدها وأمامها الأوحد .

وكما اصطفاه الله فى مطلع حياته مع شيوخه فأرسل الخضر إليه مرشداً ومربيا . كذلك خصه برحمته فى مطلع افاضات الأسرار اللدنيه عليه . فقد باح أول أمره بسر من أسرار المحب . وهى إباحة قلما نجا من عواقبها مراد أو مريد . يحدثنا عنها فيقول .

« ولقد منحنى الله سرا من أسراره بمدينة فاس سنة أربع وتسعين وخمسمائة فإذعته فإنى ماعلمت أنه من الأسرار التى لاتذاع . فعوتبت فيه

من المحبوب . فلم يكن لى جواب إلا السكوت .؟ إلا إنى قلت ، تول أنت أمر ذلك فيمن أودعته أياه . إن كانت لك غيرة عليه . فإنك تقدر ولا أقدر . وكنت قد أودعته نحوا من ثمانية عشر رجلا . فقال لى أنا اتولى ذلك، ثم اخبرنى انه سله من صدورهم وسلبهم أياه فالحمدلله حيث لم يعاقبنى بالوحشة والحرمان . كما عوقب غيرى »

المقامات والأحوال

لم يعاقب محيي الدين ، لأن العناية الربانية تعده فى رحمتها لرسالة ستتكشف عنها الأيام ، وتأتى بها الأنباء

ورجال القلوب والأنفاس ، والعلماء الربانيون كمحيي الدين الحديث عنهم ، حديث قلب وروح وإيمان ، والعوامل التى تكونهم ، هى الأنوار والاشراقات والتجليات الربانية ، والتقلب فى أسرار الأحوال ومنح المقامات وما تفيض به على أربابها من كشف وعلوم .

ولقد خاض محيي الدين فى الطريق إلى الله ، بحار تلك الأحوال ، وارتقى قمم تلك المقامات ، ونعم بعطاياها ، وذاق ثمارها ورياها ، وتحدث عنها ، وكشف منها ما أمر بكشفه ، وأكن ما أمر بحفظه ، وما كشف منها محيي الدين ، عطية لم تمنح لسواه ، وهى تراث من العلوم ، يسع علماء الدنيا قرونا وأجيالا يتدارسونها ، وينتفعون وينفعون بها

والمقامات الالهية ، بكنوز علومها ، احصاها محيي الدين فبلغت ستين ألفا من المقامات والأحوال الربانية ، ويتحدث عن نفسه فيقول :

« قد دخلنا فى كل ما ذكرناه فى هذه الامدادات الالهية ذوقا مع عامة أهل الله وزدنا عليهم باسم إلهى وهو — الآخر — أخذنا منه الرياسة وروح الله الذى يناله المقربون من قوله تعالى « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » ونلت هذا المقام فى دخولى هذه الطريقة سنة ثمانين وخمسمائة » .

وتلك السنة التى ذكرها محيى الدين تدل على أنه بلغ تلك المكانة ، ولم يتجاوز العشرين من عمره ، وفى تلك السن المبكرة ، أخذ يجتاز تلك المقامات سراعا نحو العلا ، ولنجل معه جولة فى تلك المقامات التي تنقل فى كواكبها ولنستمع إليه وهو يحدثنا عن مقام النور :

مقام النور

هذا مقام نلته سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، بمدينة فاس فى صلاة العصر ، وأنا أصلى بجماعة بالمسجد بجانب عين الجبل ، فرأيته ، نورا صافيا غلابا يكاد يكون من خلفى اكشف من الذى بين يدى ، غير أنى لما رأيته زال عنى حكم الخلف . وما رأيت لى ظهرا ، ولم أفرق فى تلك الرؤيا بين جهاتى ، بل كنت مثل الكرة لا أعقل لنفسى جهة إلا بالفرض .

مقام الوجد والوله

وهو من أخطر مقامات التصوف ، وهو ذهول وذهاب عن كل ما سوى الله بحكم المحبة والاشراق وكم من إمام غلب عليه هذا المقام فذهب معه ولم يعد ابدا . ولكن العناية شملته فحفظ كعهده يقول محيى الدين :

« ولقد ذقت هذا المقام . ومر على وقت أؤدى فيه الصلوات الخمس إما ما بالجماعة على ما قيل لى باتمام الركوع والسجود . وجميع أحوال الصلاة من أفعال وأقوال . وأنا فى مثل هذا كله لا علم لى بالجماعة ولا بالمحل ولا بالحال . ولا بشىء من عالم الحس . لشهود غلب على غبت فيه عنى وعن غيرى فأخبرت أنى كنت إذا دخل وقت الصلاة . أقيم الصلاة وأصلى بالناس فكان حالى كالحركات الواقعة من النائم . ولا علم له بذلك . فعلمت أن الله حفظ على وقتى ، ولم يجر على لسانى ذنبا كما فعل بالشبلى فى ولهه ، فقد كان الشبلى يرد فى أوقات الصلاة على ما ورد عنه ، فلا أدرى هل كان بعقل رده أو كان مثل ما كنت فيه ، فان الراوى ما فصل ، فلما قيل للجنيد عنه ، قال الحمد لله الذى لم يجر على لسانه ذنبا إلا أنى كنت فى أوقات فى حال غيبتى أشاهد ذاتى فى النور الا على ، والتجلى الأعظم ، بالعرش العظيم يصلى بها وأنا عرى عن الحركة ، بمعزل عن نفسى ، وأشاهدها بين يديه راكعة وساجدة وأنا أعلم أنى ذلك الراكع والساجد . كرؤية النائم واليد فى ناصيتى . وكنت اتعجب من ذلك وأعلم أن ذلك ليس غيرى ولا هو أنا ، ومن هناك عرفت المكلف والتكليف .

مقام الفتح فى العبارة

محيى الدين أعظم من حمل قلما فى دنيا التصوف ، إبانة وفصاحة وفيضا وكشفا ، وهو يرد كل تلك الصفات وهذه الخصائص المتفردة إلى هذا المقام . الذى يحدثنا عنه فيقول :

« الفتح فى العبارة لا يكون إلا للمحمدى الكامل . وأقوى مقام صاحب هذا الفتح الصدق فى جميع أقواله وحركاته ، وسكونه ، إلى أن يبلغ به الصدق أن يعرف صاحبه وجليسه ، ما فى ظاهره و باطنه من حركة ظاهرة أو باطنه ، بحيث لا يمكن لصاحب هذا الفتح أن يصور كلا ما فى نفسه و يرتبه فى فكره ثم ينطق به بعد ذلك ، بل زمان تصوره لذلك اللفظ الذى يعبر به عما فى نفسه زمان قيام ذلك المعنى فى نفسه وصورته ، فيفتح الله له فى العبارة ، فيعرب بقلمه أو بلفظه عما تنفسه بنفسه ومن علامات هذا الفتح استصحاب الخشوع ، وتوالى الاقشعرار عليه فى جسده بحيث أن يحس أن أجزائه قد تفرقت ، وهذا فتح ما لقيت فى عمرى فى مَنْ لقيته من رجال الله على كثرتهم أثراً منه فى أحد وقد يكون فى الزمان رجال لهم هذا الفتح ولم ألقهم ، غير أنى منهم بلا شك عندى ولا ريب ، فلله الحمد على ذلك . . . »

وهنا آية من آيات محيى الدين ، فهو يرد فصاحة اللفظ وجمال التعبير وروعة الفكرة عنده ، إلى الصدق فى التعبير عن الأحاسيس ، بحيث لا يذوق كلاما ولا ينمق لفظا ، بل لفظه هو تنفسه ، وتصوره هو قوله .

مقام القيومية

ولظفره بهذا المقام قصة توضح الهدف والغاية ، وهى من مواقف العقول ومن آيات الفيض والوهب قال : « لقيت أبا عبد الله بن جنيد من شيوخ الطائفة وكان معتزلى المذهب ، يقول بخلق أفعال العبد ، فشرحت له الأمر

حتى رجع إلى قولنا ، وكان قد أتى إلى زيارتنا ، فلما رجع إلى بلده مشيت إلى زيارته فى بلده ورددته عن مذهبه ، وكذلك جميع أصحابه ، فشكرا لله » .

ثم يقول : أنه كان متحيرا فى هذه المسألة المعتدة لا يدرى اليقين فيها وما فتح له فيها برأى قاطع على الوجه الذى لا شك فيه .

حتى كان ذات ليلة . وهي ليلة السبت السادس من رجب سنة ثلاث وثلاثين وستمائة فانه لم يتخلص لى إضافة خلق الأعمال لأحد الجانبين ، ويعسر عندى الفصل بين الكسب الذى يقول به قوم، وبين الخلق الذى يقول به قوم . فاوقفنى الحق بكشف بصرى على خلقه المخلوق الأول الذى لم يتقدمه مخلوق إذ لم يكن إلا الله . وقال لى هل هنا أمر يوجب التلبيس والحيرة ، قلت لا . قال : هكذا جميع ما تراه من المحدثات ، ما لأحد فيه أثر ولا شىء من الخلق ، فأنا الذى أخلق الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب . فتكون عن أمرى ، خلقت النفخ فى عيسى ، وخلقت التكوين فى الطائر .

وسألته سبحانه سؤالا ، فقال : إذا طالعتك بأمر فالزم الأدب ، وأسمع وأنصت ، قلت ذلك لك،أخلق السمع حتى أسمع . وأخلق الأنصات حتى أنصت ، وما يخاطبك الآن سوى ما خلقت فقال لى : ما أخلق إلا ما علمت وما علمت إلا ما هو المعلوم عليه فلله الحجة البالغة ، وقد أعلمتك بهذا فيما سلف ، فالزم مشاهدة فليس سواه ، يرجع خاطرك ، ولا تأمن حتى ينقطع التكليف ، ولا ينقطع حتى تجوز على الصراط »

وهذا هو مقام القومية ، فكل شيء يقوم بالله ومن الله ، وله سبحانه خلق العبد وأفعاله ، يخلق الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب — تعالى الله الواحد الوهاب . . .

مقام حلاوة الفتح

وحلاوة الفتح مقام حظي به محيي الدين ونعم ، وهو لذة ربانية وحلاوة الهية يهبها الله لمن يصطفي ويختار من عباده ، يقول محيي الدين : ومن أصحاب هذا الفتح من تلازمه هذه الحلاوة ساعة أو يوما أو أكثر كل حسب ما يوهب ، فليس لبقائها زمن ، فانه اختلف علينا بقاؤها فوقتا نزلت علينا في قضية من قضايا الذوق ، فدامت ساعة . ثم ارتفعت . ونزلت في واقعة أخرى فدامت أياما .

وهذه الحلاوة واللذة . لا يمكن أن تشبيها لذة من اللذات المحسوسة . لأنها معنوية ربانية . وأثرها في الحس أعظم أثر تنعم به النفس .

وأعظم مذاق لها تنعمت فيه في هذا المقام . لما تلى على « نون والقلم وما يسطرون » فلم أجد لذة من اللذائذ التي نعمت بها أعظم منها فلما تلى « وأنك لعلى خلق عظيم » ذهبت إلى حال من النعيم أعجز عن وصفه ، فهي أعظم بشارة وردت على ، فالمؤمن فرح بما يوهب لرسوله والمؤمن الكامل له أمل في قطرات من تلك الهبات .

فإذا عطف الحق على عبده بهذه الحلاوة ، فجذبه إليه بها ، منحه علما لم يكن عنده فإذا لم يكن علما ، فليس بجذب ، ولا تلك حلاوة فتح »

والحلاوة التى يقصدها محيي الدين ، هى اللذة التى يعبر عنها إبراهيم بن أدهم بقوله : « نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف » و إبراهيم ذاق اللذتين ، لذة الملك وحلاوة الفيض ، وهى لذة يقول عنها بعض الربانيين : أنها خلاصة نعيم الجنة المصفى يقطر فى قلب المؤمن المختار .

وتلك اللذة الربانية فى الدنيا يصحبها الكشف والعلم ، فإذا لم يصاحبها علم ولا كشف فهى ليست بحلاوة الفتح ، وإنما هى لذة خداعة من لذائذ الحس .

مقام الفناء

وهو مقام المقامات ، وهبة الهبات ، ودرجة المحبين الواهين الذاهلين عن وجودهم بذهاب حسهم إلى باريهم ، وحال الفناء ، هو أن تفني بالله عن خلقه ، فلا ترى شيئا مع الله . بل الوجود هو رب الوجود ، وواهب الوجود وخالقه ، أو كما يقول أبو بكر رضوان الله عليه : ما رأيت شيئا إلا رأيت الله سبحانه قبله .

وهو حال دقت أسراره حتى ألتبست ظواهره على الفقهاء ، فرموا فيه المتصوفة بالعظائم والتبست خواطره وفتوحاته على المتكلمين والمتفلسفين ، فرموا رجال الله فيه ، بالحلول ووحدة الوجود ، حيث تنادى المتصوفة بأنهم لا يرون فى الوجود إلا الله ، وتجلياته فى مخلوقاته ، وهو بحث ليس موضعه هنا ، فله مكان آخر فى هذا الكتاب .

وكان هذا المقام ، لمحيي الدين ، وهو فى فاس فى المرة الأولى ، يحدثنا

قائلا : أخبرنى الأستاذ النحوى عبد العزيز بن زيدان ، بمدينة فاس ، وكان ينكر حال الفناء . وكان يختلف إلينا ، وكانت فيه إنابة ، فلما كان ذات يوم، دخل علىّ وهو فرح مسرور قائلا ، الفناء الذى تذكره ويذكره المتصوفة ، صحيح عندى ذوقا ، فقد شاهدته اليوم ؟ قلت كيف ؟ قال : ألست تعلم أن أمير المؤمنين ، قد دخل اليوم من الأندلس إلى هـذه المدينة . قلت بلى . قال . اعلم أنى خرجت أتفرج عليه مع أهل المدينة ، فأقبلت العساكر شيئاً فشيئاً — فى منظر جميل أخاذ — فلما وصل أمير المؤمنين فى تلك الأبهة والعظمة ، ونظرت إليه بين رهبته وجلاله ، ذهلت حتى فنيت عن نفسى وعن العساكر وعن سائر المشهد حتى لم أر البنود ولم أسمع الكاسات .

ودام هذا الحال معى حتى انتهى موكب أمير المؤمنين فأحسست بنفسى وشعرت بما فنيت عنه من ضغط الناس وألم الزحام وغبار الجماهير .

فتحققت أن الفناء حق ، فإذا كان هـذا يحدث من مشهد عبد ، فكيف بمشهد الرب ، ذلك هو الحق ، لمن ألقى السمع »

وأقل مراتب الفناء ، كما يقول محى الدين ، تمثله لنا حالة الإنسان إذا استغرق فى مسألة من مسائل العلم ، أو أمر ما من أمور الدنيا ، فتحدثه ولا يسمعك ، وتكون بين يديه ولا يراك ، وسبب ذلك أن القلب البشرى الذى يسع كل شىء ، لا يتسع لخاطرين فى وقت واحد .

القلب لا يتسع لخاطرين فى وقت واحد ، ولا لمشهدين . فإما مشهد الحق ، وإما مشهد الخلق ، أو كما يقول الجنيد . من شـــهد الحق غاب عنه الخلق .

وتلك آية ما بين أصحاب هذا المقام من المتصوفة ، وبين المنكرين عليهم الصائحين بهم لكل مشهد وخاطر .

مقام العبودية — أو الصديقية

العبودية الصادقة أن ترى الله فاعلا لكل شيء وأن تتصف بصفات العبودية الكاملة وأن لا تغفل عن مشاهدة عبوديتك ، وأن تكون أعمالك ما ظهر منها وما بطن ، وخواطرك ما عرف ، وما مات في أغوار النفس مقيدة بهذا القيد محددة بتلك الحدود .

وصاحب هذا المقام يكسوه الحق حلل الجلال والكمال والهيبة ، فينسب إليه من يشاهده تلك الصفات لظهور آثارها عليه . ولكن صاحب هذا المقام لا تنخدع نفسه ، لأنه يعلم أن ذلك لله ومن الله إنه لعبد . تلك حقيقة نفسه ، وحقيقة حسه ، مهما عرف الناس أو لمسوا من حقائقه ومظاهره .

يقول محي الدين «وإذا عرف التلميذ من الشيخ أنه بهذه المثابة ، فقد فتح الله على ذلك التلميذ بما فيه سعادته . فإنه يتجرد إلى جانب الحق بتجرد الشيخ ، فإنه عرف منه . واتكل على الله لا عليه . وبقي ناظراً في الشيخ ما يجري الله عليه من الحال في حق ذلك التلميذ من نطق بأمر يأمره به . أو ينهاه ، أو يعلم يفيده ، فيأخذ التلميذ من الله على لسان هذا الشيخ ، ويعلم التلميذ في نفسه من الشيخ ما يعلمه الشيخ من نفسه أنه محل جريان أحكام الربوبية ، حتى لو فقد الشيخ لم يقم غيرذلك التلميذ ذلك المقام ، لعلمه بحال شيخه ، كأبي بكر الصديق مع رسول الله صلوات الله عليه حين مات ، فما بقي أحد من الصحابة إلا اضطرب وقال ما لا يمكن أن يسمع ، وشهد على

نفسه فى ذلك اليوم بقصوره ، وعدم معرفة رسوله الذى اتبعه ، إلا أبو بكر فإنه ما تغير عليه الحال ، لعلمه بما تم ، فصعد إلى المنبر قارئاً « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » وعرف الناس يومئذ فضل أبى بكر فاستحق الإمامة »

ذلك هو المثال الذى ساقه محى الدين لتوضيح مقام العبودية ، فإن الصديق لكمال عبوديته كان يسمع من الرسول ، ويتوكل على الله ، فتجرد إلى جانب الحق بتجرد إمامه الأعظم صلوات الله عليه فكان يأخذ من الله على لسان نبيه ، فلما انتقل خير عباد الله إلى جوار ربه بقى أبو بكر ناظراً إلى الله ، فلم يشغله الهول الأعظم عن كمال عبوديته .

ثم يقول محى الدين . ونرجو إن شاء الله ، أن يكون مقامنا هذا ، ولا يجلعها دعوى غير صادقة ؛ فإنى ذقت هذا المقام ذوقا لا مزاج فيه ، أعرفه من نفسى ؛ وما سمعته عن أحد ممن تقدمني غير أبى بكر .

مقام القربة

والمشهور عن محى الدين فى معراج المقامات أن أقصى مراتبه فى التحليق إلى الهدى والإيمان هو مقام الصديقية ؛ ولكنه بعد أن ظفر به : يحدثنا عن مقام آخر هو مقام القربة ، وهو مقام الخضر وهو فوق الصديقية ودون النبوة .

وهذا المقام ؛ هو أسمى ما يتطلع إليه أحباب الله . يحدثنا محي الدين عنه فيقول :

« هذا المقام دخلته فى شهر محرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة ؛ وأنا

مسافر بمنزل انجيل ببلاد المغرب فتهبت فى ذلك المنزل فرحا ؛ ولم أجد فيه أحداً ؛ فاستوحشت من الوحدة وتذكرت دخول أبى يزيد بالذلة والافتقار ولما دخلت هذا المقام وانفردت به علمت أن حالى فيه لو اطلع عليه أحد لأنكرنى فسحت فيه وتنقلت فى منازله ومحادعه ؛ وأنا لاأدرى ما اسمه مع تحققى به وما أخص الله به من أتاه إياه ؛ ورأيت أوامر الحق سبحانه تترى على ؛ وسفراه تتنزل إلى ؛ تبغى مؤانستى وتطلب مجالستى فرحلت وأنا على تلك الحال من الاستيحاش بالانفراد ؛ والأنس إنما يقع بالجنس ؛ فلقيت رجلا من الرجال بمنزل يسمى انحال ؛ فصليت العصر فى جامعه ؛ فجاء الأمير أبو يحى بن واجين وكان صديق وفرح بى وسألنى أن أنزل عنده فأبيت ونزلت عند كاتبه . وكان بينى وبينه مؤانسة ؛ فشكرت الله على ما أنا فيه من انفرادى بمقام أنا مسرور به ؛ فبينما هو يؤانسنى إذ لاح ظل شخص فنهضت من فراشى إليه عسى أجد عنده فرجا ؛ فعانقنى فتأملته فإذا هو عبد الرحمن السلمى قد تجسدت لى روحه ، بعثه الله لى رحمة ، فقلت له أراك فى هذا المقام ، فقال فيه قبضت وعليه مت ، فأنا فيه لا أبرح ، فذكرت له وحشتى فيه وعدم الأنس ، فقال الغريب مستوحش ، فصاحب هذا المقام ليست الدنيا مقامه ، وبعد أن سبقت لك العناية الإلهية بالحصول فى هذا المقام فأحمد الله ، ومن يا أخى يحصل له هذا ولا يرضى ، ألا ترضى أن يكون الخضر صاحبك فى هذا المقام وقد أنكر موسى عليه حاله وما قدر على صحبته .

فقلت يا أبا عبد الرحمن لا أعرف لهذا المقام اسماً . فقال لى هذا يسمى

مقام — القربة — فتحقق به فتحققت به ، فإذا به مقام عظيم ، لعلماء الرسوم من أهل الاجتهاد فيه قدم راسخة ، لكنهم لا يعرفون أنهم فيه ، ورأيت الإمداد الإلهى يسرى إليهم من هذا المقام . ولهذا ينكر بعضهم بعضاً لأنهم ما حصل لهم ذوقا ، ولا يعلمون ممن يستمدون مشاهدة ومكاشفة ، فكل واحد منهم على حق ؛ كما أن لكل نبى تقدم هذا الزمان المحمدى شرعة ومنهاج ؛ والإيمان واحد .

فالمجتهدون من علماء الشريعة ورثة الرسل فى التشريع وأدلتهم تقوم مقام الوحى للأنبياء واختلاف الأحكام كاختلاف الأحكام ؛ إلا أنهم ليسوا مثل الرسل لعدم الكشف ؛ لأن الرسل يشد بعضهم بعضا ؛ وكذلك أهل الكشف من علماء الاجتهاد ؛ وأما غير أهل الكشف منهم فيخطىء بعضهم بعضا .

ومن أسرار هذا المقام معرفة التقديم والتأخير وأسرار الترتيب فى كلام الله ، ولو قال الخضر لموسى من أول ما صحبه ، ما أفعل شيئاً مما ترانى افعله عن أمرى ، ما أنكره عليه ولا عارضه ، وقد أنطقه الله بقوله « ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمرا » والصبر لا يكون إلا على مايشق ، فلو قدم الصبر على المشيئة كما يفعل المحمدى لصبر ولم يعترض ، فإن الله قدمه فى الأعلام تعليما لمحمد صلى الله عليه وسلم فمن أراد أن يحصل على علم الله فى خلقه . فليقف عند ترتيب حكمته فى الأشياء ، فيقدم ما قدم الله ويؤخر ما أخر الله . فإن من أسمائه المقدم والمؤخر ، فإذا أخرت ما قدم الله أو قدمت ما أخره الله ، فهو نزاع خفى ، يورث حرمانا . قال تعالى « ولا تقولن لشيء

إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » فأخر الاستثناء وقدمه موسى ، فلم يصبر . فلو أخره لصبر .

ولقد رويت فى هذا المعنى حكاية عجيبة عن يهودى أخبرنى بها محمد ابن موسى ، قال . كان رجل بالقيروان أراد الحج فتردد خاطره فى سفره بين البر والبحر ، فقال إذا كان صبيحة غد أول رجل ألقاه أشاوره فحيث يرجح لى أحكم به . فأول من لقى يهودى فتألم ثم عزم وقال والله لأسألنه ، فقال يا يهودى أشاورك فى سفرى هذا . هل أمشى فى البر أو فى البحر . ؟ فقال له اليهودى . يا سبحان الله ، وفى مثل هذا يسأل مثلك ، ألم تر أن الله سبحانه يقول لكم فى كتابه . « هو الذى يسيركم فى البر والبحر » فقدم البر على البحر ، فلولا أن لله فيه سراً ما قدمه ، وهو أولى بكم ، الا إذا لم يجد المسافر سبيلا إلى البر ، قال . فتعجبت من كلامه وسافرت فى البحر فلقيت خيراً كثيراً .

وقد أنكر الإمام الغزالى هذا المقام ، بصفة عامة . وقال ليس بين الصديقية والنبوة مقام . ومن تخطى رقاب الصديقين وقع فى النبوة ، والنبوة باب مغلق » .

ومحى الدين لم يقل أبداً ، بأن الولى يرقى مرقى النبوة ، فلا نبوة ولا رسالة بعد أن ختما بأشرف خلق الله ، بل يقول فى رده على الغزالى ، هذا فضل الله يهبه لمن يشاء ، وليس على أفضال الله قيد ولا لبشر أن يتحكم فى عطاياه ، ومن ذاق عرف . وليس لمن لم يذق حكم على من ذاق .

ومحى الدين يقول أيضاً أن هذا المقام قد يعطى علماً لا ذوقاً لعلماء الرسوم

أى علماء الفكر والاجتهاد والتبحر فى المعارف . وهم يختلفون فى علومهم ، لعدم تذوقهم ، ولاعتمادهم على الأدلة التى تصيب وتخطىء ، بخلاف الذوق عند أهل الكشف والفيض .

وهو هنا كعادته — خلافاً للمتصوفة — يعلى من شأن علوم الفكر والعقل والاجتهاد ، حتى ليقول بصوابهم جميعاً على اختلافهم وتلاحيهم ، وهذا ما لم يقولوه هم أنفسهم ، ما دام الاختلاف والتلاحى فى الفروع لا فى الأصول .

وتلك سماحة فى فهم الدين ، وهذا اجلال للعقول ، يدل على رحابة أفق وسعة صدر أمام المتصوفة ، المتصوفة الذين هوجموا أمر الهجوم واعنفه من رجال الفقه والاجتهاد .

وبهذا المقام . أكمل محى الدين ما قدر له من عطايا ربه وهو مقام لو تعلمون عظيم .

شعرة محمدية

فإذا ظفر محى الدين ، بكل تلك الهبات والعطايا ، وإذا نعم بالمقامات العليا ، كالصديقية والقربة ، فماذا بقى ؟ يقول محى الدين أن الفتح على قدر الهمة ، ومحى الدين يحمل بعزماته الجبال ، وعطايا الله سبحانه لاحدود لها .

يقول محى الدين ، أنه ظفر بعد ذلك بهدية دونها كل الهدايا ، هدية لم تكن عن سؤال ، وإنما كانت عن عناية ورعاية .

وتلك الهدية عبارة عن شعرة من الرسول صلوات الله عليه ، ويقول لنا أنه

أوجس فى قلبه خيفة ، وخشي على نفسه ، فقد كاد أبو زيد البسطامى أن يهلك قبله ، حينما خيل إليه أنه أهل لشيء أكبر من طاقته ، ولنترك محى الدين يحدثنا .

« وقد حصل لنا منه صلى الله عليه وسلم شعرة ، وهذا كثير لمن عرف ، ولما أطلعنى الله سبحانه على ذلك لم يكن ما نلت عن سؤال ، وإنما كان عن عناية الله ، ثم أنه أيدنى فيه بالأدب رزقا من لدنه وعناية بى ، فلم يصدر منى ما صدر من أبى اليزيد .

فلما جاء الأمر ، وأخذت أرقى وتتكشف لى أموراً بفضل تلك المنحة ، علمت أن ذلك خطاب ابتلاء لا خطاب تشريف ، على أنه قد يكون بعض الابتلاء تشريفاً ، فتوقفت وسألت الحجاب .

ولكنى منحت الشعرة اختصاصا الهيا ، فشكرت الله على الاختصاص بتلك الشعرة ، غير طالب بالشكر الزيادة ، وكيف أطلب الزيادة من ذلك ، وأنا أسأل الحجاب الذى هو من كمال العبودية .

وبتلك المنحة ، تم لمحى الدين أكمل ما ينال عباد الرحمن الذين اصطفاهم لعلمه . واجتباهم لمحبته ورضاه .

محيي الدين والكرامات

ومحى الدين ، لا يذكر معراجه فى المقامات ، وتقلبه فى الأحوال ، وأحاديثه المنامية مع الرسول صلوات الله عليه ، وحضوره فى مشاهد الحق سبحانه ، ليفتخر بكرامة ، أو يدل بهبة ، أو يتيه على الناس بحظوظ وعطايا ،

محى الدين قد تحقق من مقام العبودية وذاقها ؛ وهى أسنى المراتب وأعلاها؛ وليس من شذاها جنوح إلى فخر أو ميل إلى تيه وتكبر .

بل انه تخصم للكرامات وطلابها ؛ وما رأيته يعنف فى نقاش ؛ وما رأيته يقسو فى جدال ؛ إلا حين يغمس قلمه القوى العبقرى ؛ فى تلك الأحاديث ؛ ويتناول بأنامل أستاذيته المرشدة ؛ آذان أصحابها .

فهو يراها حلى براقة للعاطلين من سواها ؛ يشتغل بها من تقعد به أجنحته عن التحليق فى آفاق أعز وأكرم .

والكرامة المعنوية؛ عند محى الدين هى أعلى ألوان الكرامات ؛ التى لايعرفها إلا الخواص من عباد الله سبحانه ؛ وهى هدفه ومبتغاه .

وليس للعامة فى تلك الكرامة نصيب ؛ وليس لطلاب الأولى سهم هنا والكرامة المعنوية ؛ هى أن يحفظ الله سبحانه للعبد المختار ؛ آداب الشريعة ؛ وأن يوفقه لإتيان مكارم الأخلاق ؛ واجتناب سفاسفها ؛ والمداومة على الواجبات فى أوقاتها ؛ والمسارعة إلى الخيرات وإزالة الغل للناس من صدره ، والحسد والحقد وسوء الظن ، وطهارة القلب من كل صفة مذمومة ، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس .

أما الكرامة المادية التى يعرفها العامة . فكلها يمكن أن يدخلها المكر السيء ، أو الاستدراج الخفى ، الذى لا تؤمن عقباه ، بل هى على أحسن حالاتها وفروضها ، جزاء وفاقا على أعمال طيبة ، وعبادات متتابعة ، ومن تنعم فى الدنيا على أعماله ، فقد أخذ جانباً من الجزاء . فيخفف له العطاء يوم العطاء .

سئل أبو اليزيد البسطامى ، عن طى الأرض . فقال ليس بشىء ، فإن ابليس يقطع من المشرق إلى المغرب فى لحظة ، وما هو بمكان عند الله .

وسئل عن اختراق الهواء ، فقال . إن الطير ليخترق الهواء ، والمؤمن عند الله عقلا وشرعا أفضل من الطير ، فكيف يحسب كرامة من شاركه فيها طائر ،

ثم قال إلهى . ان قوما طلبوك لما ذكروه ، فشغلتهم به .. وأهلتهم له . مهما أهلتنى لشىء فأهلنى لشىء من أشيائك ، أى من أسرارك .

فما طلب أبو اليزيد ؛ إلا العلم . والعلم أفضل ما فى فضل الله قال تعالى « آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » .

فالعلم أفضل الكرامات المعنوية ؛ وهى الكرامة التى ظفر بها محى الدين : فخلد فى دنياه وفاز برضوان الله .

بين الشطح والفتوة

وكما كان محى الدين من خصوم الكرامات المادية ؛ فهو أيضاً من خصوم الشطح والشاطحين : لأن الشطح لون من ألوان الفخر ؛ أو لون من ألوان المباهات والتطاول : وأصله دعوى يفصح بها الشاطح عن مرتبته التى أعطاها الله له ؛ من غير أمر إلهى على طريقة الفخر .

والشطح ذلة المحققين ؛ أو كما يقول محى الدين . «لقد وقع من بعض الأكابر ولا أسميهم لأنه صفة نقص . وأما من سواهم فلا كلام لنا معهم ؛ لأنهم رعاع بالنظر إلى هؤلاء السادة ؛ وإذا وقع مثل هذا من السادة ؛ فعليهم يقع العتب منا» .

وليس الشطح من الفتوة كما يدعون ، فالفتى لا يراعى الخلق ؛ ولا يتعالى عليهم ؛ لأن التعالى انه هو لله سبحانه وتعالى ؛ وأصل الفتوة أن تخرج عن حظ نفسك ايثاراً لحظ غيرك ؛ وحقيقتها أن يؤثر الإنسان العلم الوارد من الله على ألسنة الرسل على هوى نفسه ؛ وعلى أدلة عقـــله ؛ وما حكم به فكره ونظره .

هذا هو الفتى . فإذا ورد على نفسه خاطر أوهمه بأنه أمر الهى يعارض الشرع المقرر ؛ فقد خيل له أو التبس عليه . فيرمى به ولا يلتفت إليه ؛ ويرجع إلى حكم الشرع الثابت : فإنه قد ثبت عند أهل الكشف جميعا ؛ أنه لا تحليل ولا تحريم ؛ ولا شيء من أحكام الشرع : بعد انقطاع الرسالة والنبوة . لأحد من خلق الله .

وقد وقفنا بقوم من أهل الله ، ممن التبس عليهم هذا المقام ، والتبست عليهم الواردات فشطحوا وتفاخروا ، فابتعـدوا عن ربهم ، فإنه لا يكون الشاطح عند شطحه ولياً لله أبدا »

ذلك هو الرأى الفيصـل لمحى الدين ، فى الكرامات المـادية ، والمتفاخرين من الشاطحين الذين لغوا فى محاريب العبادة بما لا ينبغى .

وما كان محى الدين ، وما ينبغى له . ولا ينبغى أن يظن به — إذا حدثنا عن فتوحاته ومقاماته — ظن السوء ، من دعوى الغرور والتباهى ، فهو إنما يتحدث للعلم والإرشاد ، وليضع بين أيدينا تلك الكنوز التى تفيض بها كتبه ، ويزخر بها تراثه .

و إذا أكمل لمحى الدين بعروجه فى تلك المقامات ، ما قدر الله له من

منح وهبات ، فقد آن له أن يتنقل فى آفاق العالم الإسلامى هادياً إلى الله بالطيب من القول والعمل ؛ ومبشراً بآياته ، بالرائع من الحجة والبرهان ؛ وسراجا وهاجاً يرشد إلى النجاة ؛ كما يرشد إلى الإيمان .

محيي وملك المغرب

كما جابت أفكار محيي الدين ؛ آفاق السماء ؛ وتنقلت فى أبراجها ؛ كذلك كانت حياته رحلات وتنقلات فى جنبات الأرض ؛ مطوفا وزائراً وعابداً ومقيما .

وكان سنن العلماء فى هذا العصر التنقل والتطواف . فى رقعة العالم الإسلامى العظيم الممتد من أوربا إلى هضاب الصين وسهول الهند .

كان العلماء ، يتلاقون ويتجادلون ، ويأخذ بعضهم من بعض بما درس وتعلم وحفظ ، ويفضى بعضهم إلى بعض ، بما منح وأعطى .

وكان العالم الإسلامى يقود الدنيا ويفرض عليها سلطانه ، بسيوفه ورماحه ، وبعلومه وآدابه وكشوفه الفنية والروحية ، كما كانت تغلى فى باطنه أحداث جسام ، بعيدة الأثر فى حاضره وغده بل فى حاضر العالم كله وغد الإنسانية بأسرها .

كان الصليبيون يقرعون أبواب الشرق الأوسط ، ويتصارعون مع فرسان مصر وأبطال الأيوبيين على ثالث الحرمين ، وأولى القبلتين .

وكان المرابطون ، وهم فئة ثائرة بالسيف ، غضوبة بالرمح ، يعيثون بأمن المغرب الأقصى ويفسدون ، وتسل سيوفهم عروش ملوكه وسادته .

وكان للعلماء ورجال التصوف خاصة هنا وهناك ، قوة رهيبة ، تقود الجماهير وتوجهها ، وتجلها الملوك وتتقرب إليها ، و يتزلف إليها السادة والأمراء .

فلا عجب إذا رأينا ملك المغرب المهدد بثورة المرابطين ، يسعى إلى محيي الدين ، الذى بزغ نجمه ، وأشرق أفقه ، وعرف أسمه ومكانه فى دنيا التصوف وعالم البيان واللسان . ولا عجب إذا سعى محيي الدين إليه . يدفىء صدره آمال كبار ، فى أن يوجه هذا الملك وجهة صوفية روحية . و بالتالى يوجه شعبه إلى تلك المناهل والينابيع .

وكانت رحلة محيي الدين الأولى إلى المغرب فى مطلع عام تسعين وخمسمائة من التاريخ الهجرى أى ومحيي الدين فى الثلاثين من عمره .

وتقلد محيي الدين وهو فى رونق الشباب وفورة الحياة عمله الجديد . موقعا على المراسيم ومنشأ للرسائل . ومربيا لأبناء البيت المالك .

وهى وظيفة أشبه بالوزارة . وإن كانت أرحب منها أفقا . وأعظم نفوذا . وألصق بالملك وأقرب . وهى مكانة تتصارع حولها الأهواء والغايات وتنصب لها المكائد والشباك . ولقد اصطلاها محيي الدين وهو رجل الروح والدين : والطهارة والصفاء . فاصطلى جوا عجبا .

ولكن محيي الدين . وهو من نعرف كرامة واباء . وعلما ربانيا وأدبا نبويا ونهجا صوفيا . وهى صفات شديدة الخطورة فى هذا الجو . شديدة الخطورة فى بلاط الملوك . لم تطب له تلك الحياة أو لم يطب هولها . فوقعت النفرة سريعا بينه و بين الملك . و بينه و بين رجال الحاشية . وظن به الملك الظنون . ولمزته البطانة وغمزته فى نهجه وطريقه ؛ ومذاهبه وتفكيره

ويعود محيي الدين إلى أشبيلية بالأندلس ؛ مقر نشأته ومرتع صباه ؛ ويحلق فى آفاق العلم والمعرفة ما شاء له الله .

ثم يطرق سمعه بعد أعوام دعوة إلى المغرب من جديد . بواسطة الشيخ الصوفى أبو عبد الله بن المرابط ؛ صديق الملك ومرشده الروحى ؛ وحبيب محيي الدين ؛ المقدر له ؛ والذى كان سببا مباشرا فى رحلة محيي الدين الأولى

وتمشى الريح رخاء طيبة بين الملك ومحيي الدين . فقد فطن محيي الدين إلى عبرة الحوادث الأولى : فطوى جوانحه على أعنف آرائه ؛ وترفق أكثر الرفق بالبطانة والحاشية ؛ وما إلى البطانة والحاشية من ذيول وأذناب . واطمأن الملك إليه . فأطلق يده فى شئون مملكته ، يقومها على النهج الصوفى ويدفعها دفعا إلى التعاليم التى عرفت عن محيي الدين وعرف بها .

ولعل تلك الحادثة التى يرويها لنا فى الفتوحات توضح لون الحياة ولون الأعمال التى كان يقوم بها فى عمله الجديد .

يذكر لنا محيي الدين . أن من الملائكة طائفة تطوف سائحة فى الدنيا تطلب مجالس الذكر فى الأرض ؛ فإذا وجدوا أهل الذكر وهم أهل القرآن نادى بعضهم بعضا : هلموا إلى بغيتكم : فيحفون بالذاكرين ؛ ويبسطون لهم أجنحة الرحمة ؛ ويدعون لهم أطيب الدعاء وأرجاه فى الأجابة .

وتلك المجالس القرآنية : هى رزق هؤلاء الملائكة ؛ وبها يعيشون ؛ وعليها وبها تقوم حياتهم .

ثم يقول : « وواجب الإمام أو الحاكم : أن يقيم جماعة تتلوا آيات

الله بالليل والنهار . تقربا إلى الله واستجلابا لرحمته . ورزقا لتلك الطائفة من الملائكة »

ثم يقول أيضا : « وقد كنا فى بلاد المغرب . قد سلكنا هذا المسلك بموافقة أصحاب موفقين كانوا لنا سامعين وطائعين . فنقدناهم ففقدنا بفقدهم هذا العمل الخالص . وهو أشرف الأرزاق وأعلاها »

وهو هنا صريح فى حديثه عن الأصحاب الموافقين الذين كانوا لحديثه سامعين . وهى تسكنية جميلة . فلم يرد أن يذكر اسم الملك فى موقف العتاب . لأنه كما سنرى لا يزال يحمل له ودا خالصا ويرجو أملا حار الأمل فى العودة إليه

كما نلمس أيضا . أنه أشبه بمن أكره على مغادرة عمله ، فهو ثائر العاطفة . لمن فقدهم ففقد بفقدهم النفوذ والقدرة على هذا العمل الخالص ، وهو أشرف الأرزاق وأعلاها

ثم يقول : « فأخذنا لما فقدنا مثل هؤلاء ، فى بث العلم من أجل الأرواح التى تتغذى بالذكر ، ورأينا ألا نورد شيئا منه . إلا من أصل هو مطلوب لهذا الصنف الروحانى وهو القرآن »

فجميع ما نتكلم فيه فى مجالسي وتصانيفى ، إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه ، أعطيت مفاتيح الفهم فيه . والامداد منه ، وذلك أرفع ما يمنح ، ولا يعرف قدره ، إلا من ذاقه وشهد له

ويذكر لنا محيي الدين أنه أخذ فى مجالسه العلمية ، وفى كتبه التى ابتدأ فى تأليفها ، يبث علما من نوع العلم الذى تتغذى به أرواح الملائكة ،

وهو العلم المستمد من حضرة القرآن وخزائنه . حتى لا ينقطع هذا العمل الطيب ، الذى بدأه بمعاونة الملك وهو إقامة الذاكرين بالقرآن ليلا ونهاراً

ويطوف محيي الدين بالأرض ، وقلبه معلق بأمير المغرب وسيده ، الذى أخلص له الحب والمودة فلم يجد لحبه ولا لمودته جزاء إلا هذا الفراق ، الذى أكره عليه ، ولم يرده .

ويأخذ فى تأليف كتابه الخالد ، الجامع المانع ، الفتوحات . فيكتب وعينه على الملك الحبيب ، بل يكتب لأنه يريد أن يعرف صديقه بفنون من المعارف حصلها بعد أن فارقه ، ثم يتقدم خطوة أخرى أفصح وأوضح ، فيقول أنه يريد أن يهدى إليه هذا الكتاب بما فيه من جواهر العلم وكنوز المعرفة ، وآيات الحكمة التى يؤتيها الله سبحانه من يشاء

ولنترك محيي الدين يحدثنا عن القصة كلها . بما فيها من وفاء وولاء وحب صادق ، وعتاب وفراق ، وتلك القصة جعلها محيي الدين مقدمة وسببا فى تأليف الفتوحات

« فاعلم أيها العاقل الأديب ، والولى الحبيب . أن الحكيم إذا نأت به الدار . عن قسيمه وحالت صروف الدهر بينه وبين حميمه ، لا بد أن يعرفه بما اكتسبه فى غيبته وما حصله من الحكمه ، فكأن وليه ما غاب عنه . بما عرف منه ، وإن كان الولى أبقاه الله . قد أصاب صفاء وده كدر لعرض ، وظهر منه انقباض عند الوداع لتتميم غرض ، فقد غمض وليه عن ذلك جفن الانتقاد . وجعله من الله . أبقاه الله من كريم الاعتقاد إذ لا يهتم بك إلا من يسأل عنك . فليهنأ الولى أبقاه الله . فأن القلب سليم ، والود

كما يعلم بين الجوانح مقيم ، وقد علم الولى أن الود فيه كان إلهيا ، لا غرضياً ولا نفسياً ، وثبت هذا عنده قديما عني من غير علة ولا فاقة إليه ولا إقلة . ولا طلب لمثوبة ، ولا حذر من عقوبة ، وربما كان من الولى فى الرحلة الأولى ، التى رحلت إليه سنة تسعين وخمسمائة ، عدم التفات فيها إلى جانبى ونفور عن الجرى على مقاصدى ومذاهبى ، لما لاحظ فيها من النقص ، وعذرته فى ذلك فإنه أعطاه ذلك منى ظاهر الحال ، وشاهد النص . فإنى سترت عنه وعن بنيه ما كنت عليه فى نفسى ، بما أظهرت لهم من سوء حالى وشرة حسي ، وربما كنت أسألهم أحيانا . على طريق التنبيه . فيأبى الله أن يلحظنى واحد منهم بعين التنزيه ، ولقد قرعت أسماعهم يوماً فى بعض المجالس ، والولى فى صدر ذلك المجلس جالس . بأبيات أنشدتها ، وفى كتاب الأسرار أودعتها . وهى :

أنا القرآن والسبع المثانى ... وروح الروح لا روح المعانى
فؤادى عند معلومى مقيم ... يناجيه وعندكمو لسانى
فلا تنظر بطرفك نحو جسمى ... وعد عن التنعم بالمعانى
وغص فى بحر ذات الذات تبصر ... عجائب ما تبدت للعيان
وأسرار تراءت مبهمات ... مسترة بأرواح المعانى

فوالله ما أنشدت من هذه المقطوعة بيتا ، إلا وكأنى أسمعته ميتاً ، وسبب ذلك حكمة كنت أبغى رضاها ، فما كان إنشادى لهم مع معرفتى بقلة حرمتى عندهم إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها »

تلك هى الرحلة الأولى ، وها حديثها ، ثم يتحدث عن الرحلة الثانية بمودتها وما فيها من صفاء وولاء فيقول :

«ثم كان الاجتماع بالولى تولاه الله بعد ذلك بأعوام، فى محله الأسنى ، وكانت الاقامة معه ، تسعة أشهر دون أيام . فى العيش الأرغد الأهنى ، عيش روح وشبح ، وقد جاد كل واحد منا بذاته على صاحبه وسمح .

ثم افترقنا ونحن على هذه الحال ، لانحراف قام ببعض هذه المحال . فإنى كنت نويت الحج والعمرة، ثم أسرع إلى محله الكريم، بصخرة المقدس ، وزيارة سيد ولد آدم ، ديوان الاحاطة والاحصاء .

أقام الله فى خاطرى أن أعرف الولى أبقاه الله . بفنون من المعارف حصلتها فى غيبتى وأهدى إليه أكرمه الله . من جواهر العلم التى اقتنيتها فى غربتى ، فقيدت له هذه الرسالة ، اليتيمة التى أوجدها الحق لأعراض الجهل تميمة . ولكل صاحب صفى ، ومحقق صوفى .

وسميتها رسالة الفتوحات المكية . فى معرفة الأسرار المالكية والملكية . إذ كان الأغلب فيما أودعته هذه الرسالة ما فتح الله به على عند طوافى ببيته المكرم أو قعودى مراقباً له بحرمه المشرف المعظم، وجعلتها أبوابا شريفة وأودعتها معانى لطيفة ، فإن الإنسان لايسهل عليه شدائد البداية ، إلا إذا وقع بصره على الغاية ، ولا سيما إن ذاق من ذلك عذوبة الجنى ، ووقع منه موقع المنى .

فإذا حصر الباب البصر ، وردد عليه عين بصيرته الحكيم فنظر ، فاستخرج اللآلىء والدرر يعطيه الباب إذ ذاك ما فيه من حكم روحانية

ونكت ربانية ، على قدر نفوذ فهمه ، وقوة عزمه وهمه واتساع نفسه . من أجل غطسه فى أعماق بحار علمه .

لما لزمت قرع باب الله ... كنت المراقب لم أكن بالآهى
حتى بدت للعين سبحة وجهه ... وإلى هلم لم تكن إلا هى
فاحطت علماً بالوجود فما لنا ... فى قلبنا علم بغير الله
لو يسلك الخلق الغريب محجتي ... لم يسألوك عن الخقائق ما هى ؟

تلك هى قصة محيى الدين مع ملك المغرب الذى وفى له فى حضوره وغيابه ، والذى أمل منه أن يكون سببا فى نشر تعاليمه الصوفية فى ربوع المغرب ، ولكن قرناء السوء ، افسدوا ما بين الصديقين.

وفى ختام القصة ، لمحات تقف عندها العقول . فقد أودعها سر الفتوحات بل سر الفهم والإدراك . لاسرار علمه ، وعجائب كشفه .

فهو يقول : أن الإنسان لا تسهل عليه شدائد البداية ، إلا إذا وقع بصره على الغاية ، وتلك آية فى فهم محيى الدين .

فهو فى مطلع أبوابه فى الفتوحات ، يلغز فى شعره ، ويبهم فى قوله ، فإذا أخذت الألغاز ، وأخذ الأبهام ، بنفس القارىء . قطع وأغلقت عليه المعانى أما إذا سبح معه سبحا طويلا ، حتى يصل إلى نهاية الباب وغايته . تكشفت له البدائع ، وسهلت عليه البداية ، كما سهلت وتسهل عليه معانى الغاية .

ثم يقول : إذا حصر الإنسان بصره ، على باب من أبواب الفتوحات وردد عليه بصيرته ، استخرج اللآلىء والدرر ، وأعطاه الباب ما فيه من

حكم روحانيه . ونكت ربانية ، ويعطى كل على قدر فهمه ، وقوة عزمه ، واتساع نفسه فى الغوص ، وخوض لجج العباب .

محيى الدين لأصحاب الهمم والعزمات ، ولمهرة الغواصين وجبابرة السابحين ، لأهل الأشراق والنور والصفاء ، محيى الدين لهولاء ، وقليل ما هم .

أما فاتر العزم ، خائر القوى ، مطموس البصيرة ، زائغ البصر ، ضيق النفس ، فليلتمس له سهلا هينا ، يضرب على حوافيه ، وليدع القمة للمخلقين الفاتحين .

إلى الأرض المقدسة

فارق محيى الدين مكانه فى المغرب ، بعد تسعة أشهر دون أيام ، فى العيش الأرغد الأهنى ، لانحراف الحال بينه وبين سلطانه ، معتزما الحج والعمرة ، وزيارة سيد ولد آدم ، ثم الأسراع إلى ثالث الحرمين وأولى القبلتين ، ثم التطواف بالعالم الأسلامى

ويؤرخ لنا محيى الدين . تلك الحقبة من حياته . فيقول : بعد أن يتحدث عن خواطر نفسه . وعن ليلة ليلاء . طوف فيها فكره . ثم استسلم أخيرا إلى الكرى .

« كشف لى فى منامى . عن نور العرش . فرأيت طيورا حسنة . تطير فى زواياه . فرأيت فيها طائرا من أحسن الطيور . فسلم على . فألقى لى فيه . أن آخذه صحبتى إلى بلاد المشرق . وكنت بمدينة مراكش . حين كشف

لى عن هذا كله . فقلت ومن ؟ فقيل لى : محمد الحصار . بمدينة فاس . سأل الله الرحلة إلى بلاد الشرق . فخذه معك . فقلت السمع والطاعة . فقلت له : وهو عين ذلك الطائر : تكون صحبتى إن شاء الله .

فلما جئت إلى مدينة فاس . سألت عنه . فجاءنى . فقلت له : هل سألت الله فى حاجة . فقال نعم : سألته أن يحملنى إلى بلاد الشرق . فقيل لى أن فلانا . يحملك . وأنا أنتظرك من ذلك الزمان . فأخذته صحبتى سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأوصلته إلى الديار المصرية . ومات بها » .

رأى محيى الدين . أرواح الصالحين . تطوف وتطير فى نور العرش . ورأى رجلا صالحا تمثلت روحه فى هيكل طائر جميل . وهذا الطائر أو هذا الرجل ينتظره ليذهب معه إلى المشرق . فعلم أنه قد أذن له فى الرحيل . والتقى بصاحبه على قدر قد قدر . فوجها ركبهما معا إلى أرض النيل . وهو فى السابعة والثلاثين من عمره .

وفد محيى الدين إلى مصر . تتقدمه عواصف ضخمة حول علومه ومعارفه . وكشوفاته القلبية والروحية ، وتلقاه العلماء ورجال الفقه بالجفاء . فعقدوا له حلقات المناظرة والجدل . ونفخوا عليه بالحقد والموجدة . فلم ينالوا من مكانته شيئاً . بل كانوا كما يقول اليافعى : حكمهم حكم ناموسة . نفخت على جبل تريد إزالته .

فلما طويت صحف علمهم . وبرزت آيته واضحة مبصرة ، سعى به السفهاء من العلماء الذين يقتاتون بالحقد ، ويتبجدون فى محاريب الغل

والحسد ، إلى حاكم مصر ، ناسبين إليه الافك والبهتان والأغراض السياسية الخبيثة والأهواء الدينية المارقة ، مطالبين بإعدامه وهدر مقامه . ولكن الله الذى رعاه بعنايته حفظه ، فاتاح له رجلا من رجال العلم والجاه ، هو الشيخ أبو الحسن البجاءى القاضى الفقيه العابد ، فشفع له لدى سيد مصر ، ثم جمع بينهما ، ففتن به حاكم مصر واجله ، والتمس منه البقاء فى مصر وله من مناصبها ما شاء ، فأبى محيي الدين شاكرا ومقدرا ، ثم استأذنه فى الذهاب إلى الحج لأنه على عبد ، فأذن له .

فى بيت الله الحرام

ولى محيي الدين وجهه قبل المسجد الحرام ، مشبوب العاطفة ، ثائر القلب ، أنه لمشوق إلى البيت المعمور ، مشوق إلى المنبر والروضة والحبيب ، مشوق إلى الأرض المباركة التى طوف بها الأنبياء وهبطت إلى ساحتها الملائكة ، وفى ليلة من ليالى البدر ، هادئة الريح معطرة الأنفاس ، هبط محيي الدين إلى مكة .

يقول الفيروز بادى ، نا ـ وصل الشيخ مكة شرفها الله . كان البلد إذ ذاك ، مجمع العلماء والمحدثين ، وأهل الفتيا والبيان ، ولكن الشيخ نزل بينهم كالقمر بين النجوم . فكان هو المشار إليه بينهم فى كل علم تكلموا فيه ، وكانوا كلهم يتسارعون إلى مجلسه ، ويتبركون بالحضور بين يديه ، ويقرأون عليه تصانيفه »

ولزم محيي الدين بيت الله لا يفارقه ، واتخذ من الركن اليمانى ، محجة

ومدرسة ، يلقى فيها درسه ، ويقرأ كتب الرجال ، كالقوت والاحياء ، وفى بيت الله ألف أخلد كتبه وأبقاها على الحياة ، بل أخلد كتاب ، تفجر من ينابيع القلوب ، وكشوف النور ، وخزائن القرآن ، — الفتوحات المكية — الكتاب الذى أعجز الأفكار والعقول فى عصره ، ولا يزال يعجزها ، وسيعجزها ليكون حجة على الناس . وآية للعلم الربانى الموهوب للصفوة المختارة من عباده ، وليضاف به صاحبه إلى الرعيل المجتبى ، الذى يقول فيه تبارك وتعالى « وعلمناه من لدنا علما » .

يقول محى الدين عن الفتوحات ، والأغلب فيما أودعته هذه الرسالة مما فتح الله به على عند طوافى ببيته المكرم ، أو قعودى مراقبا له بحرمه المشرف المعظم .

وهو يعلل الفتوح العظمى التى هبطت عليه بمكة ، بقوله « وكما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية ، وقد تجد قلبك فى مسجد أكثر مما تجده فى غيره من المساجد ويقول . إن الملائكة تعمر جميع الأرض ، وأعلاهم رتبة ، وأعظمهم علما ومعرفة ، عمرة المسجد الحرام ، وعلى قدر جلسائك يكون وجودك ، فان لهمم الجلساء فى قلب الجليس تأثيرا ، وهمهم على قدر مراتبهم ؛ وقد طاف بالبيت ؛ مائة ألف نبى وأربعة وعشرون ألفا . سوى الأولياء ؛ وما من نبى ولا ولى ؛ إلا وقد تبرك همته متعلقة به ؛ لأنه البيت الذى اصطفاه الله على سائر البيوت .

هذا هو البيت ؛ وذلك هو المقام . الذى فتح له فيه معراج هبطت

عليه فيه كشوفات الفتوحات المكية ؛ ومن نور هذا المكان وجلاله ؛ كان نور الفتوحات وجلالها .

لقد وجد قلبه هنا ؛ ووجد آثار الهمم والعزمات ؛ المتبقية من طواف الأنبياء والأولياء بالبيت المعمور ؛ وعلى قدر الجلساء يكون الجليس ؛ وعلى قدر المرتبة تكون الهمة ؛ وعلى قدر الهمة يكون الأثر ؛ ومن يرد أن يعرف همة محيي الدين ؛ فليلتمس بابا لها بين منازل الفتوحات .

المرأة فى حياة محيي الدين

محيي الدين ، هو أعلم رجال التصوف ، ولهذا هو أرحبهم أفقا ، وأوسطهم طريقة ، ومن هنا جاءت آرائه معتدلة محكمة . أعطت ما لله لله . ولم تنس الحياة . فلم يعش داخل الكهوف والمغارات . ولم يعتزل الناس والدنيا بل كان جليس الملوك . القائم ببعض أعباء حكمهم . المساهم فى أحداث الوجود ، الطواف بالأرض . هاديا ومرشدا ومعلما .

ومن ثم جاءت نظرته إلى المرأة وإكباره ، بل وحبه لها : الحب الحلال الشريف ؛ الحب الدينى المأثور فى الكتاب والسنة .

وحب النساء عنده ميراث نبوى ، وحب الهى ، فقد قال الرسول صلوات الله عليه ، « حبب إلى من دنياكم ثلاث ، الطيب والنساء ، وقرة عينى فى الصلاة » ، فلم ينسب حبه فيهن إلا إلى الله سبحانه ولهذا قال — حبب —

وكمال العارفين فى هذه المحبة ، فلا يجوز الاعراض عنهن زهدا ، لأنه لا يحبب إلى الرسول صلوات الله عليه ما يبعده من ربه ، بل حبب إليه ما يقربه منه ، ولهذا يؤجر الرجل على صلاته بامرأته .

فحبهن فريضة واقتداء بالرسول ، وحنين الرجل إلى المرأة ، فطرة فى النفس ، فهو حنين الكل إلى الجزء ، وما جاء الإسلام ليحارب الفطرة أو يقف فى وجهها ، فالدين هو الفطرة التى فطر الله سبحانه الناس عليها .

ولا يستقيم المزاج ، إذا تعارض مع الفطرة ، وفى صلاح المزاج صلاح لمدين ، وفى صلاح الدين السعادة ، بشرط خضوع الإنسان ، للميزان الالهى ، الذى أتى به الشارع صلوات الله عليه .

وفى حياة محيى الدين ثلاث نساء ، أولاهن ، عابدة زاهدة ، عرفها باشبيلية فى مطلع شبابه فكانت له إما روحية ، يحدثنا عنها فى الفتوحات فيقول :

«وخدمت أنا بنفسى امرأة من المخبآت العارفات باشبيلية ، يقال لها فاطمة بنت المثنى القرطبى خدمتها سنين ، وهي تزيد وقت خدمتى اياها ، على خمس وتسعين سنة . وكنت أستحى أن أنظر إلى وجهها فى هذا السن ، من حمرة خديها ، وحسن نعمتها وجمالها ، تحسبها بنت أربع عشرة سنة من نعومتها ولطافتها ، وكان لها حال مع الله ، وكانت تؤثرنى على كل من يخدمها من أمثالى ، وتقول ما رأيت مثل فلان ، إذا دخل على دخل بكله لا يترك منه خارجا عنى شيئا . وإذا خرج من عندى خرج بكله لا يترك عندى منه شيئا وسمعتها تقول ، عجبت لمن يقول ، أنه يحب الله ولا يفرح به ، وهو مشهود ، عينه إليه ناظرة فى كل عين ، ولا يغيب عنه طرفة عين ، فهؤلاء البكاؤون كيف يدعون محبته ويبكون ، أما يستحون ؟ إذا كان قربه مضاعفا من قرب المتقربين إليه . والمحب أعظم الناس قربة إليه ، فهو مشهوده ، فعلى من يبكى ، ان هذه لأعجوبة ؟

ثم تقول لى يا ولدى ، ما تقول فيما أقول . فأقول لها يا أمى القول قولك ، قالت انى والله لمتعجبة لقد أعطانى حبيبى فاتحة الكتاب . تخدمنى

فوالله ماشغلتنى عنه ، فمن ذلك اليوم عرفت مقام هذه المرأة لما قالت . أن فاتحة الكتاب تخدمها ، فبينما نحن قعود إذ دخلت امرأة ، فقالت لى ياأخى أن زوجى فى « شريش » وأريده فماذا ترى ؟ قلت لها وتريدين أن يصل قالت نعم. فرددت وجهى إلى العجوز وقلت لها يا أم . ألا تسمعين ما تقول هذه المرأة . قالت وما تريد يا ولدى ، قلت قضاء حاجتها فى هذا الوقت ، فقالت السمع والطاعة ، إنى أبعث إليه بفاتحة الكتاب وأوصيها أن تجيء به، وأنشأت فاتحة الكتاب تقرأها وقرأت معها ، فعلمت مقامها عند قراءتها الفاتحة ، وذلك أنها تنشيها بقراءتها صورة مجسدة هوائية ، هى سر من أسرار عطايا القرآن ، فلما أنشأتها صورة سمعتها تقول لها يافاتحة الكتاب أطلب كذا ، فلم يلبث حتى وصل إلى أهله .

وكانت تضرب بالدف وتفرح ، فكنت أقول لها فى ذلك ، فتقول لى والله إنى أفرح ، حيث اعتنى بى وجعلنى من أوليائه واصطفانى لنفسه ، من أنا حتى يختارنى على أبناء جنسى ، وعزة ربى لقد يغار على غيرة ما أصفها ، ما التفت إلى شىء باعتمادى عليه عن غفلة إلا أصابنى ببلاء فى ذلك الذى التفت اليه ثم أرتنى عجائب من ذلك ، فما زلت أخدمها بنفسى و بنيت لها بيتا من قصب بيدى على قدر قامتها فما زالت فيه حتى درجت ، وكانت تقول لى أنا أمك الالهية ، ونور . أمك الترابية ، و إذا جاءت والدتى إلى زيارتها تقول لها . يانور هذا ولدى فبريه ولا تعقيه»

والثانية تعرف بها فى مكة، فحادثته فى المحبة الالهية وحاورته ، واتصل بينهما حبل المودة الخالصة فرأى عندها من لطائف المعارف ما لا يصفه

واصف ، يصورها لنا فى شرح ترجمان الأشواق تصويرا رائعا .

« كنت أطوف ذات ليلة بالبيت ، فطاب وقتى ، وهزنى حال ، كنت أعرفه ، فخرجت من البلاط من أجل الناس ، وطفت على الرمل ، فحضرتنى أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسى ومن يلينى لو كان هناك أحد فقلت .

ليت شعرى هل دروا أى قلب ملكوا
وفؤادى لو درى أى شعب سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفى ألين من الخز ، فالتفت فاذا بجارية من بنات الروم ، لم أر أحسن وجهاً ولا أعذب منطقاً ولا أرق حاشية ، ولا أطيب معنى ولا أدق إشارة ولا أظرف محاورة منها ، قد فاقت أهل زمانها ظرفاً وأدباً وجمالا ومعرفة ، فقالت ياسيدى كيف قلت ، فقلت

ليت شعرى هل دروا أى قلب ملكوا

فقالت عجباً منك وأنت عارف زمانك . تقول مثل هذا ؟ أليس كل مملوك معروف . وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة . وتمنى الشعور يؤذن بعدمها . والطريق لسان صدق . فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا قل ياسيدى فماذا قلت . فقلت

وفؤادى لو درى أى شعب سلكوا

فقالت ياسيدى الشعب الذى بين الشغاف والفؤاد . هو المانع له من المعرفة . فكيف يتمنى مثلك مالا يمكن الوصول إليه . إلا بعد المعرفة .

والطريق لسان صدق . فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا ياسيدى فماذا قلت بعده . فقلت

حار أرباب الهوى في الهوى وارتبكوا

فصاحت وقالت ياعجبا . كيف يبقى للمشغوف فضلة يحار بها . والهوى شأنه التعميم يحير الحواس . ويذهب العقول، ويدهش الخواطر . ويذهب بصاحبه فى الذاهبين فأين الحيرة، وما هاهنا باق فيحار . والطريق لسان صدق والتجوز من مثلك غير لائق . فقلت

يابنت الخالة ما اسمك . فقالت قرة العين . فقلت لى . ثم سلمت وانصرفت ، ثم انى عرفتها بعد ذلك وعاشرتها ، فرأيت عندها من لطائف المعارف ، مالا يصف واصف »

والثالثة التقى بها فى مكة أيضا ، طفلة عذراء هيفاء ، لرجل من أهل العلم . وله فيها اشعار وتكنيهات رائقة رائعة .

يذكر لنا فى شرح ترجمان الأشواق ، كيف اتصل حبله برجل فاضل من أهل العلم والكمال ثم يقول متحدثا بقلمه الساحر .

« كان لهذا الشيخ رضى الله عنه بنت عذراء ، طفيلة هيفاء ، تقيد النظر، وتزين المحاضر ، وتحير المناظر ، تسمى بالنظام وتلقب بعين الشمس والبهاء ، من العابدات العالمات السابحات الزاهدات ، شيخة الحرمين ، وزينة البلد الأمين الأعظم بلامين ، ساحرة الطرف، عراقية الظرف إن أسهبت أتعبت ، وان أوجزت أعجزت ، وان أفصحت أوضحت إن نطقت خرس قس ابن ساعدة ، وان كرمت خنس معن بن زائدة ، وان وفت قصر السموءل

خطاه ، وأغرى بظهر الغرور فامتطاه ، ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض ، السيئة الأغراض لأخذت فى شرح ما أودع الله فى خلقها من الحسن وفى خلقها الذى هو روضة المزن. شمس بين العلماء، بستان بين الأدباء ، حقة مختومة ، واسطة عقد منظومة ، يتيمة دهرها ، كريمة عصرها ، سابغة الكرم ، عالية الهمم ، سيدة واديها ، شريفة ناديها ، مسكنها جياد ، وبيتها من العين السواد ، ومن الصدر الفؤاد ، أشرقت بها تهامة ، وفتح الروض لمجاورتها اكمامه . فنمت أعراف المعارف ، بما تحمله من الرقائق واللطائف، عاما عماها ، عليها مسحة ملك ، وهمة ملك ، فراعينا فى صحبتها كريم ذاتها ، مع ما انضاف إلى ذلك من صحبة العمة والوالد ، فقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب ، أحسن القلائد ، بلسان النسيب الرائق . وعبارات الغزل اللائق . ولم أبلغ فى ذلك بعض ما تجده النفس . ويثير الانس . من كريم ودها وقديم عهدها، ولطافة معناها ، وطهارة مغناها . إذ هى السؤل والمأمول . والعذراء البتول . فأعربت عن نفس تواقة . ونبهت على ما عندنا من العلاقة ، اهتماما بالأمر القديم وايثارا لمجلسها الكريم . فكل اسم أذكره فى هذا الجزء، فعنها اكنى، وكل دارا ندبها فدارها اعنى »

تلك هى العذراء الهيفاء التى أوحت إلى محيى الدين أشعاره فى ديوانه ترجمان الأشواق . وتلك هى العذراء التى أحبها محيى الدين وبنى بها . وكان له منها الولد والاثر .

65

السائح الاسلامى

كان البيت الحرام . بعيد الأثر فى حياة محيى الدين . ففيه كتب الفتوحات . وفى مكة توثقت صلاته بالحجيج الوافد من كل ، فج يتولى التدريس لهم . ويحملون إلى بلادهم معارفه وعلومه . فهو زعيم علماء البيت المعمور ، وأمام الوافدين إلى هذا المجتمع العالمى .

وأخيراً آن له أن يلبى الأمر بالرحيل . ليتم تطوافه بالعواصم الاسلامية . فودع الجزيرة العربية المحببة إلى روحه وقلبه . وفارق المدينة والطائف وغيرها من مهابط الوحى . وملهمات الذكريات الخوالد .

وذهب محيى الدين إلى الموصل وطاف بعبادها وزهادها والتقى برجال التصوف فيها . ثم ولى وجهه إلى بغداد ، يركع ويتهجد فى محاربها ومساجدها . ويلقى دروس العلم فى مدارسها ومعاهدها ، ويلوذ به الأئمة ورجال الله .

يقول الامام عبدالله اليافعى . فى الارشاد . اجتمع محيى الدين فى بغداد بالامام السهروردى فأطرق كل منهما ساعة ثم افترقا . فقيل لابن عربى ماتقول فى السهروردى . فقال مملوء سنة من مفرقه الى قدمه . وقيل للسهروردى ما تقول فى محيى الدين . فقال بحر الحقائق وامام العارفين .

ثم طوف ببلاد الروم ، والتقى بملك — قونية — فأجله وأكرمه . ووهب له دارا ، قدرت بمائة الف درهم فلما نزلها وأقام بها ، مر به سائل فقال له شىء لله . فقال . مالى غير هذه الدار فخذها لك ، فسلمها السائل . وعاد محيى الدين يملك الدنيا ولايملك شيئاً .

ثم هبط إلى الشام وهى الأرض التى أحبها ورغب فى أن يموت بها ، لأن الرسول صلوات الله عليه قال انها بلد الابدال والعلماء .

قال شيخ الاسلام المخزومى . وقد كان الشيخ بالشام ، كعبة للقاصدين ، ومثابة للمتفقهين ، يتردد اليه العلماء ، ويحف به الأدباء ، ويلوذ به الأوفياء ، يعترفون له جميعا ، بجلالة المقدار ، وانه أستاذ المحققين من غير انكار ، وقد أقام بين أظهرهم أمـــدا طويلا يكتبون مؤلفاته ويتداولونها بينهم ويسألونه الدعاء .

واستقر بدمشق ، وأقبلت عليه الدنيا ، وحملت اليه عطايا ملوك الأرض وأمرائها ، فكان يتصدق بكل مايصل اليه حتى لقب بريح الكرم .

يقول الامام صفى الدين ، فى رسالته عمن رأى من سادات عصره ، «ورأيت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيي الدين بن العربى ، وكان من أكابر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وقر له من العلوم الوهبية ، ومنزلته شهيرة ، وتصانيفه كثيرة ، وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا ، خلقه هو القرآن .

وهو حجة الله الظاهرة وآيته الباهرة »

صلاته بالملوك

محي الدين هو بين رجال التصوف ، صاحب الملوك ، كما يلقب فى التصوف بالسلطان ، و يعطي مقام السلطنة ، وهو فى خلقه وشمائله ، وعزيمته ومواهبه ، ملك من ملوك الروح لا يطاول ولا يسامى .

ولقد اتصل محي الدين فى مطلع شبابه بملك مراكش ، وصادقه وصافاه وعمل معه وله ، ثم هبط إلى مصر ، فأحبه واليها وأكبره والتمس منه الصحبة والبقاء ، فسمح له بالصحبة وأبى البقاء .

ثم استقر بالشام ، فاتصل حبله بملوك الأيوبيين وهم فرسان الدنيا وسادة الشرق فى ذلك الوقت ، وحماة الاسلام فى وجه الصليبيين ، فرفعوه مكانا عليا ، وسعوا اليه يلتمسون لديه العلم ، كما يلتمسون الدعاء (١) .

ولم تقم صلاته بالملوك ، على الزلفى والتملق ، فما ينبغى لرجال الله هذا وحاشاه منه ، وهو من هو فى أنواره ومقاماته ، بل قام محي الدين لديهم مقام كلمة الحق . مقام المربى المرشد . مقام العالم الأمين على رسالته فلا تأخذه فى الحق لومة لائم . فهو الناصح أبداً ، الناصر للحق فى لفتاته واشاراته.

يقول محي الدين .

« كانت لى كلمة مسموعة عند الملك الظاهر . صاحب مدينة حلب . ابن الملك الناصر لدين الله صلاح الدين بن يوسف بن أيوب . فرفعت اليه

(١) كان لمحي الدين دور كبير فى الحروب الصليبية داعيا ومحرضا وملهما ومرشدا.

من حوائج الناس فى مجلس واحد مائة وثمان عشر حاجة فقضاها كلها .
وكان منها، أنى كلمته فى رجل أظهر سره وقدح فى ملكه ، وكان من جملة بطانته ، وعزم على قتله .

فلما كلمته فى شأنه أطرق . وقال حتى أعرف المولى ذنب هذا المذكور. وأنه من الذنوب التى لا تتجاوز عنها الملوك ، فقلت له ياهذا . تخيلت أن لك همة الملوك ، وأنك سلطان . والله ما أعلم فى العالم ذنبا يقاوم عفوى ، وأنا واحد من رعيتك . وكيف يقاوم ذنب رجل عفوك فى غير حد من حدود الله ، إنك لدنىء الهمة ؟ فخجل وسرحه وعفا عنه ، وقال لى جزاك الله خيرا من جليس . مثلك من يجالس الملوك ، وبعد ذلك المجلس ما رفعت اليه حاجة إلا سارع فى قضائها من غير توقف كانت ما كانت . »

وأنه لموقف عظيم من رجل عظيم لدى ملك عظيم . يدل فى أشراق ووضوح على مكانة محيى الدين لدى الملك الناصر ، حتى أنه ليلقبه بالمولى ، وحتى ليرمى محيى الدين فى وجهه بأعنف كلمة توجه إلى ملك ، فيصفه بنقص الهمة . ولا يغضب الملك العظيم ، بل يخجل ، ثم يعفو عن الذنب الذي لا تعفو عن مثله الملوك ، ثم يقول جزاك الله خيرا ، فمثلك من يجالس الملوك .

وبهذا الخلق ، هزم هؤلاء الملوك أور بامجتمعة متكاتفة — فى ساحات الشام وميادينه .

ويكتب محيى الدين رسالة إلى السلطان الغالب بأمر الله صاحب بلاد الروم ردا على خطاب أرسله إليه سنة تسع وستمائة .

69

بسم الله الرحمن الرحيم — وصل الاهتمام السلطانى الغالب بأمر الله ، أدام الله عدل سلطانه إلى والده الداعى له محمد بن العربى، فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية ، والنصيحة السياسية الالهية، على قدر مايعطيه الوقت ويحتمله الكتاب إلى أن يقدر الإجتماع ويرتفع الحجاب .

إلى أن يقول : فاحذر أن أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالا، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا،وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعيم . واظهار المعاصى ، وتسليط النواب السوء بقوة سلطانك على الرعية الضعيفة ، فان الله أقوى منك ، فيحتكمون فيهم بالجهالة والأغراض ، وأنت المسئول عن ذلك . فياهذا قد أحسن الله اليك ، فانصف المظلوم من الظالم ، ولا يغرنك أن الله وسع عليك سلطانك ، وسوى البلاد لك ومهدها مع إقامتك على المخالفة والجور ، وتعدى الحدود ، فان ذلك الاتساع مع بقائك على مثل هـذه الصفات بامهال من الحق لااهمال ، وما بينك و بين أن تقف بأعمالك إلا بلوغ الأجل المسمى وتصل إلى الدار التى سافر إليها أباؤك وأجدادك .

يا هـذا ومن أشد ما يمر على الإسلام والمسلمين وقليل ما هم ، رفع النواميس والتظاهر بالكفر واعلاء كلمة الشرك ، فتدبر كتابى ترشد ، ان شاء الله ما لزمت العمل به والسلام »

هذه هى لغة العلماء إلى الملوك . علماء الله لا علماء الدنيا .

ويروى لنا محيي الدين . أنه كان يسير فى رفقة من أصحابه . رجال العلم والتقوى . ونظر فرأى الخليفة قادما . فقال لأصحابه . من بدأه منكم بالسلام . أوقعت به لديه . فان السنة أن يسلم الراكب على المترجل . وما تعود الخليفة ذلك .

ووصل الخليفة إليهم ، فلم يلقوا إليه بالسلام ، وتعجب الخليفة ، ولكنه نظر فرأى محيي الدين فعرف . فألوى بزمام دابته . وقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقالوا ، وعليكم السلام ورحمته وبركاته .

وتبسم الخليفة ، وقال رحمكم الله . لقد أحييتم سنة محمدية كريمة ، وعلمتمونى واجباً .

قال الفيروز بادى صاحب القاموس . « لقد رأيت أجازة بخط الشيخ ، كتبها للملك المعظم صاحب حلب . ورأيت فى آخرها « وأجزت له أيضا أن يروى عني كتبى وجميع مؤلفاتى . ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفا وأربعائة مؤلف ، منها التفسير الكبير ، الذى وصل فيه إلى قوله تعالى : وعلمناه من لدنا علما »

وتلك الوثيقة التاريخية ، التى ينقلها لنا الفيروزبادى ، تدل على تلمذة للملوك له ، وحرصهم على اقتناء مؤلفاته التى أربت على أربعائة مؤلف .

يقول محيي الدين : وإياك وصحبة الملوك . إلا أن تكون مسموع الكلمة عندهم ، فتنفع مسلماً أو تدفع عن مظلوم ، أو ترد سلطان عن فعل ما يؤدى إلى الشقاء عند الله .

ولقد وفى محيى الدين بقوله وشروطه . فعاش فى حدود تلك الكلمات الغالية . فكان شفيعاً لعامة المسلمين عند الملوك . مدافعاً عن المظلومين ، ناصرا للحق والدين ، راداً للملوك عن فعل ما يؤدى إلى الشقاء عند الله .

وتلك رسالة لاينهض بها ، إلا رجال الروح والإيمان . من أمثال محيى الدين ، ومن فى الناس كمحيى الدين .

المعراج الأخير

عاش محيي الدين . يجوب بروحه آفاق السماء . ويعرج بهمته إلى معارف الملأ الأعلى . عاش معلق القلب أبدا بربه . عاش في مقامات النور ، وأحوال الصفاء ، تتنزل عليه هبات خالقه مبشرات ومرشدات . عاش محبا محبوباً . راضياً مرضياً . فلما اكتملت رسالته . وأحس بقرب الأجل . والرحيل إلى الرفيق الأعلى . أقبل على القرآن يصوغ له تفسيراً جديداً . على هدى كشوفاته وفتوحاته والهامات قلبه .

وفي دمشق في ليلة الجمعة ، في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمانية وثلاثون وستمائة ، والمحابر والأوراق بين يديه ، والقلم في يمناه منطلقاً بالفتح الأكبر ، مفسراً لآي القرآن والذكر الحكيم فلما وصل إلى قوله تعالى — وعلمناه من لدنا علما — وقف القلم واهتز الجسد ، ومال الرأس الكبير . وهرع إليه صحبه . فاذا بنور يتصاعد إلى السماء ، يحمل معه سر تلك الحياة الخالدة .

ذهب محيي الدين إلى ربه ، فتحطمت تلك المحجة التي كانت تهدى إلى الله . أستغفر الله بل زادت تلك المحجة وضوحا واشراقا ، فقد غدا تراثه شرعة ومنهاجاً وسارية تضيء وتضيء في الطريق الرباني ، تهدى إلى الايمان والتقوى .

أما خصوم محيي الدين الذين ملؤا الدنيا حوله صياحاً ورعودا . فلم أر وصفا لهم أبلغ من قول اليافعي . حكمهم حكم ناموسة نفخت على جبل تريد ازالته من مكانه . وتذهب الريح بأمم من الناموس . وتبقى الجبال شوامخ راسيات . بها تثبت الأرض . وبها يحفظ ميزان الدنيا .

صورة ضريح محيي الدين بدمشق

النهج الصوفى

يصف الله سبحانه ، الحالة المثلى ، والمقام الأعلى ، للمؤمنين العابدين ، فيقول تبارك وتعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا » .

فالإيمان الحق ، ذكر وفكر ، ذكر يلهم الروحانية والمعرفة ، وفكر يدرك الآيات وأسرارها ، ذكر بالليل والنهار ، لفاطر السموات والأرض ، وتفكر فى آيات الله الكونية ، وما اشتملت عليه السموات من نجوم وكواكب وأقمار وشموس ، مسخرات بأمره ، سابحات بأذنه ، مدبرات أحكم التدبير بعلمه ، وما حوت الأرض من نبات مختلف الألوان ، وثمرات تسقى من ماء واحد ، ويفضل بعضها بعضا فى الأكل والاريج ، ومعادن وكنوز ، كل له رسالة يؤديها ، وسهم نافع فى قيام الحياة .

والذكر والتقوى معارج إلى العلم اللدنى الربانى ، واتقوا الله ويعلمكم الله ، والتفكر فى آيات الله على ضربين . أولاهما : يرشد إلى عظمة الحق ويدل عليه . وثانيهما : استنباط ما فى تلك الآيات من قوى لخير الإنسانية وهداها . ورفاهيتها . وهى علوم الدنيا .

فالمؤمن الكامل ، من اكتسب معارفه بالذكر والتقوى ، والتأمل والتفكر فى الآيات والبينات مع الأعتصام بميزان الشرع ، الذى لا يميل ولا يحيف .

وذلك هو التصوف فى مبناه ومعناه ، فالتصوف هو الظمأ إلى المعرفة على تعدد ألوانها وصورها ، الظمأ إلى المثالية فى علوم الدين وعلوم الدنيا .

وعلوم الدين ، غايتها الله سبحانه ، المعبود الواجب الوجود ، المحب المحبوب . واهب الحياة وربها ، وقيوم السماء وعمادها ، يذهب الصوفى إليه بقلبه وروحه ووجدانه ، فهو أبدا الذاكر الراكع الساجد الفانى فى الطاعة والمحبة ، المراقب لله فى كل حالاته ، كأنه يرى الله مشاهدة مبصرة ، فإذا لم يكن يراه ، فان الله يراه ، ويعلم سره ونجواه .

وعلوم الدنيا ، غايتها سعادة الإنسان ، وكف الأذى ومنع العدوان ، وإشاعة الحب والسلام ، وتذكيره فى كل لفتة أو خاطرة ، بربه وخالقه ، الذى وهب له الكون ، وسخره بأمره له ، ليعطيه من خيراته وكنوزه ما أحب وأراد .

خلق الله الكون لنا ، ميدانا لعقولنا ، وساحة لأرزاقنا ، وخلقنا لنفسه « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون » فلننظر فى آيات الكون ونتدبرها ، ثم نسبح بحمد الله ، ولنطعم من خيرات الأرض ونشكر الله ، ولنستنبط من الأرض ما خفى وانطوى فى باطنها ، ثم لنرفع رؤسنا إلى موجود الأشياء جميعها بالحمد والشكر ، ذاكرين أفضاله ، مقدرين لنعمه ومننه .

ذلك هو نهج المتصوفة . فى الذكر والتفكر . وهذا هو الميزان . الذى توزن به حياتهم . وتوزن به أعمالهم ومعارفهم .

فالتقوى طريق للعلم الربانى . والفكر والتفكر معراج إلى مناهل

العلوم ومنابعها . والعلم أفضل ما فى فضل الله كما يقول محى الدين : فأولياء الله هم العلماء . وما اتخذ الله من جاهل وليا أبدا . إنما يخشى الله من عباده العلماء . والعلم يوجب الطاعة . والطاعة تستوجب المحبه من الله . وحب الله يصاحبه الفيض والأشراق والالهام . أو كما يقول الإمام مالك « ليس العلم بكثيرة التلقين والرواية ، وإنما هو نور يقذفه الله فى قلوب من أطاعوه فأحبهم » .

يقول الإمام الغزالى : « كنت فى مبدأ أمرى ، منكرا لأحوال الصالحين ومقامات العارفين ، حتى صحبت شيخى يوسف النساج . فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله تعالى فى المنام ، فقال لى : يا أبا حامد ، فقلت أو الشيطان يكلمنى ، قال لا : بل أنا الله المحيط بجهاتك الست ، ثم قال : يا أبا حامد . زر مساطرك وأصحب أقواما ، جعلتهم فى أرضى محل نظرى ، هم الذين باعوا الدارين بحبى . قلت بعزتك إلا إذقتنى برد حسن الظن بهم ، قال قد فعلت . والقاطع بينك وبينهم ، تشاغلك بحب الدنيا . فاخرج منها مختارا قبل أن تخرج منها صاغرا . فقد افضت عليك أنوارا من جوار قدسى ، فاستيقظت فرحا مسرورا ، وجئت إلى شيخى يوسف النساج ، فقصصت عليه الرؤيا فتبسم . وقال يا أبا حامد هذه ألواحنا فى البداية ، بل إن صحبتني ستكحل بصيرتك بأثمد التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ثم لا ترضى بذلك . حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار . فتصفو من الاكدار طبيعتك . وترقى على طور عقلك وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى « إنى أنا الله رب العالمين » .

ويقول الإمام الغزالى . متحدثا ومدافعا عن النهج الصوفى .

« وماذا يقول القائلون فى طريقة أول شروطها تطهير القلب عما سوى الله تعالى . ومفتاحها استغراق القلب بالكلية فى ذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية فى الله .

وأول هذه الطريقة المكاشفات . حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال . إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » .

وعلى هذا الضوء . نستطيع أن نعرف سر العلم لدى المتصوفة . وعلى هذا الضوء نستطيع أن نتدبر وندرس ذلك التراث العظيم الذى تركه محى الدين للفكر الإسلامى والمعارف العالمية . من جولات فى عوالم الأرواح والقلوب . وكشوف لدنية فى أسرار الشريعة ومعارفها . وفيوضات كالبحور الزواخر فى الآيات الكونية والنظم الالهية والأسرار الربانية . المستمدة جميعها . من خزائن القرآن وفيوضات العلم اللدنى الذى قوامه الذكر والفكر . والأشراق والرضا .

العلم اللدنى

الكشف الباطنى . والفيض الربانى ، هما سر الحياة فى محيي الدين . فقد تدفقت معارفه ، من هذا النبع ، وصيغت علومه من ذلك الفيض ، وتميز بين رجال الفكر الإسلامى . بل العالمى ، بأنه صاحب النصيب الأكبر ، والحظ الأوفر ، من هذا العلم اللدنى ، أو الحكمة الربانية ، التى يؤتيها الله من يشاء من عباده ، يقول محيي الدين .

« إن المؤمن المتأدب بآداب ربه . المحافظ على شريعته ، إذا لزم الخلوة والذكر ، وفرغ فكره من ما سواه . وقعد فقيرا لا شيء له عند باب ربه . حينئذ يمنحه الله تعالى ويعطيه من العلوم والأسرار الالهية . والمعارف الربانية . التى من بها الله سبحانه على عبده الخضر . فقال تعالى : « عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا . وعلمناه من لدنا علما » . وقال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » وقال « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » وقال سبحانه : « ويجعل لكم نورا تمشون به » والنور هو العلم والفرقان أعلى فيوضات الالهام . »

آيات بينات محكمات ، فى حقيقة الفيض الربانى . الذى يفجر الحكمة والعلم فى قلب المؤمن العابد الذاكر الذى يعيش جالسا على باب ربه عابدا مجردا خاليا من كل شيء . متوجها إلى الواهب القادر الذى يجعل لمن قصده نورا يعيش به ، وفرقانا يمشى على هداه .

ثم يقول محي الدين « فحينئذ يحصل لصاحب الهمة فى الخلوة مع ربه جلت هيبته وعظمت منته . من العلوم ما يغيب عندها كل متكلم . على البسيطة لأنها من وراء أحكام العقل ، وليست فى متناوله ولا طاقته ، لأنها منة الوهاب العليم » .

قيل للجنيد : بما نلت ما نلت ؟ فقال : بجلوسى تحت تلك الدوحة ثلاثين سنة . دوحة المراقبة والطاعة ، والعبودية الكاملة .

وكان أبو يزيد البسطامى يقول فى محاجته لعلماء الرسوم : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت . وأخذنا علمنا من الحى الذى لا يموت .

ومحيي الدين يصرح فى كل ما يكتب . بهذه المعانى . فهو يقول « إن جميع ما أكتبه فى تأليفى ليس عن روية وفكر . وإنما هو عن نفث فى روعى على يد ملك الإلهام » ويقول فى الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة من الفتوحات «وجميع ما كتبته وأكتبه فى هذا الباب ، إنما هو من إملاء إلهى وإلقاء ربانى ، أو نفث روحانى فى روح كيانى ، كل ذلك بحكم الإرث للأنبياء . والتبعية لهم ، لا بحكم الاستقلال » ثم يقول « وتصانيفى إنما هى من حضرة القرآن وخزائنه . فإنى أعطيت مفاتيح الفهم فيه والإمداد منه . »

ويقصد محي الدين من قوله : بحكم الإرث للانبياء والتبعية لهم ، قول الرسول صلوات الله عليه « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » أى فى الكشف والعلم ، والنفث فى الروع ، والإمداد ، والفيض الإلهى .

والكشف الباطنى، أثير حوله الجدل والحوار، فى سائر أنحاء الكوكب الأرضى، قديماً وحديثاً.

فالماديون لا يرون للمعرفة والعلم باباً إلا الحواس الخمس المتصلة بعالمنا، ويقررون أن لا مصدر فوق هذا تصدر منه المعرفة غير الخيال والتصور. وما كان الخيال والتصور يوماً من الأيام حكماً ترضى حكومته فى المعارف اليقينية، والعلوم الصحيحة الثابتة. وهم شديدو التهكم برجال الدين والكشف الباطنى ومن سلك مسلكهم من أصحاب الرياضة العقلية، والصفاء الروحى.

أما الصوفية والروحانيون على اختلاف أديانهم وألوانهم ومذاهبهم فيقررون أن للعلم وسائل باطنية يقرها العقل المنصف. ويعترف بها الواقع الملموس المشاهد، أساسها الصلة بين النفس الإنسانية والعالم الروحانى، كما يقول الروحانيون؛ أو بين النفس الإنسانية وخالقها كما يقول المتصوفة. أو كما يعبر محيى الدين «إن الله هو المعلم الحقيقى، والمؤدب الحقيقى للوجود كله، خلق الإنسان علمه البيان، ويؤتى الحكمة من يشاء، وعلم الخضر، ومن يسلك نهجه ويقرب، قربه من لدنه علما. وأدب من اصطفى واختار، فأحسن تأديبه».

فمن خلصت نفسه من شوائب المادية وظلماتها؛ وصفت روحه وتطهرت فى محاريب الطاعة. ومناجاة المحبة، ورضى الله عنه فأحبه، أفيض عليه من أسرار الوجود وآياته. وإشراقات العلوم وأسرارها ما يعلو على الحواس الخمس وما تدركه الحواس الخمس؛ وظفر بمعارف وعلوم يضيق عنها نطاق

النطق كما يقول الغزالى ، أو كما يقول أستاذه يوسف النساج ، حتى يرى العرش ومن حوله ، ثم لا يرضى حتى يرى ما لا تدركه الأبصار ، ثم يرقى حتى يسمع الخطاب كموسى « إنى أنا الله رب العالمين » .

والمعارف الهابطة من السماء المفاضة من تحت عرش الرحمن . تتبع الصفاء وتلازمه . كتب الشاعر الروحانى موسيه عن نفسه فقال : أنا لا أعمل ولكنى أسمع ما أكتب ، فكأن إنساناً مجهولا يناجينى فى أذنى . وكان لامارتين الذى صقله الحب ، يقول : لست أنا الذى يفكر ، ولكن هى أفكارى التى تفكر لى . وطاغور زاهد الهند وشاعرها يقول : بأنه ينام وهو يعمل فى قطعة من الشعر ثم فيستيقظ فيجدها تامة فى ذهنه . أما سقراط فيلسوف اليونان فقد تحدث إلى تلامذته فقال : إنى لا أسمع بأذنى ما تلقيه إلى روح مجهولة ، ومنها استمددت معارفى . وكان فيلسوف الإسلام الفارابى ، تحل له أعظم مشاكله الفكرية فى المنام ، أما ابن سينا فيخطو خطوة أخرى نحو الكمال فيقول : إنه إذا استعصى عليه أمراً من أمور الفكر هرع إلى الصلاة فصلى وسبح ، فإذا بكل شىء كالصبح المبين . وأرسطو قد بنا فلسفته فى الدراسات النفسية على الفيض والإلهام .

تلك ثمرات الصفاء ، وهبات الروح الجميل المشرق ، ولكن الكمال فى الفيض والهبات ، إنما هو لرجال الطاعة والعبادة ، والذكر والمناجاة . والرضا والمحبة . فأولئك لهم التلقين والمشاهدة والنور والفرقان .

ويأتى بعد ذلك سؤال ، لا بد أن يدور به اللسان — هل السالكون

لطريق الطاعة والعبادة والذكر والصفاء ، يصلون جميعاً إلى هذه المعارف الباطنية والعلوم الربانية ، والاشراقات والفيوضات والمكاشفة .

يقول محي الدين : إن الفتح على قدر الهمة ، وإن شئت بلغة العصر . فعلى قدر الطاقة الروحية للعابد الذاكر ، فطاقة العقل مختلفة ، وطاقة الروح أيضاً . وكما تتباين كفاءات العلماء فى الدراسة الظاهرية علواً وانخفاضاً . وعبقرية هنا وجموداً هناك ، كذلك تتباين كفاءات المتطهرين العابدين ، فى الفتح والكشف .

مكانة محي الدين من العلم اللدنى

ومنذ قرعت الدعوة المحمدية ، أسماع الدنيا بالخير والهدى ، إلى يومنا، على كثرة العابدين الذاكرين المتطهرين فى محاريب المحبة والصفاء ، المنقطعين إلى ربهم ، المتهجدين لخالقهم فى تلك الرقعة المحمدية التى تشغل قلب الدنيا ، والتى ضمت شتيتاً من الأمم ، وألواناً من الشعوب ، والتى أنجبت العباقرة والأئمة ، لم يعرف تاريخ تلك الأمة ، رجلا ثانياً يزاحم محى الدين فى قمته الشامخة ، فى علوم الكشف والفيض والهبات ، والعطايا الربانية .

يقول الشعرانى فى اليواقيت والجواهر :

« إن كلام محي الدين إن نظر فيه مجتهد فى الشريعة إزداد علماً إلى علمه واطلع على أسرار فى وجوه الاستنباط وعلى تعليلات صحيحة لم تكن عنده . أو لغوى أو مقرىء أو معبر للمنامات أو عالم بالطبيعة أو متحدث أو خبير بالطب أو عالم بالهندسة أو نحوى أو منطق أو صوفى أو عالم بالحديث وطرقه، وبعلم الأسماء والحروف وأسرارها ، وجد لديه من العلم ما يذهل العقل ويحيره ، فهو يفيد هذه العلوم وغيرها علوماً لم تخطر قط على بال إنسان »

ولقد أشار الشعرانى إلى نحو ثلاثة آلاف علم منها فى كتاب له أسماه « تنبيه الأغبياء إلى قطرة من بحر علم الأولياء » ويقول الشعرانى أيضاً « إن كلام محي الدين ومرتبة علومه لغيره من الصوفية ، كمرتبة اكسير الذهب بالنسبة إلى مطلق الذهب » .

ومحيي الدين تقف العقول على أبوابه متحيرة ذاهلة ، فأمواج عبابه طاغية صخابة ، ثم هادئة رقراقة ، ولكنها فى ضجيجها أو فى صفائها، عميقة الغور ، عمقاً مهما غاصت العقول بحثا عن نهايته فهى أبداً ترتد معترفة بالعجز، شاهدة بالقصور .

ومرجع هذا إلى أن علوم محيي الدين مزاجاً عجباً من علوم الدين والدنيا . فهو يحدثك عن صفات الله عز وجل وأسرار أسمائه الحسنى ، وما أودع فى عوالم الحروف والكلمات من آيات وآيات ، ثم يحدثك عن خواص المعادن وأسرار مزجها وتحولها ، وذراتها وموازينها ، ثم يثب إلى الكواكب والأجرام السماوية وسيرها وحركاتها وتواميسها ، ثم يعود بك إلى البحار وخصائصها وجواهرها وعوالمها ثم يعطف على دروب الروح ومعارجها ، وينتقل إلى النفس والهوى والجوارح . ثم إلى الأديان والشرائع ، مقارناً وشارحاً ، ثم إلى العماء الأول الذى خلق منه الكون . والماء الذى تكون منه كل شيء حي . وفجأة إلى العالم الأخروى وصراطه وموازينه وملائكته وبعثه ونشوره، ثم إلى دنيا الطب وعجائب الأدوية ، والنباتات وخواصها . وقبل أن تفيق يأخذ بأذنك ليعطيك درساً فى الهندسة والمثلثات والزوايا والدوائر ، فأنت معه أبداً على جناحى طائر من عالم مسحور، عنيف الحركة، جبار السرعة يسمعك تسبيح الملائكة وأحاديث الملأ الأعلى فى الآفاق العليا. واصطخاب الأمواج وتلاطمها فى أعماق المحيطات فى طرفى لحظة واحدة .

فاذا دار رأسك من هذه السرعة الرهيبة . وعجز عقلك عن متابعة كل هذه الفيوضات العلمية المتباينة . ففهمت شيئاً وغابت عنك أشياء ، اسمعك

أشعاره وحدثك بالمقامات والأحوال ، وناجاك بقصص الصالحين والأولياء . وسرد عليك النكت البيانية والدقائق النحوية ، والرقائق الصوفية وما وقع فيه الفقهاء ، وما تورط فيه المفسرون ، وما أغلق على المتكلمين ، وما ألبس على المعتزلة والأشاعرة ، فإذا استرددت أنفاسك اللاهثة قليلا قذف بك عنيفاً جامحاً إلى دنيا جديدة على صورة عالمنا شكلا ، وعلى نقيضه معنى . فهناك الصفاء والجمال والخير السارى والثمر الشهى ، الذى يثب إلى يدك . والأرض التى تطوى تحت قدمك . والقصور التى صاغها الخيال والنظم الرحيمة الكريمة التى لا يشقى بها إنسان . وفى تلك النشوة التى تحس بها جميلة ساحرة، يأخذك إلى مشكلات الجوهر الفرد ، وكروية الأرض . ونظرية الموازنة . أو ما يسمى اليوم بالنسبة . وقوة التفجر أو ما يسمى اليوم بالذرة ، فاذا خارت قواك . فلم تستطع بقية التطواف مع محيى الدين فى كتبه . فاعلم بأنك فى بداية الشوط وما قطعت فى ساحاته إلا خطى ضئيلة كليلة .

فإذا تفكرت فيما مر بك . تذكرت أمراً عجيباً ، إنك مع رجل يعرض عليك ألواناً من الفكر ، وألواناً من العلم ، وألواناً من المعارف لا تمت بصلة إلى علوم سابقة ، ولا تمت بنسبة إلى أقلام مبدعة كاتبة . أنها لمن نبع محيى الدين وحده ، فمحيى الدين لا يذهب فى معارفه وعلومه مذاهب غيره ، بل قمة شامخة . فأمة وحدها . أو كما يقول الإمام النووى « تلك أمة قد خلت ، لم تماثلها أمة من قبل وما أحسب أن أمة تخلفها » .

85

يقول محيي الدين « ما عندنا بحمد الله تقليد لأحد . إنما هو فهم في القرآن أعطيته ومدد من رسولي اختصصت به ، وفيض من ربي أكرمني بأنواره »

ومع هذا فقد استمسك محيي الدين بميزان الشريعة ، لأنه كما يقول « من رمى بميزان الشريعة من يده لحظة هلك » ويهتف في مسمع الدنيا « لقد كتبت ما كتبت وأنا أقر بحمد الله تعالى ، إني لم أذكر أمراً غير مشروع . وما خرجت عن الكتاب والسنة في شيء ، بل منهما استمددت وبهما أنير طريقي »

أقسام العلوم ومراتبها

يقول محيي الدين

« لقد أجمع رجال التصوف جميعاً على أنه لا تحليل ولا تحريم بعد شريعة رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله عليه . وإنما هو فهم يعطى فى القرآن لرجال الله كما ثبت من حديث على . وفيض من العلم يهبه لمن أطاعه فألهمه وجعل له نوراً .

وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة ، كذلك يحفظ علماء الباطن آدابها وروحها ، وكما أبيح لعلماء الظاهر الاجتهاد فى استنباط الأدلة ، واستخراج الحدود والفروع . والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يرد فيه نص ، وترك أمره للاجتهاد والاستنباط ، فكذلك للعارفين أن يستنبطوا آداباً وأذواقاً ومنهجاً للمريدين والعابدين »

وإذاً فالتصوف علومه واجتهاداته التى يتفرد بها . ولتلك العلوم أثرها ومكانتها ومقامها فى التشريع والآداب الإسلامية .

ثم يعطف محيي الدين لتوضيح رسالته ، على العلوم وأقسامها ، وأثر العقل فيها ، ومكانة الأحوال والأسرار منها ، فيقسم العلوم إلى ثلاثة أقسام : علم العقل . وعلم الحال . وعلم الأسرار ، وهذه هى جماع المعارف كافة ، وما سواها من فروع ، فمنضوى تحت أعلامها .

علم العقل

فعلم العقل ، هو كل علم يحصل نتيجة نظر فى دليل . بشرط

87

الحصول على وجه ذلك الدليل وشبهه . ولهذا يقولون فى النظر، منه صحيح ومنه فاسد ، ومنه علم الفلسفة وسواه من العلوم النظرية .

وعلامة هذا العلم أو من خصائصه ، إنك كلما بسطت عبارته حسن واتضح معناه ، وعذب عند السامع ، وقبله منطقه .

علم الأحوال

والعلم الثانى : هو علم الأحوال . ولا سبيل إليه إلا بالذوق أو المشاهدة ولا يقدر عاقل على أن يحده ، أو يقيم على معرفته دليلا البتة ، وهو علم يتلون مع صاحبه بلون ذوقه أو بلون مشاهداته كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر ، ولذة الجماع والعشق والوجد والشوق ، عند الناس كافة ، أو كحالات المتصوفة فى أحوالهم ومقاماتهم وما يتذوقونه من لذائذ روحية .

فهو علم من المحال أن يعرف أحد حقيقته إلا أن يتصف بحالاته ويتذوقها أو شبهها من جنسها فى عوالم الذوق والروح .

وشرط هذا العلم سلامة الإدراك والبراءة من الآفات . فإن من يغلب على طعم فمه المرارة يجد العسل مراً ، وهو ليس كذلك .

وهذا العلم يترك لأصحابه ، فلا يتحدث به إلا من ذاقه ولا يجوز إنكار الذوق على من ذاق، بل لا يلتذ بسماع حالاته على تعدد ألوانها إلا أصحاب الأذواق السليمة .

علم الأسرار

وهو العلم الذى فوق طور العقل وإدراكاته ، وهو علم المتصوفة ، أو العلم

اللدنى وهو والحكمة التى يؤتيها الله من يشاء ، وأساسها الفيض والنفث فى الروح ، ولذلك يتسارع إلى صاحبه الإنكار ، لأنه من طريق الإلهام ، وأكثر علوم الكمل من هـــذا القبيل ، وهو صفة أساسية للنبى ومنحة وخلعة على الولى .

وهو نوعان ، نوع منه يدرك بالعقل ، وهى العلوم التى يمكن تحصيلها بالعقل والفكر كالقسم الأول من هذه الأقسام ، ولكن العلم به هنا لم يحصل عن نظر ولا عن تفكر ؛ ولكنه ملازم لمرتبة العلم التى يعطاها .

والنوع الآخر من علوم الأسرار على ضربين : ضرب منه يلتحق بعلم الأحوال ، ولكن على مقام أعلى وحالة أشرف ، والضرب الآخر من علوم الأخبار ، وهى التى يدخلها الصدق والكذب ، إلا أن يكون المخبر به قد ثبت صدقه وعصمته فيما يخبر به ويقوله . كأخبار الأنبياء بالجنة وما فيها ؛ فقوله إن ثمة جنـــة مثلا من علم الخبر ، وقوله فى القيامة . إن فيها حوضاً أحلى من العسل من علم الأحوال ، وهو علم الذوق ، وقوله . كان الله ولا شىء معه ، وما يشابه ذلك من علوم العقل المدركة بالنظر .

أما علم الأسرار فالعالم به يعلم العلوم كلها ويستغرقها ، فلا علم أشرف من هذا العلم المحيط الحاوى على جميع المعلومات ، وما بقى إلا أن يكون المخبر به صادقا معصوما ، وعلى العاقل اللبيب الناصح لنفسه أن لا يرمى ما يرد اليه من هذا العلم ، ولكن يقول هذا جائز عندى أن يكون صدقا أو كذبا .

وكذلك ينبغى للعاقل ؛ إذا أتاه هذا العلم من غير المعصوم وإن كان

صادقا عند الله فيما أخبر به . ولكن كما لا يلزم السامع له بتصديقه ، لا يلزمه تكذيبه ؛ ولكن يتوقف و يتأمل ؛ فان كان ما أتى به لا تحيله العقول بل تجوزه . ولا يهدر ركنا من أركان الشريعة ، ولا يبطل أصلا من أصولها ؛ أو أتى بأمر جوزه العقل ؛ وسكت عنه الشارع ؛ فلا ينبغى له أن يرده أصلا ؛ بل له الخيرة فى الأمر . فان كانت حالة المخبر به تقتضى العدالة لم يضره القبول بل هو الأولى . فكما أننا نحكم فى الأورواح والأموال بشهادة الشهود ؛ نقبل ونحكم بصدق من يأتى بهذه العلوم بشروطها التى ذكرناها ؛ وإن كان المخبر بها غير عدل فى علمنا ننظر ، فان كان الذى أخبر به حقا بوجه ما من الوجوه الصحيحة قبلناه ، و إلا تركناه فى باب الجائزات ولم نتكلم فى قائله بشىء مسىء . فانها شهادة مكتوبة نسأل عنها . قال تعالى « سنكتب شهادتهم و يسألون » .

والصوفية رضوان الله عليهم أو أصحاب علم الأسرار إنما يأتون لنا بأسرار وحكم من أسرار الشريعة مما هى خارجة عن قوة الفكر والكسب ولا تنال أبداً إلا بالمشاهدة والإلهام وما شاكل هذه الطرق .

ومن هنا نفهم وعلى هذا الضوء ندرك قول الرسول صلوات الله عليه « إن يكن فى أمتى محدثون فمنهم عمر » أى يأتون بالحديث المنطوى على العلم والحكمة ؛ و بقوله فى أبى بكر الصديق « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا قيام ؛ و إنما بما وقر فى صدره من هذا الدين .

ثم يقول محيى الدين « هذه هى علوم الأسرار التى اختص بها الأخيار ولو لم يقع الإنكار لهذه العلوم فى الوجود وكان الناس كلهم أصحاب عقول

سليمة لم يفد قول أبو هريرة « حفظت عن رسول الله وعاءين من علم . أما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا الحلقوم » وقول ابن عباس فى قوله تعالى « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ؛ يتنزل الأمر بينهن » لو ذكرت لكم تفسيره لرجمتمونى . وفى رواية لقلتم « أنى كافر ».

تلك هى أقسام العلوم عند محيى الدين ؛ وفيها تنطوى معارف البشر كافة من علوم ظاهرة و باطنة . فعلم العقل . هو علم الأدلة ؛ علم الجدل والإقناع ؛ علم التفكر والنظر ؛ و بدايته ونهايته محددة ؛ ومعارفه حولها القيود والسدود. لأنه خاضع لإدراكات العقل ؛ وقانون الفكر ؛ ولهذا جاء منه الصحيح والفاسد ؛ لاختلاف العقول وتباينها ؛ وهو علم مباح للناس كافة ؛ كما رزق الناس كافة العقول .

أما علم الأحوال ؛ فهو علم التجربة والذوق ؛ لا يعرفه إلا من جرب أو ذاق . كمقامات المتصوفة ودرجات أحوالهم ؛ أو حالات النفس من الرضا والغضب ؛ أو تذوق الحواس المرارة والحلاوة ؛ وشرطه صحة الأداة عند صاحبه حتى لا يفسد حكمه على الأشياء .

وهو علم وسط بين علوم العقل وعلوم الأسرار ، ولهذا يشترك فيه المتصوفة وغيرهم ، لكل إنسان ماذاق وشاهد ، وليس لأحد أن يصدر حكما على ما يذوق أو يشاهده صاحب هذا العلم ، لأنه إنما يذكر ما ذاق خاصة، وما شاهد وحده .

أما العلم الثالث ، علم الأسرار ، فهو علم المتصوفة وحدهم علم المشاهدة والمكاشفة العلم الجامع المحيط الشامل للمعارف كافة ، العلم الذى هو للأنبياء أصلا ، وللأولياء خلعه ومنحة . وعلى العاقل أن لاينكر، بل عليه أن يتقبله بالقبول الحسن مادام لا يتعارض مع أصل من أصول الشريعة ، ولا يهدم ركنا من أركانها بل هو يشرح الأصول و يدعم الأركان ، ومن هذا الفيض كانت معارف محيي الدين ، والمعترض على هذه العلوم بلا دليل متهور ناقص العقل ، محروم من الفهم والخير .

علم التجليات

ويستطرد محيي الدين ، فيضيف لهذه العلوم تتمة تكمل بها . أو إن شئت فهو يحدثنا عن المقام الذى تتنزل منه المعارف على أربابها .

والمتصوفة يؤمنون بأن المعارف أصيلة فى النفس البشرية لا دخيلة عليها ، لأن العلوم كافة من الله ، هو مانحها ، وهو سبحانه واهبها ومفيضها ، علم آدم الأسماء كلها ، ويعلم من يشاء .

يصور لنا محيي الدين الكون فى صورة جميلة منسقة منظمة متماسكة ، يشد بعضها بعضاً بناموس وقانون إلهى محكم ، ومن قانون هذا الكون الحركة الدائمة ، وهذه الحركة ، كما هى فى الكون ، مصدر وجوده أو كما يقول . إن الخلق مع الأنفاس يتجدد . هى أيضاً فى الإنسان مصدر أحواله ومعارفه يقول محى الدين .

« العالم فى حركة دائبة ، وللانسان أحوال متقلبة ، حتى ليحدث التقلب بين كل نفسين ، ومرد هذه الحركة فى الكون إلى قوله تعالى « كل يوم هو فى شأن »

وأعلى العلوم هى مرتبة العلم بالله سبحانه ، وأعلى الطرق إلى العلم بالله . علم التجليات ودونها علم النظر . وعلم التجليات هو الذى نزل فيه « وقل رب زدنى علما » أى زدنى من كلامك ما تزيدنى به علماً بك .

والتجلى أشرف الطرق إلى تحصيل العلوم ، وهى علوم الأذواق ، ولكل

شيء ظاهر و باطن ، وكذلك نفس الإنسان لها ظاهر و باطن ، فهي تدرك بالظاهر أموراً ، وتدرك بالباطن أموراً .

والتجلي يأتي للنفس البشرية بحسب حالتها واستعدادها . فتتمتع الزيادة في علوم الأحكام إن كان من علماء الشريعة ، وفي علوم موازين المعنى ، إن كان منطقياً ، وفي علوم ميزان الكلام إن كان نحوياً وكذلك صاحب كل علم .

أما الصوفي ، فتتمتع له الزيادة في عالم الحقائق والمعاني ، في العلوم الإلهية وعلوم الأسرار وعلوم الباطن ، وما يتعلق بعلوم الآخرة ، وتلك منحة المنح لهم »

ثم يقول محيي الدين « إن تلك الهبات الربانية الهابطة من مقام التجلي على كل بحسب علمه تجعل الإنسان في زيادة علم أبداً . من ناحية ما تعطيه حواسه وتقلبات خواطره ، ولكن أغلب الناس لا ينتفعون بهذه العلوم . لأن الظن والشك والوسوسة تفسدها ، كما تذهب بها الظلمة ، ولا يسلم دائماً إلا أهل الله الذين برؤا من الظنة والشك ، وليست للوسوسة عليهم سلطان ، ولا للظلمات إلى حياتهم من سبيل ، فهم في نطاق الرحمة والعناية ، وفي زيادة دائمة متلاحقة من العلوم والمعارف .

ثم يقول ولكل رجل من أهل الله . سلم يخصه ، يرقى فيه في معارج التجليات ، ولا يرقى معه غيره في ذلك السلم .

ولسلم المعارف درجات ، أولها الانقياد وآخرها الفناء ، وما بين هاتين الدرجتين أنوار وأسرار وفيوضات وهبات لدنية .

ويربط محي الدين على أفواه من يريد أن يتطرق من هذا القول إلى

الظنة ، ورمى المتصوفة بالباطل من القول ، فيمسك بالميزان القسط قائلاً : إن الأمر الإلهى التشريعى انتهى بانتهاء الأنبياء وختم بخير الرسل . فما بقى للولى العابد العالم ، إلا المناجاة الإلهية التى لا أمر فيها ، وإنما سمراً وحديثاً ، ومحبة ورضا. فكل من قال من أهل الكشف ، أنه مأمور بأمر إلهى فى حركاته وسكناته مخالف لأمر شرعى محمدى تكليفى ، فقد التبس عليه ، أو زج بنفسه بيننا وليس منا .

الطريق الأعظم

فإذا انتهى محى الدين من تقسيم العلوم إلى أقسامها الثلاث وإن أشرفها وأسماها علم الأسرار ، وهو علم الكمل من المتصوفة . وإذا فرغ من مقام التجليات وأثره فى العلوم عامة . وعلوم الله خاصة . أخذ يلقى النور على الغاية من الحياة . وعلى الطريق الأعظم الموصل إلى الله . وهو طريق أهل الخلاصة . أو أهل الصفوة المختارة من العباد . الذين هم عطر هذا الوجود . ومحل النظر والعناية من خالقه . فيقول :

«اعلم أن الطريق إلى الله تعالى. الذى سلكت عليه الخاصة من المؤمنين الطالبين نجاتهم . دون العامة الذين شغلوا أنفسهم بغير ما خلقت له . على أربع شعب .

بواعث . ودواعى . وأخلاق . وحقائق . والذى دعاهم إلى هذه الدواعى والبواعث والأخلاق والحقائق . ثلاثة حقوق فرضت عليهم . . حق الله سبحانه ، وحق للخلق. وحق لأنفسهم . فالحق الذى لله تعالى عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً ، والحق الذى للخلق عليهم . كف الأذى كله عنهم ، ما لم يأمر به شرع من إقامة حد ، وصنائع المعروف معهم على الاستطاعة والايثار ، ما لم ينه عنه شرع ، فإنه لا سبيل إلى موافقة الغرض إلا بلسان الشرع ، والحق الذى لأنفسهم عليهم أن لا يسلكوا بها من الطرق إلا الطريق الذى فيه سعادتها ونجاتها، وهو طريق الفطرة. فإن أبت فلجهل قام بها أو سوء طبع ، فإن النفس الأبية إنما يحملها على إتيان الأخلاق

الفاضلة دين أو مروءة . فالجهل يضاد الدين ، وسوء الطبع يضاد المروءة »

وإذن فالإنسان . يعيش فى هذه الحياة ، تحت ظلال ، ثلاثة حقوق مقدسة مفروضة ، يجب عليه أن ينهض بها ، فيؤدى واجبها ، وتلك الحقوق ، هى مناط سعادته ، وقوام حياته .

حق لله تعالى . وهو أول الحقوق وأوجبها ، فما خلق الإنسان إلا لهذا « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » يعبده سبحانه ليلا ونهاراً عبادة خالصة لوجهه الكريم المنعم المتفضل . خالية من الشرك الأكبر ومن أدرانه وهى الشرك الأصغر ، من رياء ونفاق ، وما إلى الرياء والنفاق من صفات وأخلاق ، أو كما يقول محيى الدين . من خاف أحداً من عباد الله ، فما تحقق بالعبوديه . ولا ذاق معناها ، ولا أدرك سرها .

والحق الثانى . هو حق الناس عليه ، وهو قوام الحياة الاجتماعية الفاضلة ، الحياة السعيدة الكاملة للعالم . فالدنيا تكونت من فرد . ومن الأفراد يتكون المجموع ، و بالتالى تتكون الإنسانية فإذا صلحت صلات الفرد بالفرد . صلحت صلات الجماعات . وصلحت حياة الكون ، وصفت من البغضاء وما إلى البغضاء من صفات تؤدى إلى التنافر والشقاء .

وأول واجبات هذا الحق . كما يقول محيى الدين . كف الأذى كله عن الناس . وكله هنا آية تحتاج إلى صحف ومجلدات . الأذى كله ، حتى مادق وخفى ، حتى الايماءة والاشارة البغيضة حتى خاطرة السوء ، وأمنية الأذى .

وليس كف الأذى . وليس حب الخير فحسب . بل أيضاً الايثار على النفس ، وهو مقام من الخلق عظيم ، لا يطيقه إلا رجال النور والايمان .

فإذا أدى واجب الناس . بقى عليه واجب نفسه . وهو أن لا يدفع بها إلى ظلمات الدنيا وأحزانها . وجحيم الآخرة وعذابها. واجبه أن ينقذها من هذا الهول العظيم ، فيسلك بهـا طريق الخير والسعادة . طريق العبادة والطاعة ، طريق الرضا والمحبة ، طريق الله عز وجل .

فإن أبت النفس ، أن تلج هذا الباب الكريم . وأن تسير فى هذا الطريق القويم . فلجهل أو سوء طبع ، لأن الفطرة تدفع بالنفس إلى هذا الطريق الربانى ، الذى فطر الله الناس عليه فالجهل وسوء الطبع ، هما العوائق التى تحول بين النفس وفطرتها ، وبين النفس وسعادتها .

ولا علاج للجهل ، إلا بنور العلم الإلهى . ولا دواء لسوء الطبع ، إلا بقهر النفس على النهج الصوفى ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وسنته التى ارتضاها لعباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

محيي الدين . والفرق الاسلامية

فإذا فرغ محيي الدين من وضع العلامات ، التى ترشد إلى الطريق الأعظم الموصل إلى الله وهو طريق الطاعة والعبادة ، والصفاء والمحبة ، وأوضح لنا حق الله . وحق الناس ، وحق النفس على صاحبها ، بتزكيتها وتطهيرها وتوجيهها إلى فاطرها وموجدها ، عطف على الفرق الاسلامية التى احترفت الجدل وتعبدت فى محاريبه ، فتفرقت بها السبل ، وركضت مع الأهواء ، فركبتها حمى الكلام والنقاش فحولت الاسلام من القلوب ، إلى الألسن والعقول . حولته إلى صراع وخصام . وتقاتل وتبارز بالألفاظ ، وضربت على فطرته وصفائه الأول ، بسحب مظلمة مرعدة ، أخذت على المسلمين حياتهم فانصرفوا من محاريب التقوى والعمل والايمان ، إلى منابر الخصومات والجدل والكلام ، وأسلمهم الجدل إلى تلاحى وعناد ، لم تحل عقدته ، وإلى فرقة لم يجمع شملها ، لأنهم ضربوا بألسنتهم فى بيداء لاحدود لها ، وسبحوا فى محيط صخاب ، لانهاية لعبابه ، وغضبة أمواجه ، وهل ينتهى القول ما دام للجدل بابا ، بل أبوابا ، فى مشاكل القضاء والقدر ، وخلق أفعال العباد ، وصفات الله سبحانه ، وما إلى تلك المعضلات ، من شبيهات ومثيلات .

ولقد وقف محيي الدين . فى وجه كل تلك الفرق . المتلاحية المتشدقة المتعالمة . وقفة المؤمن العظيم الذى يدعو إلى الله على بصيرة من أمره ونور من عقيدته ، وقف فى يمينه كتاب الله وسنة نبيه . يدعو اليها ، ويهتف

بأن الإسلام . تسليم وايمان وعمل . لايعرف الشك ، ولا يقر الجدل ، ولا يحتاج إلى حوار . مخاصما للتأويل محاربا له . لأن الايمان يجب أن يكون بما أنزل الله من الألفاظ والمعانى ، لا بما أوله العقل ، وابتدعه التصور أو المنطق . آمن الرسول بما أنزل إليه ، فالحق تعالى ، ما كلفنا ، أن نجادل فى القضاء والقدر ، بل أمرنا بالايمان بهما ، كما عبر عنهما ، وماطلب إلينا بيانا ، بما ينسب من أفعال الإنسان اليه ، وما ينسب إلى خالقه ، وما أمرنا أن نعلم حقيقة نسبة الصفات إليه تعالى ، لعلمه بعجزنا عن ذلك[1] ، فان حقية صفاته تعالى مباينة لجميع صفات خلقه وحقائقهم . فليس كمثله شيء ، وهـذا هو الفيصل ، فعلام الجدل والحوار ، ولا طاقة للعقل البشرى بذلك اللون من المعارف التى هى من فوقه ، والتى تسمو على امكانياته وخصائصه وماخلق له .

الجدل . والاسلام

ولقد حرم الاسـلام الجدل ونهى عنه ، لأن الجدل لايصاحبه اليقين ولايعرف التسليم . بل هو علامة من علامات الشك ، أو كما يقول ابن عربى . ايمان بما تبتكر العقول ، من ألوان وصور ، لا بحقائق الايمان كما جاء بها الفرقان . »

ولقد حذر الرسول صلوات الله عليه أصحابه ، ومن آمن به ، من الجدل وعواقبه . ونهى وأغلظ فى الأمر بتجنب البحث وراء القضاء والقدر وسرهما ، لأنه يسلم إلى ظلمات من الشكوك ، لانور معها ولايقين . وطلب من أتباعه التفكر فى آيات الله ، لا فى ذاته وصفاته والا هلكوا .

---

(١) كان الامام الجنيد يقول « لايعرف الله إلا الله »

ومع هذا ، فقد ألوى المسلمون بأعناقهم عن سنة نبيهم ، وضربوا فى شعاب الجدل والبحث وأثاروا فى أفق الاسلام غبارا لايزال يخنق ، ولايزال يرمى بالضحايا .

عن أمامة . قال : قال .. رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتو الجدل . » رواه الترمذى .

وعن عمر بن شعيب ، عن أبيه عن جده . قال : خرج رسول الله صلوات الله عليه . على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون فى القدر ! فخرج مغضباً حتى وقف عليهم . فقال . ياقوم بهذا ضلت الأمم قبلكم ! باختلافهم على أنبيائهم . وضربهم الكتاب بعضه ببعض . وأن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا . ماعرفتم منه فاعملوا ، وما تشابه فآمنوا به . رواه مسلم .

وعن أبى هريرة . قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال . أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا .

وعن أبى الدرداء وأبى أمامه وأنس بن مالك قالوا . خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى شىء من الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ، ثم انتهرنا وقال . ياأمة محمد . لا تهيجوا على أنفسكم ثم قال . أبهذا أمرتكم . أوليس عن هذا نهيتكم . إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ذلك هو البيان الذى لا بيان بعده ، لا تضرب آيات القرآن بعضها

ببعض ، جدلا وعناداً ، وانما عمل بما تعرف ، وايمان بما تشابه ، فلا تنازع يعقبه الفشل ، ولا تخاصم وتنابز و بغضاء تورث الهلاك ، ولا يهيج المسلم على نفسه غضبا من الله ، بذلك اللحن البغيض ، من القول المسموم .

هكذا كان محمد صلوات الله عليه ، وصحبه رضوان الله عليهم . حتى فتحت علينا فرق الجدل وعلماء النظر ، وأئمة الكلام . أبواب هذا الجحيم .

جاء فى كتاب « أعلام الموقعين » وقد تنازع الصحابة فى كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة ايمانا . ولكن بحمد الله ، لم يتنازعوا فى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال . بل كلهم على اثبات ما نطق به الكتاب والسنة . كلمة واحدة ، من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلا ، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا . ولم يبدوا لشىء فيها ابطالا ، ولا ضربوا لها أمثالا ، ولم يدفعوا فى صدورها واعجازها ، تلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالايمان والتعظيم .

صفات الله تعالى

جاء القرآن الكريم ، بكثير من صفات الله سبحانه وتعالى ، تقف لديها العقول ، كقوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » « كل شىء هالك إلا وجهه » « لما خلقت بيدى » « والسماء بنيناها بأيد » « ثم استوى على العرش » .

وجاءت الأحاديث النبوية الصحيحة بالكثير أيضاً من تلك الصفات التى توهم العقول الضعيفة التجسيم والتشبيه ، كقوله صلوات الله عليه ، كما جاء

فى الصحيحين « لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض » .

وقد فهم الصدر الأول رضوان الله عليهم ، بأن كل هذه الصفات حق ، لأن الله سبحانه كما سمى نفسه . وكما وصف نفسه . والقاعدة التى احتكموا اليها « ليس كمثله شىء » لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله . فكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً أو مشابهة ، فان الله سبحانه منزه عنه لأنه تعالى مستحق للكمال الذى لا غاية فوقه .

وقد علم الرسول صلوات الله عليه ، ما يساور النفوس من وسوسة والقاء بسوء ، فقفل باب الجدل والتأويل والبحث والنظر فى هذه الصفات ومدلولاتها ، فأوصى أصحابه بقوله «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا» وفى رواية أخرى « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله» .

تلك وصية امامنا الأعظم صلوات الله عليه . ومع هذا فقد أراق المسلمون من المداد حول صفات الذات ، وحول التجسيم والتنزيه وما إلى التجسيم والتشبيه والتنزيه من صفات ونعوت . طوفانا أغرق الأمة الاسلامية ، وما نظفت أثوابها بعد من سواده ، ولا طهرت من آثاره .

فقد شهد العراق والشام والحجاز ، صياحا من الشيعة والرافضة ، بأن اليد والجسم والأعضاء التى وردت فى القرآن لله سبحانه وتعالى ، هى نعوت حقيقة لأعضاء جسدية ربانية ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وشهدت العواصم الاسلامية ، بل والقرى والكفور ، بعض رجال الحديث يقولون « ان الله سبحانه ينزل إلى السماء الأولى فى ليلة النصف

من شعبان ، كنزول من ينزل من السلم من درجة إلى درجة [1].

وجاء المعتزلة ، فتنادوا بتنزيه الله سبحانه عن تلك الصفات وأخذوا يصرفون كل ما يفيد التجسيم إلى المعنويات ، أو إلى صفات أخرى تليق فى زعمهم بالله سبحانه ، كقولهم ، الاستواء على العرش ، بمعنى الاستيلاء . واليد بمعنى القدرة ، وهكذا .

أو كما يقول محيى الدين « إن المعتزلة بل والأشاعرة أيضا ، تخيلت أنها لما تأولت قد خرجت من التشبيه الذى تعيبه على المجسمة ، وهى ما فارقته إلا أنها انتقلت من التشبيه بالأجسام إلى التشبيه بالمعانى ، المحدثة المفارقة للنعوت القديمة فى الحقيقة والحد . »

وجاء ابن عربى ، والجدل فى عنفوانه والخوار مستعر الأوار فى العالم الإسلامى ، بين شتيت الفرق والمذاهب ، حول صفات الذات ، بين المجسمة والمشبهة ، والمنزهة ، فأرسل صيحة جبارة ببطلان كل هذه الآراء ، وخروجها عن صراط الدين السوى المستقيم ، و بضرورة الرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح من إيمان وتسليم بكل ما ورد فى القرآن كما ورد ، وكما وصفه الله سبحانه ، لأن المجسمة قد ألحدوا ، إذا أثبتوا لله سبحانه صفات كصفات البشر تفيد المشابهة ، وهو تعالى . ليس كمثله شىء .

والمنزهة من المعتزلة والأشاعرة ، قد أولوا تلك الصفات ، وحملوها معان ارتضتها عقولهم ، فنجوا من التشبيه المجسد ليقعوا فى التشبيه المعنوى ، ثم هذه الصفات المعنوية التى ابتدعوها ، أليس من الجائز ، أن تكون خاطئة ، والعقل يصيب و يخطى فإذا كانت خاطئة ، فقد نسبوا لله تعالى ما لم يقله .

---

(١) ينسب هذا القول إلى الامام ابن تيمية

يقول محيي الدين « اعلم أن الخير كله فى الإيمان بما أنزل الله ، والشر كله فى التأويل فمن أول فقد أحرج إيمانه ، وما كان ينبغى له ذلك ، وفى الحديث » كذبنى عبدى ، وما كان ينبغى له ذلك « فلا بد أن يسئل كل مؤل عما أوله يوم القيامة ، ويقول له تعالى . كيف أضيف إلى نفسى شيئاً فتنزهنى عنه ، وترجح عقلك على إيمانك ، وترجح نظرك على علم ربك ، فاحذر يا أخى أن تنزه ربك عن أمر أضافه إلى نفسه على ألسنة رسله ، فإن العقل يخطئ فى الإلهيات فلا يعول عليه . ثم يقول : ومن العجيب أن الإنسان يعتمد على عقله فى أن يقلد ربه صفات ، ولا يأخذ بما أخبر عن نفسه تعالى فى كتابه وسنة نبيه ، فهذا من أعجب ما طرأ فى العالم من الغلط وكل صاحب فكر أو تأويل فهو تحت هذا الغلط بلاشك .

ومن العجب . أن الله تعالى يخبر بشىء عن نفسه فى كتابه المحكم . فيأتى الإنسان بعقله القاصر صاحب الآفات والعلل ، فيقول إن عقلى يرد ذلك ؟ وفكرى لا يحتمل ذلك ؟ وإنما يجب التأويل أليس قبول ما أخبر به الله عن نفسه ، أولى من قبوله من فكره ، وأليس عاقبة هذا التأويل المعتمد على الفكر والعقل أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالقاً غير ما فى كتاب الله . »

ويتابع محيي الدين حملته القوية على المعتزلة فيقول ناصحاً وموجهاً « اعلم أن من الأدب عدم تأويل آيات الصفات ووجوب الايمان بها مع عدم الكيف كما جاءت ، فإنا لا ندرى إذا أولنا على ذلك التأويل مراد الله فنعتمد عليه ، أم ليس هو بمراد له فيرده علينا . فلهذا التزمنا التسليم فى كل

ما لم يكن عندنا فيه علم من الله تعالى ، فإذا قيل لنا كيف يعجب ربنا ، أو كيف يفرح مثلا، أو كيف يغضب ، كما ورد فى القرآن والأحاديث ، قلنا إنا مؤمنون بما جاء من عند الله على مراد الله ، وإنا مؤمنون بما جاء من عند رسول الله على مراد رسول الله ، ونكل علم الكيف فى ذلك كله إلى الله وإلى رسوله ، وهذه كانت طريقة السلف ، فلا تأويل ولا تجسيم ولا تشبيه ، وإنما ليس كمثله شيء » .

ثم يقول « اعلم أن جميع ما وصف الحق تعالى به نفسه من خلق واحياء وإماتة ، ومنع وعطاء ، ومكر واستهزاء ، وفرح وتعجب وغضب ورضا وتبشبش وقدم ويد وعين وأعين ، وغير ذلك ، كله نعت صحيح لربنا فإننا ما وصفناه به من عند أنفسنا ، وإنما هو تعالى الذى وصف بذلك نفسه على ألسنة رسله قبل وجودنا ، وهو تعالى الصادق وهم الصادقون بالأدلة العقلية ، ولكن ذلك على حد ما يعلمه سبحانه وتعالى ، وعلى حد ما تقبله ذاته ، وما يليق بجلاله ، لا يجوز لنا رد شيء من ذلك، ولا تكييفه ولا نقول بنسبته إلى الله . إلا على الوجه الذى أراده . وعلى غير الوجه الذى ينسبه إلينا ، ونعوذ بالله أن نضيف ذلك إلى الله على حد علمنا نحن به ، فإنا جاهلون بذاته فى هذه الدار ، وفى الآخرة لا ندرى كيف الحال .

وما جنح صاحب العقل إلى التأويل إلا لينصر جانب العقل والفكر على جانب الإيمان . فإنه ما أول حتى توقف عقله فى القبول . فكأنه فى حال تصديقه لله غير مصدق له ، فإيمانه فى حال تأويله إنما هو إيمان بما أول ، لا بما أتى به الخبر . »

صفات الله عند العارفين

يقول محيي الدين . أن العقلاء وأصحاب الأفكار اختلفت مقالاتهم فى الله تعالى على قدر نظرهم ، فالله الذى يعبد بالعقل مجردا عن الإيمان ، كأنه ، بل هو إله موضوع ، بحسب ماأعطاه نظر ذلك العقل ، فاختلفت حقيقته بالنظر إلى كل عقل ، وتفاوتت العقول ، وكل طائفة من أهل العقول تجهل الأخرى بالله ، وإن كانوا من النظار الاسلاميين المتأولين ، فكل طائفة تكفر الأخرى . والرسل من عهد آدم إلى محمد عليه السلام ما نقل عنهم اختلاف فيما ينسبونه إلى الله من النعوت . بل كلهم على لسان واحد فى ذلك ، والكتب التى جاؤا بها ، كلها تنطق فى حق الله بلسان واحد ما اختلف فيها اثنان . بل يصدق بعضهم بعضا مع طول الأزمان وعدم الاجتماع .

وكذلك المؤمنون بهم على بصيرة ، فهم المسلمون المصدقون الذين لم يدخلوا نفوسهم فى تأويل ، فهم أحد رجلين . أما رجل آمن وسلم ، وجعل علم ذلك إليه ، إلى أن مات وهو المقلد ، وأما رجل عمل بما علم من فروع الأحكام واعتقد الإيمان بماجاء به الرسل ، فكشف الله عن بصيرته وصيره ذا بصيرة فى شأنه كما فعل نبيه عليه السلام وأهل عنايته ، فكاشف وأبصر ودعا إلى الله على بصيرة ، كما قال فى حق نبيه صلوات الله عليه مخبرا .

« أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » وهؤلاء هم العلماء بالله العارفون وإن لم يكونوا رسلا ولا أنبياء ، فهم على بينة من ربهم فى علمهم به . وبما جاء من عنده ، وكذلك وصف نفسه بكثير من صفات المخلوقين من المجيء والاتيان ، والغضب والفرح ، والتجلى للأشياء ، والوجه واليد ، والرضى والكراهة فى كل خبر صحيح ورد فى كتاب أو سنة نبيه والأخبار أكثر من أن تحصى . مما لا يقبلها إلا مؤمن بها من غير تأويل ، أو بعض أرباب النظر من المؤمنين ، بتأويل اضطره إليه إيمانه .

فانظر مرتبة المؤمن ما أعزها ، ومرتبة أهل الكشف ما أعظمها حيث لحق أصحابها بالرسل والأنبياء ، فيما اختصوا به من العلم الآلهى الذى لا يدخله الشك ولا الريب ، لأن العلماء ورثة الأنبياء وما ورثوا دينارا ولا درهما بل ورثوا العلم بقوله صلى الله عليه وسلم « إنما نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » .

العقل لا يدرك الله

فإذا أوضح لنا محي الدين مكانة العلماء العارفين بالله الذين يؤمنون بربهم إيمانا يقينيا لا يعرف الشك ولا التأيل ، أخذ يحدد وظائف العقل البشرى ، ثم أوضح أنه لا يستطيع إدراك صفات الله تعالى وما يتعلق بها لأنه لا مشاركة بينه وبين خالقه . فقال :

« والعقل البشرى لا يدرك الله تعالى ، لأن العقل البشرى يعلم أو يدرك ما بينه مشاركة فى النوع أو الجنس أو الطبيعة . وإنما يدرك الله

بالقلب والكشف والوحى ، فانظر إلى ما وصف الله به نفسه فى كتابه تعرف لباب التوحيد .

ثم يقول « لقد نظرنا بقوة العقل ، وما أعطاه العقل الكامل ، بعد جده واجتهاده الممكن ، فلم نصل إلى المعرفة به سبحانه إلا بالعجز عن معرفته ، لأنا طلبنا أن نعرفه كما نطلب معرفة الأشياء كلها من جهة الحقيقة التى الأشياء عليها ، فما عرفنا إلا أن ثم موجودا ليس له مثل ولا يتصور فى الذهن ولا يدرك ، فكيف يضبطه العقل ؟ وهذا مما لا يجوز مع ثبوت العلم بوجوده ، فنحن عالمون بالوجود وهو العلم الذى طلب منا ، ولما كان تعالى لا يشبه شيئا من المخلوقات ولا يشبهه شىء منها ، كان الواجب علينا أولا كما قيل لنا « فاعلموا أنه لا إله إلا الله » ان نعلم ما العلم ، قال صلوات الله عليه « ان الله احتجب عن الأبصار ، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم » فاخبر صلى الله عليه وسلم ، إن العقل لم يدركه بفكره ولا بعين بصيرته كما لم يدركه البصر .

هكذا فليكن التنزيه ونفى المماثلة والتشبيه ، وما ضل من ضل من المشبهة إلا بالتأويل ، وحمل ما وردت به الآيات والأخبار على ما يسبق منها إلى الافهام من غير نظر فيما يجب لله تعالى من التنزيه ؛ فقادهم اعتمادهم على العقل إلى الجهل المحض والكفر الصراح ؛ ولو طلبوا السلامة وتركوا الآيات والأخبار على ما جاءت من غير عدول منهم فيها إلى شىء ألبته ووكلوا علم ذلك لله ورسوله ، وقالوا لا ندرى لكان يكفيهم قوله تعالى — ليس كمثله شىء — فمتى جاءهم حديث فيه تشبيه ، فقد أشبه الله شيئا وهو

سبحانه قد نفى التشبيه عن نفسه ، فما بقى إلا أن ذلك الخبر له وجه من وجوه التنزيه يعرفه الله تعالى ، فمن أول أو شبه ، فقد تعدى على الله سبحانه ، قال تعالى « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » وما قدروا الله حق قدره لما يسبق إلى العقول الضعيفة من التشبيه والتجسيم عند ورود الآيات والأخبار التى تعطى من وجه ما ، من وجوهها ذلك . ثم قال بعد هذا التنزيه الذى لا يعقله إلا العالمون . والأرض جميعا قبضته ، عرفنا من اللسان العربى أن يقال فلان فى قبضتى ، ويريد أنه تحت حكمى . وان كان ليس فى يدى منه شىء البته ، ولكن أمرى فيه ماض وحكمى عليه قاض ، مثل حكمى على ما ملكته حسا وقبضت عليه ، ومن ذلك أيضا التعجب والضحك والفرح والغضب . فالتعجب إنما يقع من موجود لا يعلم ذلك التعجب منه ثم يعلمه فيتعجب . وهذا محال على الله »

ذلك هو الفيصل فى معركة ، التشبيه والتنزيه ، بين المعتزلة والمجسدة ورجال الحديث ، الفيصل فى ذلك الجدل والحوار الذى شغل العالم الاسلامى فى القرن السادس ، حتى أوقدت نار الحرب بسببه فى ربوع الشام . وهو الرجوع إلى منهج الصحابة رضوان الله عليهم فى الصدر الأول فلا جدال ولا حوار ، وإنما إيمان بما جاء به القرآن على ما جاء ، ولله سبحانه صفات الكمال والاجلال وليس كمثله شىء ، فهو مخالف للحوادث وللصفات وللأفعال مخالفة مادية ومعنوية ، فلا تشبيه ولا تأويل للتنزيه ، فالتشبيه

كما يقول محى الدين « تثنية المشبه ، والتنزيه تحديد المنزه ، وكلاهما باطل لا يليق .

وبذلك أغلق محيي الدين بابا من أبواب جهنم ، فتح على العالم الإسلامى واطفأ خصاما ، طال مداه واشتد خطره ، وعاد بجمهرة الأمة من الجرى وراء هذه الأوهام ، إلى حقائق الدين الثابتة ، إلى الايمان والتسليم والانقياد لمنطق القرآن ، وسنة الرسول .

ومحي الدين ، يقول أن هذا هو حد الايمان الواجب على المؤمنين كافة أما من يريد بعد ذلك ، أو فوق ذلك فهما لما يراد من حقيقة صفات الله سبحانه ، فليس سبيله العقل والفكر ، وإنما هو الالهام من الله تعالى : يقول «فاذا خلع الله تعالى على عبده من علمه . أعلمه من طريق الالهام بمراده من تلك الآية أو الحديث ، وهو من علوم العارفين .

القضاء والقدر

وأفعال العباد

فاذا انتهى محيي الدين من صراعه مع الفرق الإسلامية المختلفة، حول صفات الذات والتشبيه والتنزيه والتأويل، انتقل إلى ميدان آخر من مشكلات الفكر، ومعضلاته، مشكلة القضاء والقدر — وخلق أفعال العبد ونصيبه من عمله. وهو ميدان لعب فيه التأويل والجدل والحوار أيضاً دوراً كبيراً خطيراً!.

ومسألة الكسب، اعترف رجال الأصول بأنها من أدق مسائلهم وأغمضها وأعصاها على الفكر والعقل، هل الإنسان مجبر على ما يفعل، مقدر له ما يكسب؟ وأذن فعلام الجزاء والعقاب؟ أم الإنسان مخير يصنع نفسه، ويخلق الحوادث، ويسهم في تكييف ما قدر له؟

وقد تلقف رجال الفكر والنظر، هذا الاشكال فداروا به حول عقولهم. ودارت عقولهم به فراحوا يشققون الاحاديث حوله ويبتدعون الحلول والاقاويل، ولكنهم ابدا يجدون أنفسهم، في حلقة مفرغة تأخذ باعناقهم، يبدؤن من حيث ينتهون. وينتهون من حيث يبدؤن. فما سلم لهم رأي ولا خلص لهم فكر.

هتف رجال الجبر بأن كل شيء من الله، والإنسان آلة مجبورة

مقصورة على ما تفعل ، لاأرادة لها ولا تصريف ، كالقلم فى يد الكاتب . والمنشار فى يد النجار ، وراحوا يضربون الأمثال للناس ، حتى إذا قيل لهم فكيف أذن يعاقب هذا المجبور المقهور على ما يفعل ، صمت منهم اللسان واغضوا الطرف حيرة وارتباكا .

وقالت المعتزلة هذا لا يليق ، لأن فيه نسبة الظلم إلى الله تعالى وهو سبحانه العادل الذى تسمو عدالته على الريب والظنون ، وابتدعوا لهذا شيئا عجبا ، هو أن القضاء والقدر معلق يقع عند العمل ، وأرادة الإنسان هي الحكم ، بين حدوث الفعل أو عدمه ، ولكن هل أغنى قولهم من الحق شيئا ؟ وهل أشفى النفوس من الريب والشكوك . وتلك النفوس تشهد بأن كل شيء لله ، ومن الله ، بهذا نطق القرآن ، وجاءت الأحاديث .

أما المتصوفة . فقد نهجوا مسلكا وسطا هو نهج السلف الصالح . كل شيء من الله ، هذا حق ، ولكن الإنسان مكلف . وهو لهذا يعاقب . وكل إنسان يسره خالقه لما خلق له فى علم الله الأزلى وهو لهذا محل للعقاب والثواب .

وبهذا لم يدور المتصوفة مع الجدل . ولم يركضوا عقولهم مع شبوة الحوار . بل سلموا الأمر لله مع الأدب . فما يصيب الإنسان من خير فمن الله . وما يصيبه من سوء فمن نفسه . التى علم الله خصائصها منذ الأزل . فيسرها لاستعدادها وطاقتها ، وما انطوت عليه .

آمن رجال التصوف بأن كل شيء من الله . وأنه خالق الأشياء

وخالق أسبابها . وأنه سبحانه يكون عند السبب وحاصله ونتيجته . وأن حكمة الله فوق عقولنا .

« عن جابر رضى الله عنه » قال : جاء سراقة بن جعشم ؛ فقال : يا رسول الله ؛ بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن ؛ فيم العمل الآن ؛ افيما جفت به الأقلام ؛ وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل ؛ قال : لا بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير ؛ قال : ففيم العمل، قال : أعملوا فكل ميسر لما خلق له ؛ وكل عامل بعمله ؛ أخرجه مسلم

وهذا هو القول الفصل ؛ والنبأ اليقين ؛ كل ميسر لما خلق له ، فى علم الله المحيط بالأشياء عند حدوثها وقبل وجودها

يقول الشعرانى رواية عن الشيخ طاهر الصوفى (هذه مسألة من تأملها وكرر النظر فيها علم غموض معانيها ، وصعوبة مراقيها ، وملخص الأمر أن من زعم أن لا عمل للعبد أصلا ، فقد عاند وجحد ، ومن زعم أنه مستبد بالعمل فقد أشرك ، وابتدع ، وما بقى مورد للتكليف ، إلا ما يجده العبد فى نفسه من الاختيار للعمل وعدمه)

ويقول محيى الدين : (إنما اضاف الله تعالى الأعمال إلينا ، لأننا محل الثواب والعقاب ، وهى لله حقيقة ، ولكن لما شهدنا الأعمال بارزة على أيدينا وادعيناها لنا أضافها تعالى إلينا بحسب دعوانا ، ابتلاء منه لأجل الدعوى ؛ ثم إذا كشف الله تعالى عن بصيرتنا رأينا الأفعال كلها لله تعالى ولم نر إلا حسنا ، فهو تعالى فاعل فينا ما نحن العاملون ، ثم مع هذا المشهد

العظيم لا بد من القيام بالأدب ، فما كان من حسن شرعا ، اضفناه إليه خلقا وإلينا محلا ، وما كان من سيء اضفناه إلينا بإضافة الله تعالى ، فنكون حاكين قول الله تعالى ، وحينئذن يرينا الله عز وجل وجه الحكمة فى ذلك المسمى سوءا ، فنراه حسنا ، من حيث الحكمة ، فيبدل الله سيآتنا حسنات تبديل حكم لا تبديل عين)

ذلك هو الأدب العالى فى التعبير ، وذلك هو اللائق بالمؤمن أن يسلم لله بكل شيء ، وأن يعلم فى الوقت نفسه بأنه خلق ليكون محلا لجريان الأحكام الآلهية بحسب الحكمة الآلهية ، فما كان حسنا فهو إلى الله ينسب وما كان سوءا ، أضفناه إلى أنفسنا محلا ، وإلى الله سبحانه خلقا ، ولو تأمل الإنسان قليلا لعرف الحكمة ولرأى الشيء الذى ظنه سيئا جميلا نافعا ، وحينئذن بفضل تسليمه وإيمانه يبدل الله سيئاته حسنات ، تبديل حكم لا تبديل عين وذلك هو الفضل العظيم ، وتلك حكمة لا يدركها إلا الرجال من عباد الرحمن

ثم يقول (أعلم أن الله تعالى ما أضاف الفعل إلى العبد ؛ إلا لكونه تعالى هو الفاعل حقية ، من خلف حجاب جسم العبد ؛ فلم يكن الفعل إلا لله تعالى ؛ غير أن من عباد الله من أشهده ذلك ومنهم من لم يشهده ذلك ؛ قال تعالى — فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ؛ فالقسم الذى هداه الله ؛ هو الذى حفظه من دعوى الفعل لنفسه حقيقة — وأما القسم الذى تحق عليه الضلالة ؛ فهو الذى حار ولم يدر ؛ وهم القائلون بالكسب وبخلق الأفعال

قال ابليس : يا رب كيف تقدر على عدم السجود لآدم ثم تؤاخذنى به : فقال جل وعلا ، متى علمت أنى قدرت عليك إلا بايةعن السجود، بعد إلا باية منك أم قبلها ؛ فقال بعدها : فقال ، و بذلك آخذتك)

ما يجرى فى الكون جفت به الأقلام ، هكذا يقول الرسول ، لأن كل ميسر لما خلق له بحسب علم الله القديم الأزلى ولا يظلم ربك أحدا .

بين الفلسفة والتصوف

إلتقى محيي الدين فى مطلع شبابه بابن رشد . فسأله ابن رشد ، هل القمة التى وصل إليها الفلاسفة بالعقل والفكر ، هى القمة التى وصل إليها المتصوفة ، بالتصفية والتجرد والذكر ؟ فقال له محيي الدين ، نعم ، ولا . وبين نعم ولا تطير الأرواح .

نعم ، لأن العقل ، قد يهدى إلى الله ، ويدرك ويلمس أسرار الكون وعجائبه . وآياته . ولكن العقل المجرد ، مع وصوله إلى تلك القمة ينحدر وينزلق ويضل فى المتشابهات ، ويضل فى تفهم ذات الله سبحانه ، فضلا عن ابتعاده عن التعبد والتطهر ، وتحلله من الكمالات الشرعية والعبادات الربانية أو كما يقول محيي الدين ، فى حديثه عن ابن رشد . كان بيننا حجاب رقيق ، فكنت أراه ولا يرانى .

والعقل المجرد ، ليس له من القيود ما يعصمه. من سبحاته ، التى تتطاير حول المعارف مع الريح فى شتى الاتجاهات والغايات . فتصيب حيناً وتخطأ أحياناً . ولهذا قال محيي الدين و بين نعم ولا تطير الأرواح (١) .

ولاجدال فى أن الفلسفة قد وثبت بالمعارف الانسانية والعلوم النظرية وثبات لها أثرها ومكانتها فى الفكر الانسانى ، ولكن الفلسفة قد ضلت

---

(١) يقول عوستاف لوبون آخر ماوصلت إليه الفلسفة أنه لاقدرة للعقل حتى الآن على فهم أسرار العالم

فى الالٰهيات ، لأن ما وراء الطبيعة من فوق مدارك العقل ولا أمان فيها إلا لطريق الوحى والالهام .

يقول الغزالى فى مقدمة كتابه « تهافت الفلاسفة » « ان الفلاسفة من عهد أرسطو إلى عهدنا هذا ، قد بنوا مذاهبهم فى الالٰهيات على ظن وتخمين ، من غير تحقيق ويقين ، ويستدلون على صدق علومهم الإلٰهية بظهور العلوم الحسابية والمنطقية ، ولو كانت علومهم الإلٰهية متقنة البراهين ، نقية من التخمين كعلومهم الحسابية والمنطقية ، لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا فى الحسابية والمنطقية » .

وهو قول صريح فى أن الفلسفة ، قد وصلت إلى معارف يقينية فى علوم الحياة . ولهذا اتفقت العقول على صحة هذه المعارف ولم تختلف فيها . وانما وقع الخطأ ، وإنما وقع الاختلاف فى علوم الالٰهيات وما وراء الطبيعة ، ولهذا لم يتفق الفلاسفة على رأى واحد فى تلك المعارف ، فبين أرسطو وأفلاطون على مابينهما من صلات وتلمذة ، خلاف ظاهر ملموس فى نظرتهم إلى حقيقة الخالق ، وحقيقة اتصاله وهيمنته على مخلوقاته ، وحقيقة صفاته وعلمه بالكليات والجزئيات والهامه للأصفياء من عباده والمختارين من رسله .

اختلفوا فى النهج والطريقة ، كما اختلف الفلاسفة قاطبة حول هذه المعرفة . بينما رجال الله من الأنبياء والرسل والأولياء والمتصوفة ، قد اتفقوا كما يقول محيى الدين من لدن آدم إلى يومنا ، على نهج واحد ، ودين واحد فى الايمان بالله ، وما يجب له وما يتصف به . « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا . والذى أوحينا اليك . وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى . أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

والتصوف هو بلاريب فلسفة الاسلام . والمتصوفة هم فلاسفة الاسلام بالتعريف المحمدى والحدود الربانية .

عرف الكندى الفلسفة : بأنها العلم بجميع الأشياء ، وعرفها الفارابى بأنها العلم بالموجودات بما هى موجودة ، وقال الشيرازى . ان الفلسفة استكمال النفس الانسانية بمعرفة حقائق الموجودات على ما هى عليها ، والحكم بوجودها تحقيقا بالبراهين ، لا أخذا بالظن والتقليد ، وأن شئت قلت نظم العالم نظما عقليا على حسب الطاقة البشرية لتحصل السعادة العظمى .

ويقول ابن سينا فى « فصل ماهية الحكمة » الحكمة صناعة نظر يستفيد منها الانسان تحصيل ما عليه الوجود كله فى نفسه ، وما الواجب عليه عمله ، مما ينبغى أن يكتسب فعله ، لتشرف بذلك نفسه وتستكمل ويصير عالما معقولا مضاهيا للعالم الموجود ، وتستعد نفسه للسعادة القصوى ، وذلك بحسب الطاقة البشرية .

فالفلسفة إذن كما عرفها الفلاسفة . هى علم العلوم . أو العلم الجامع المحيط ، أو العلم الذى يفلسف المعارف ، أو العلم الذى يبحث فى حقائق الأشياء ، ويتلمس أسبابها وعللها ، لتستكمل النفس معارفها ، فتحصل على السعادة العظمى ، هذه هى تعريفات الفلسفة ، وهى بذاتها تعريفات التصوف ، وانما الخلاف فى النهج والطريقة .

فالفلاسفة ، يعتمدون على عقولهم وأفكارهم ، ويؤمنون بالتصفية والتجرد ، بل لقد جعل أفلاطين وفلاسفة مدرسة الاسكندرية ، التجرد

والتصفية أساساً لمعارفهم وفلسفتهم ، والفلسفة الاشراقية بأسرها تقوم على التجرد والتصفية.

وهى قربى واضحة للتصوف ، واعتراف صريح بطريقته ومنهجه ، وانما التصوف الاسلامى يمتاز باعتماده على الدين والوحى ، واستمداد معارفه فى الالهيات من الدين وما أتى به الوحى . ولهذا سلمت فلسفته من الخطأ فى الإلهيات ، فامتاز بأنه الفلسفة العلمية الوحيدة التى ظفرت بالمعارف وآمنت فى الالهيات ، بينما ضل وأخطأ سواها .

ولسنا نأتى ببدع من القول ، إذ نقول أن التصوف هو الفلسفة الكاملة المبرأة من الخطأ والضلال ، وأن المتصوفة ، هم فلاسفة الاسلام بمعنى الفلسفة الاسلامية الكاملة ، فأهداف الفلسفة كلها تنطوى تحت أجنحة المتصوفة ، ولهم بعد ذلك الصفاء والطاعة، والسجدات المؤمنة فى محاريب الرضا والمحبة -

يقول مصطفى بن عبد الله جلبى — المشهور باسم حاجى خليفة — فى كتاب : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .

« وأما حكمة الاشراق فهى من العلوم الفلسفية بمنزلة التصوف من العلوم الاسلامية . كما أن الحكمة الطبيعية والالهية منها بمنزلة علم الكلام فيها . وبيان ذلك أن السعادة العظمى والمرتبة العليا للنفس الناطقة ، هي معرفة الصانع بما له من صفات الكمال والتنزه عن النقصان . وبما صدر عنه من الآثار والأفعال فى النشأة الأولى والآخرة ، وبالجملة معرفة المبدأ والميعاد ، والطريق إلى هذه المعرفة من وجهين . أحدهما طريقة أهل النظر والاستدلال ، وثانيهما طريقة أهل الرياضة والمجاهدات . والسالكون للطريقة الأولى ،

ان التزموا ملة من ملل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم المتكلمون، والا فهم الحكماء المشاءون، والسالكون إلى الطريقة الثانية، إن وافقوا فى رياضتهم أحكام الشرع، فهم الصوفية. والا فهم الحكماء الاشراقيون »

ويقول ابن حزم فى كتابه — الفصل فى الملل والنحل — « الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود من تعلمها ؛ ليس هو شيأ غير إصلاح النفس بأن تستعمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها فى المعاد، وحسن سياستها للمنزل والرعية، وهذا نفسه لاغيره هو غرض الشريعة ».

ويقول ابن رشد فى كتابه — فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال — « وينبغى أن تعلم أن مقصود الشرع انما هو تعليم العلم الحق، والعمل الحق، والعلم الحق. هو معرفة الله تعالى ؛ وسائر الموجودات على ما هى عليه وبخاصة الشريفة منها. ومعرفة السعادة الأخروية، والشقاء الأخروى، والعمل الحق. هو امتثال الأفعال التى تقيد السعادة ؛ وتجنب الأفعال التى تقيد الشقاء ؛ والمعرفة بهذه الأفعال هو الذى يسمى العلم العملى — أى الفلسفة — ».

تلك هى الصلات بين الفلسفة والتصوف ؛ فغاية الفيلسوف أن ينجلى لعقله الكون بمعارفه وأسراره، وغاية الصوفى، أن تنزل على قلبه الهامات المعرفة العامة الشاملة عن طريق العبادة، والفيلسوف يرى أن هذه غاية الغايات، أما الصوفى فيرى غاية الغايات، رضا الله والفوز بلقائه، ونعيمه فى الآخرة.

ولقد تنبه لهذا التشابه فى الأهداف بعض رجال الاستشراق ؛ حتى

ان « ماسنيون » اعتبر الكندى والفارابى وابن سينا ، من متصوفة الاسلام

ولقد أصاب ماسينيون هنا واخطأ، أصاب إذ تنبه لأن التصوف تنطوى تحته المعارف الفلسفية كافة ، وأخطأ لأنه لم يتنبه إلى أن أساس التصوف وقوامه ، هو العبادة والصفاء والتمسك الكامل بالشريعة المحمدية وآدابها ومناهجها ، وهى الشريعة التى انحرف عن شروطها كثير من الفلاسفة ولا أبرؤ من هذا الانحراف الكندى والفارابى وابن سينا ، الذين جعلوا العقل الكامل فى مرتبة الوحى ، وجعلوا حجة العقل آية يحتكمون إليها حتى فى أحكام الاسلام ، وهو ما يبرأ منه التصوف وينكره ويحاربه .

ولقد تعرض المتصوفة للفلاسفة ، فى معارك متعددة دارت رحاها حول الالهيات ، وهي التى أخطأت فيها الفلسفة وضلت، لاعتمادها على العقل، وعدم تقيدها بالدين .

وتعرض بعض الفلاسفة للمتصوفة ، منكرين عليهم الزهد والاستغراق فى العبادة والنفور من الدنيا وتهوين شأنها ، واتخاذهم التطهر والتصفية والتجرد طريقاً للوصول إلى المعارف والعلوم النظرية والربانية ، ولكن الكثرة الغالبة من رجال الفلسفة لم تنكر التطهر والتجرد والتصفية كمعراج إلى العلوم ، وإنما قالوا ، إنه ليس بالطريق السلطانى المباح للناس .

يقول ابن رشد . وأما الصوفية فطرقهم فى النظر ليست طرقا نظرية أعنى مركبة من مقدمات وأقيسة ، وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات ، شيء يلقى فى النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية وإقبالها بالفكرة على المطلوب ، ويحتجون لتصحيح هذا بظواهر من الشرع

كقوله تعالى « واتقوا الله و يعلمكم الله » « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » «إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » وأشباه ذلك من الآيات التى يستدلون بها كثيرة ، ونحن نقول . إن هذه الطريقة وإن سلمنا وجودها ، فإنها ليست عامة للناس »

هذا ما يقوله ابن رشد وهو اعتراف كامل للمتصوفة بصحة النهج واعتراف كامل من رجل من أعلام الفلسفة الذين يؤمنون بالعقل والتجربة ، بأن التجرد والتصفية طريقا للعلم والمعرفة وهو ليس عاما للناس وليس معراجا لكل متعبد زاهد ، وما قال المتصوفة غير هذا .

والأبلغ من هذا فى الدلالة ، على صدق النهج الصوفى ، الذى يغمزه كثير من المتعالمين جهلا وطيشاً ، إن فلاسفة اليونان أنفسهم وهم أساتذة الفلسفة قد سلكوا إلى المعرفة نهجا صوفيا .

يقول طاش كبرى زاده فى كتابه « مفتاح السعادة » (ثم اعلم أن أفلاطون الحكيم كان يعلم بعضا من تلاميذه بطريق التصفية ، وأعمال الفكر الدائم فى جناب القدس ، وسموا بالاشراقين لأن فيوضاتهم كانت إشراقا نفسياً ، و بعضاً منهم بطريق البحث والنظر ، فسموا المشائين) .

وإذن فالفلسفة تؤيد التصوف فى أن التصفية والتجرد والتطهر ، يكسب الروح إشراقا تصل به إلى المعارف كافة .

وإذن فهناك قربى وثيقة بين التصوف والفلسفة ، إذا جردت الفلسفة من ضلالها فيما وراء الطبيعة ، لأنها اعتمدت على العقل دون الشرع فى فهم

الأنبياء ، وليس هذا للعقل ، وما ينبغي له أن يلج في معارج أعلى من طاقته ، ومن فوق إمكانياته وطبيعته .

يقول محيي الدين : اعلم أن الفلاسفة مازمت لمجرد ذلك الاسم ، وإنما هو لما أخطؤا فيه من العلم المتعلق بالالهيات . فإن معنى الفيلسوف . المحب للحكمة ، والحكمة غاية كل عاقل .

ثم يقول . إياك أن تبادر إلى إنكار مسألة قالها فيلسوف وتقول هذا مذهب الفلاسفة ، فإن هذا قول من لا تحصيل له ، إذ ليس كل ما قاله الفيلسوف يكون باطلا ، فعسى أن تكون تلك المسألة مما عنده من الحق ، وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتبا كثيرة مشحونة بالحكم والتبرى من الشهوات . ومكايد النفوس وما انطوت عليه من خفايا الضمائر . فكل ذلك علم صحيح موافق للشرائع . فلا تبادر يا أخي إلى الرد في مثل ذلك وتمهل واثبت قول ذلك الفيلسوف ، حتى تحد النظر ، فقد يكون ذلك حقاً موافقاً للشريعة » .

وتلك آية من آيات السماحة الفكرية التي يمتاز بها محيي الدين ، بل يمتاز بها كل رجال الحقائق وذلك هو موقف المتصوف المنصف من الفلسفة ، لا ينكر منها إلا ما أنكر الشرع ، ويقبل منها ما يقبله الشرع فميزان المتصوفة القسط الذي يزنون به كل ما يرد إليهم ، هو الشريعة ، وهو ميزان لا يضل صاحبه أبداً .

وعند محيي الدين ، أن الفلسفة كانت شريعة إدريس عليه السلام ، وإنها من المعارف السماوية ، وإنه أعمل فكره كثيراً ليصل إلى سرها أصابها

من ضلال فى المعانى الالهيـة فيقول « لقد دخلت الخلوة وعملت على الاطلاع على الحقيقة الادريسية ، فرأيت الخطأ إنما دخل على الفلاسفة من التأويل ، وذلك لأنهم أخذوا العلم عن أدريس عليـه السلام ، فلما رفع إلى السماء اختلفوا فى شريعته ، كما اختلف علمـاء شريعتنا فأحل هذا ما حرم ذلك و بالعكس ، ثم جرت بهم الأيام فارتكبوا هذه الأخطاء فى فهم الالهيات » .

وهى نظرة إلى الفلسفة ما أحسبها لغير محيى الدين ، وهى تحل أشكالا من مشاكل الفكر ، كيف نشأت الفلسفة ، وكيف تكونت علومها ، لقد كانت شريعة سماوية لإدريس عليه السلام ثم اختلف أتباعه بعد رفعه فى ميراثهم وتجادلوا وأولوا وحرفوا الكلم عن مواضعه ، فسلمت علوم النظر ، وتطرق الخطأ والضلال إلى علوم ما وراء الطبيعة .

ولهذا يرى محيى الدين أن ما سلم من علوم الفلسفة هو ميراث لكل صوفى ، لأنه من المعارف الصحيحة ، والمعارف الصحيحة ينالها المتصوفة بنهجهم التعبدى القائم على الطاعة والتجرد ، و بالفيوضات الربانية ، القائمة على المحبة والرضا .

والفلسفة الحقة ، غايتها الحكمة ، والحكمة ضالة كل مؤمن ، وهدف كل صوفى ، فالمتصوف الاسلامى ، هو صاحب العلم المحيط الشامل لجميع الحقائق ، هو الفيلسوف العالى ، الذى جمع المعارف كافة ، وتميز بإيمان يمشي فى مواكب الأنبياء ، وهدى الرسل ورضاء الله ومحبته .

مملكة التصوف

مملكة التصوف ، أو عالم الأنفاس ، مملكة أشبه بالأحلام الجميلة ، أو الأمانى الحلوة ، التى يتصورها الأصفياء من رجال الفكر ، عن العالم السعيد ، أو المدينة الفاضلة ، التى يعيش الخيال على ضفافها مرحاً طروباً فى آفاق من النور والأشراق . لامس فيها من ألم ، ولا لغوب فيها من شقاء . وإنما عبادة وذكر وصفاء ، وطهارة ومحبة وإخاء .

وتلك المملكة الروحية ، قد ينكرها الماديون ، الذين استعبدوا للحياة ذاتيتهم واتخذتهم مطايا لشهواتها ، وعبيداً لأباطيلها .

وقد يخاصمها الجهلاء الذين خدعتهم أنفسهم فظنوا بالصوفية ظن السوء ، حتى حسبوها هذه العمائم المكورة . واللحى المرسلة ، والمسابح ذات الهيجة والحركة .

وقد يسخر منها المتعالمون . الذين يرمون الصوفية بالزور من القول ، والإثم من اللحن ، فهم متهمون لديهم . تارة بالتحلل والانحلال ، وتارة بالضعف والهوان .

وقد يلمزها أهل السفسطة ، الذين يمضغون الحقد ، ويقتاتون بالموجدة ، والذين يتعبدون بالجدل ، ويعيشون فى محاريبه .

قد تنكرها تلك الطوائف ، ولكنها رغم أمانيهم ، مملكة مشرقة بالرحمة ، محلاة بالطهارة . سعيدة بالعبادة . منيرة بالمحبة . مؤمنة عابدة عن

يقين ومشاهدة . آملة بربها أبداً . متهجدة فى محاريبه تسمر وتتغنى بلحن أنسه . وأغاريد حمده . وآيات نعمه . وسبحات وجهه التى أشرقت بها السموات والأرض . انهم ليعيشون فى دنيا لانعرفها . دنيا أطلقت فيها الأرواح من قيودها وتحررت من أثقالها . فانطلقت ترفرف حول الملأ الأعلى . وتحوم حول العرش وسدرة المنتهى .

وسر الخطأ فى فهم التصوف . إنما نشأ من الإسراف فى تعظيم الدنيا واكبار متاعها وتضخيم لذائذها . لقد أكبروها وأجلوها حتى نسوا الآخرة ونسوا الله فأنساهم أنفسهم . وأقبلوا على الدنيا يركضون فتركبهم وأنساهم ما خلقوا له . فانطلقوا يرتعون ويتخاصمون ويتقاتلون على الفتات وسيف القدر فوق رؤوسهم . حتى غرقوا فى بحار الدم . واحترقوا بالشهوات وتقلبوا فى شقاء لاينفد .

أما الصوفية فحياتهم . كما قال حارثة الأنصارى فى الحديث المشهور . حينما سأله الرسول صلوات الله عليه . كيف أصبح ؟ « فقال . مؤمنا بالله حقا . فقال له أنظر . فان لكل قول حقيقة . قال . يارسول الله . عزفت نفسى عن الدنيا . فأسهرت ليلى . وأظمأت نهارى . فكأنى بعرش ربى بارزا . وكأنى أنظر إلى أهل الجنة . كيف يتزاورون فيها . وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها » .

فقال له صلوات الله وسلامه عليه : أبصرت فالزم .

كان الفتى الأنصارى يعيش فى الدنيا ولا يراها لهوانها . وضآلة شأنها وتافه متاعها . كان يعيش وعينه على عرش ربه ، وجلال خالقه ساجدا متعبدا ويحيا بقلب معرض عن الدنيا معلق بآخرته ، حتى لكأنه يرى عرش ربه

بارزاً . وحتى لكأنه يرى أهل النار وهم يتقلبون فى لظاها . وأهل الجنة وهم ينعمون برياها . وكذلك الصوفية ، يعيشون على نور اليقين والمشاهدة ، اقد أطلقوا الروح فى ساحات المحبة والمناجاة ، فظفرت أرواحهم بقوى عظمى مستمدة من الصفاء والرضا .

وإذا كانت الحضارة الحديثة ، قد ظفرت بفتوحات هائلة فى ميادين فلعمل والمادة ، فانتجت مصانعها عجائب الرادار ، وآيات الأثير والكهرباء ، تإن التصوفة ، قد ظفروا فى عالم الأرواح بفتوحات وفيوضات وقوى واسرار تضائل حيالها فتوحات المادة وفيض مصانعها

لقد ظفروا بفتوحات وفيوضات فتحت لهم ابواب السعادة والجنة . وسخرت لهم قوى المادة وعجائبها . وقوى الروح وأسرارها ، امتلأت أيديهم بتلك الكنوز فامتطوها المعارف والعلوم وأطلقوها للخير والسلام ، وأذاعوها للهدى والإيمان ، فلم يدمروا عمارا ، ولم يبثوا شقاء ، ولم يزرعوها لهبا ونارا .

ولمملكة التصوف ، أقسامها وأسرارها ، ومراتبها وحكامها ، وملوكها وأمراؤها وأولى الأمر فيها ، ولمملكة التصوف نظم ودساتير وآداب ومثل ، وحظوظ مقسمة ؛ وأرزاق موهوبة ؛ وتمارق مصفوفة ؛ وعجائب مبسوسة ؛ ومعارف لدنية وهبات ربانية ونفحات نبوية ومعارج سماوية وعجائب تذهل العقول ، ولكنها ترضى القلوب ، وفى رضاء القلوب نعيم الإيمان ورضاء الرحمن .

فلنتوجه بقلوب راضية صافية ، ولنسبح باسم العلى الكريم ، ولنتوكل عليه ، ثم لنمسك بمصباح محيى الدين وهو أقوى المصابيح الكاشفة لحقائق تلك المملكة وأسرارها . ثم لندخل معه إلى ساحاتها وعجائبها .

الكون الحى

هذا الوجود ، بل هذا الكون العجيب ، بسمواته وأرضه وإنسه وجنه ، وجماده ونباته ، وحروفه وكلماته ، عند ابن عربى ، صورة جميلة متماسكة تنتظمها روح عامة نابضة بالحركة ، مسبحة بالقدرة ، فليس فى الكون إلا حياة مشرقة ، منسقة مدبرة ، محددة مسخرة ، تجرى إلى ما قدرلها ، وخلقت من أجله .

والكون كله بما حوى ، عابد مسبح ، كل من فيه قد ألهم صلاته وتسبيحه ، كون منغم منعم ، بموسيقى ربانية أو كما يقول محى الدين ، « بالايقاع الإلهى والقول الربانى » الكون كله سماع لمن ألقى السمع ، ورفع عنه الغطاء . « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن . وإن من شىء ألا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

وإذا كانت أمواج الموسيقى السابحات فى الجو من محطاتنا الأرضية ، تمر بالأذن ولا تسمعها إلا بالجهاز المعد لها ، فكذلك تلك الموسيقى فى حاجة إلى محطات وأجهزة فى قلوبنا ، أجهزة لا تتفتح إلا بالذكر والتقوى ، وكم للذكر والتقوى ، من أسرار وأسرار .

كل شىء يقع تحت ابصارنا ، له حياته وله عباداته وله عجائبه وفنونه ، تحركه يد الخالق المدبرة الحاكمة ؛ التى أحسنت وأبدعت خلق كل شىء ؛ وأودعته ما شاءت وأرادت ؛ وكشفت مما أودعت لمن شاءت ومن أحبت .

ليست الحياة فى هذا الكون للملك والإنسان والجن والحيوان والنبات فحسب . بل الحياة لكل شىء . حتى تلك الجبال التى تحسبها جامدة وهى

تمر مر السحاب ؛ حتى تلك الأحجار منها ما يتفجر منه الماء ؛ وان منها لما يهبط من خشية الله ؛ ومنها ما يسبح بحمده ويذكر بآياته. يقول ابن عربى « إن آلة النجار . ربما تعلم أكثر مما يعلم الصانع بها . فانها حية عالمة بخالقها . مسبحة بحمد ربها عالمة بما خلقت له . فكل شيء في الطبيعة . قد أوحى اليه بما يراد منه » .

وهذه الحروف التى تكتبها لها أسرارها ودنياها : فهى أمة قائمة بذاتها لها صلاتها بالسماء والنجوم ؛ ولها مساس بالإنسان : وعلاقة برسالات الرسل والأنبياء .

ثم الكلمات أيضا ؛ أليس عيسى كلمة الله ؛ وأليست الكلمة الطيبة كالشجرة المباركة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ؛ فلا عجب إذا كانت أمة مسخرة ، طائعة وعابدة .

انه لعالم جميل أبدعته القوة الإلهية ؛ تعالت وجلت قدرة الله . عالم جميل عجيب ذلك الذى نعيش فيه ؛ لو نظرنا إليه بالقلب والروح ؛ ولو مزقنا عن أرواحنا أقنعة الشهوات وحجب الظلمات .

ان مكاشفات القلب ، لتدلف بنا إلى عوالم مسحورة جميلة محببة مؤمنة عاقلة تهتف بالإيمان وتنادى بقدرة الرحمن ، والى علوم وفنون من فيض القدرة الإلهية يهبها الله لمن يشاء ويعلمها من لدنه ، لمن اجتبى واصطفى ، انها مملكة التصوف ، وانها لدنيا الصوفية .

يقول محيي الدين : فاعلم أن فى الخبز والماء وجميع المطاعم والمشارب والملابس والمواكب والمجالس والزهر والثمر أرواحا لطيفة غريبة ، فيجب

إستجابة مودعة لما يراد منها ، هى سر حياتها وفيها تجلى من حب الله لعبده وعلو منزلته ، حتى سخر له ما فيه السعادة والعلم والبقاء .

وتلك الأرواح أمانة عند تلك الأشياء ، محبوسة فى تلك الصور حتى تؤديها إلى هذا الروح الإنسانى . التى قدرت له . ورجال الله . الذين كشف الله عن أبصارهم . تناديهم أحجار الأرض ونباتاتها . بمنافعها ومضارها » .

ولأسماء الله الحسنى أيضاً سرها وأثرها فى حياة الإنسان والكون . أو كما يقول محيى الدين ، هى المؤثرة فى هذا العالم ، وهى المفاتيح الأولى التى لا يعلمها إلا هو ، وأن لكل حقيقة اسماً يخصها من هذه الأسماء .

فأمهات الأسماء ، هى : الحى . العالم . المريد . القادر . القائل . الجواد . المقسط . وهذه الأسماء من الاسمين المدبر والمفصل . فالحى يثبت وجودك ، والعالم يثبت أحكامك فى وجودك ، وقبل وجودك يثبت تقديرك ، والمريد يثبت اختصاصك ، والقادر يثبت عدمك . والقائل يثبت كلامك . والجواد يثبت ايجادك ، والمقسط يثبت مرتبتك ، فهذه حقائق لابد من وجودها ، فلابد من أسمائها التى هى أربابها .

وهكذا لكل اسم من أسماء الله الحسنى ، أثر فى الكون يقوم به ، فأسماء الله تعالى ، هى سر هذا الكون ، وهى التى تقوم بها الأشياء ! ولكل اسم سره فى العبادة التى لو لمسها المريد لظفر بالخير وتربت يداه بالبركات والنعم والهبات

وهكذا يطوف ابن عربى بك مملكة التصوف ، عارضا عليك أسرار الحروف ، وأسرار الكلمات ، وأسرار أسماء الله الحسنى وأسرار النجوم والكواكب والجبال والبحار والأنهار ، والنباتات والمعادن وخصائصها وأسرارها ، وما أودع الله فيها من قوى ، ومرتبها وتحولها من أدنى إلى أعلى ، وتقلبها فى الصور ومنافعها للانسان ، حتى إذا ملأ مسامع الدنيا بهذه العلوم ! أخذ يتحدث عن مراتب أهل الله ! وأقسام عالم الأنفاس

أقسام المتصوفة

يقول ابن عربى « واعلم أن رجال الله فى هذه الطريقة ، هم المسمون بعالم الأنفاس ، وهو اسم يعم جميعهم ، وهم على طبقات كثيرة ، وأحوال مختلفـــة ، فمنهم من تجمع له الحالات كلها والطبقات ومنهم من يحصل ماشاء الله ، وما من طبقة إلا ولها لقب خاص من أهل الأحوال والمقامات ، التى يظهرون عليها فى قوله تعالى « ومعارج عليها يظهرون » كل طائفة فى جنسها ، ومنهم من يحصره عدد فى كل زمان ومكان ، ومنهم من لاعدد له لازما فيقلون ويكثرون .

ولأهل الأنفاس ، مراتب من حيث النظر إلى الذات العلية ، وتختلف حظوظهم باختلاف مراتبهم ، فمنهم من حظه من النظر لذة عقله ! ومنهم من حظه من ذلك لذة نفسية ، ومنهم من حظه من ذلك لذة حسية ، ومنهم من حظه من ذلك لذة خيالية ، وهكذا ثم تخلع عليهم خلع إلهية أورثها النظر إليه سبحانه ثم يفاض عليهم من نور الربوبية ما يكسبهم البهاء والجلال .

الأقطاب ، والأئمة والابدال

ثم يقول ابن عربى : ومن رجال الأنفاس الأقطاب ، وهم الجامعون للأحوال والمقامات بالاصالة أوالنيابة ، ولا يكون منهم فى الزمان إلا واحد ، وهو الغوث أيضاً ، وهو سيد الجماعة فى زمانه.

ومنهم من يكون ظاهر الحكم فيحوز الخلافة الظاهرة كما حاز الخلافة الباطنة من جهة المقام كأبي بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز والمتوكل ، ومنهم من حاز الخلافة الباطنية خاصة ؛ ولاحكم له فى الظاهر ، كأحمد بن هارون الرشيد والسبتى والبسطامى ، وأكثر الأقطاب ؛ لاحكم لهم فى الظاهر

ومنهم الأئمة ، ولا يزيدون فى كل زمان عن اثنين لا ثالث لهما ، وهما اللذان يخلفان القطب إذا مات وهما للقطب بمنزلة الوزيرين

ومنهم الأوتاد ، وهم أربعة فى كل زمان لايزيدون ولاينقصون ، وقد يكون منهم النساء ؛ ولكن يغلب عليهم الرجال

ومنهم الابدال : وعددهم سبعة لايزيدون أيضا ولا ينقصون ، كل واحد منهم على قدم نبى فالأول على قدم الخليل ؛ ثم الكليم ثم هارون ثم ادريس ، ثم يوسف ، ثم عيسى ، ثم آدم عليهم السلام

وهؤلاء يعلمون علم الكواكب وأسرار سيرها ونزولها فى المنازل المقدرة لها ، وقد كان الابدال بهذه المكانة بالأمور الأربعة التى اشترطها أبوطالب المكى وهى : الجوع والسهر والصمت والعزلة

ثم النقباء وهم اثنا عشر نقيبا فى كل زمان ومكان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد أبراج الفلك الاثنى عشر برجاً ، كل نقيب عالم بخاصة كل برج وبما أودع الله فيه من الأسرار والتأثيرات ، وبأيديهم علوم الشرائع المنزلة ولهم الاطلاع على خبايا النفوس ؛ وابليس عندهم مكشوف

يعلمون من أمره مالا يعلم من أمر نفسه ، ويعلمون أثر الاقدام ، فيقول هذا قدم شقى ؛ وهذا قدم سعيد

ومنهم النجباء : وهم أهل الكشف والاطلاع ، والحواريون ، ومقامهم التحدى والنجدة ، والرجبيون ولهم التجليات والكشوفات

ومنهم رجال الأنفاس : وهم أهل خشوع لا يتكلمون إلا همساً ، وهؤلاء هم المستورون الذين لا يعرفون ، خبأهم الحق سبحانه فى أرضه فلا يناجون سواه ، ولا يشهدون غيره ، يمشون على الأرض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، دأبهم الحياء ، إذا سمعوا أحداً يرفع صوته فى كلامه ترتعد فرائصهم ويتعجبون . وذلك لأنهم لغلبة الحال عليهم يتخيلون أن التجلى الذى أورث عندهم الخشوع والحياء يراه كل انسان ، ويرون أن الله قد أمر عباده أن يغضوا أصواتهم عند رسول الله صلوات الله عليه ، فاذا تلى حديث رسول الله لا يجب رفع الصوت عليه كما يجب الصمت عند تلاوة القرآن .

ومنهم الظاهرون ، وهم قسمان ظاهرون بأمر الله فى الدنيا قائمون بحقوقه ، تخرق العوائد لهم عادة ، وظاهرون فى العالم الأعلى لا يعرفون فى الدنيا ، وهؤلاء لا يرون سوى الله فى الأكوان والأكوان عندهم مظاهر الحق .

وهم أهل طبقات ومقامات وكل طبقة عاشقة لمقامها ، تذب عنه . ومن هؤلاء من هم فى مقامات لا يعرفها إلا من ذاقها ، لأنه يعرف عن مشاهدة ،

ومنهم أهل الفتوة : وهم رجال القوة الإلهية . آيتهم من كتاب الله « أشداء على الكفار » لاتأخذهم فى الحق لومة لائم .

ومنهم أهل الصفاء : وهم رجال الحنان والعطف الإلهي ؛ آيتهم من كتاب الله ، آية الريح السليمانية ، تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ؛ لهم شفقة على عباد الله مؤمنهم وكافرهم . ينظرون إلى الخلق بعين الجود »

وهكذا يعدد ابن عربى لنا المقامات والطبقات وهى مئات ومئات ، إلى أن يصل إلى طبقة الصوفية وهؤلاء لاعدد يحصرهم بل يكثرون ويقلون وهم أهل مكارم الأخلاق ، فكل من زاد فى خلقه عليك ، فقد زاد فى التصوف عليك

فاذا انتهى محيي الدين من هذا التقسيم أخذ يحدثنا عن ذروة أهل المملكة أو عالم الأنفاس وهم الملامتية ، وعن خاصة من هؤلاء الرجال ، وهم أهل الليل .

الملامتيـــة

وفى تلك المملكة، عباد لله سبحانه ، أدبهم وعلمهم واجتباهم ، وصان نفوسهم ، وطهر قلوبهم واصطفاهم لعبادته ، هم ذروة تلك المملكة ، وقد أسماهم محيى الدين «بالملامتية» وهم الذين حلوا من الولاية فى أقصى درجاتها ونهلوا من العلوم أصفى معانيها ، وما فوقهم فى تلك المعارج اللدنيـة إلا درجات النبوة ، ومقامهم يسمى مقام القربة ، وهو مقام الانشغال بالخالق عن الخلق ، وعلامتهم الاختفاء والانطواء ، فلا يعرفون بخرق عادة ، ولا يعظمون بين الناس ، ولا يشار إليهم بالصـلاح الذى تعرفه العامة . فهم الأصفياء الأمنـاء الأبرار أحباب الله ، يعرفهم الملأ الأعلى ويذكرون فى السماء ، وهم فى الناس الغامضون .

وهم الذين قال فيهم رسول الله صلوات الله عليه عن «ربه عز وجل» إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ؛ أحسن عبادة ربه ؛ وأطاعه فى السر والعلانية ؛ وكان غامضا فى الناس »

ومسألة الظهور فى الحياة ؛ وخوض عبابها ؛ والسيادة فى الدنيا ؛ وما إلى السيادة من أغراض وأهداف ؛ لمحى الدين فى كل هذه الأشياء ؛ رأى أوضحه ونادى به ؛ فهو يرى أن الجهر بالدعوة والسيادة فى الدنيا ؛ كمال للأنبياء . ونقص فى الأولياء

لأن الرسل صلوات الله عليهم ؛ مضطرون إلى الظهور والدعوة . لأجل التشريع والتبليغ . والأولياء ليس لهم ذلك ؛ ألا ترى أنه سبحانه ؛

لما أكمل الدين وأتم نعمته على الناس بالقرآن العظيم ؛ كيف أمر رسوله الأمين ؛ فى الصورة التى نعاه فيها إلى نفسه ؛ بالاستغفار والانقطاع إليه تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

أى أشغل نفسك بتنزيه ربك ، والثناء عليه بما هو أهله . فاقتطعه بهذا الأمر الربانى من العالم لنفسه ، لما أكمل ما أريد منه من تبليغ الرسالة وطالبه بالاستغفار ليسترده عن خلقه ، فى حجاب صونه ، لينفرد به دون خلقه دائما .

والأولياء الكمل السادة الأصفياء ، إذا تركوا وأنفسهم ، لم يختر أحد منهم الظهور أصلا لأنهم يعلمون أن الله تعالى ما خلقهم لأنفسهم ولا لأحد من خلقه . وإنما خلقهم له سبحانه . فشغلوا أنفسهم بما خلقوا له .

فإن أظهرهم الحق من غير اختيار منهم ، بأن يجعل فى قلوب الخلق تعظيمهم والالتفاف حولهم للتلقى من علومهم ، فذلك اليه سبحانه ، وما لهم فيه تعمل ولا قصد ، فلا اختيار لهم مع اختيار الحق سبحانه ، فإن خيرهم ولا بد ، اختاروا الستر عن الخلق والانقطاع إلى الله ، كما قيل لأبى اليزيد البسطامى ، حين خلع عليه بخلعة النيابة ، وقيل له اخرج إلى خلق ، فلم يسعه إلا امتثال أمر ربه فخطا خطوة فغشي عليه ، فإذ النداء ردوا على حبيبى ، فلا صبر له عنى .

لقد كان أبو اليزيد ، فانيا عن كل شيء مستغرق القلب والحس والروح فى النجوى والتفرغ الكامل لعبادة ربه ، فلما أخرج إلى الناس ، خشى أن يشغل لحظة من زمن عن عبادة ربه ، ونجوى خالقه فغشى نفسه من

هذا الخوف ما يشبه الصاعقة ، فرد رحمة به إلى مقام الفناء ، وهو مقامه ، وخلعت عليه خلع الذلة والافتقار والانكسار ، وهى أسمى الخلع ، فى عالم الأنفاس والهبات ، فطاب عيشه ، وسجد قلبه . ثم دنا واقترب . فظفر بالمشاهدة ، فزاد أنسه ، واستراح روحه من أعباء الأمانة .

يقول محيى الدين . ثم إن هذه الطائفة إنما نالوا هذه المرتبة عند الله . لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله ، أو تتعلق بسوى الله . فليس لهم جلوس إلا مع الله ، ولا حديث إلا مع الله فهم بالله قائمون . وفى الله ناظرون ، وإلى الله راحلون ومنقلبون ، وعن الله ناطقون ، ومن الله آخذون ، وعلى الله متوكلون ، وعند الله قاطنون ، فما لهم معروف سواه ولا مشهود إلا إياه ، صانوا نفوسهم عن نفوسهم فلا تعرفهم نفوسهم ؛ فهم ضنائن الحق سبحانه » .

ومن صفات هـذا المقام أيضاً عنده . أن صاحبه لا يرى لأحد من الناس ولا لقوة من قوى الخلق عليه سلطان ؛ وإبليس لديهم ذليل ضعيف « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » يقول محيى الدين .

فكل عبد إلهى توجه لأحد من الخلق ؛ أو يوجد عليـه لأحد من الناس حق ؛ فقد نقص من عبوديته لله بقدر ذلك الحق ؛ فإن ذلك المخلوق يطلبه بحقه ؛ وله عليه سلطان به ؛ فلا يكون عبداً محضاً خالصا لله تعالى ؛ وهذا هو الذى رجح عند المنقطعين إلى الله تعالى ؛ انقطاعهم عن الخلق ولزومهم السياحات والبرارى ؛ والسواحل والمجاهل ؛ والفرار من الناس ؛ والانقطاع إليـه تعالى ؛ حتى يفوزوا بمقام العبودية الكاملة ؛ وإنه لهو الفوز العظيم .

رجال الليـــل

الليل وقت الخلوة والجلوة، وقت الأنس والسمر، وقت الذكر والصفاء وقت التجلي والتحلي، وقت الشوق والأنين والحنين، والومضات والوثبات واللمحات.

ورجال الأنفاس، هم رجال الليل يضيئون ظلمته بنور الإيمان، ويملأون صمته بدعوات الرحمن، حتى إذا جاء وقت السحر، وما إدراك ما وقت السحر، تجلت الأرواح واستيقظت القلوب فتلقت من ربها ما تلقت، وتجملت وتحلت، وأذنت لربها وحقت، فلكل نصيبه المقدر، على قدر الهمة والطاقة، وعلى قدر الذكر والعبادة.

ولليل عند رجال الله مقام أي مقام، لأنهم نظروا إلى آيات الرضا؛ فوجدوا ثناء من الخالق سبحانه على الأصفياء الأخيار؛ الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع؛ والذين كانوا «قليلا من الليل ما يهجعون» فأقبلوا على الليل يقطعونه راكضين إلى ربهم؛ مهللين ومكبرين.

يقول محيي الدين كان عندنا بأشبيلية رجل عابد حسن الصوت كثير الاجتهاد سريع الدمعة دائم العبرة؛ كثير التفكر والتهجد؛ بت معه ليالي عدة؛ فلم يكن يفتر؛ فربما أسمعه بعض الأحايين ينشد بصوت طيب غرد ودموعه تنحدر على خديه.

قطع الليـل رجال ورجال وصـــلوه

رقدوا فيه أناس وأناس سهروه
لا يميلون إلى النو م ولا يستعذبوه
فكأن النوم شيء لم يكونوا يعرفوه
لبسوا ثوبا من الخد مة حتى خلعوه
مع جلباب من الحز ن فما أن نزعوه

لم تنم أعين ونامت عيون ؛ وهجع قوم وآخرون لا يهجعون ؛ لا يعرفون النوم ولا يستعذبونه ؛ حتى لكأن النوم شيء لا يعرفونه. فقد أسهدهم حب ووجد . وحزن وشوق . وتطلع إلى النور الأسنى والمقام الأعلى ؛ وتلهف على الرضا ؛ وتطلع إلى المشاهدة فى الخلوة والجلوة وأمل فى القرب والمغفرة.

وصلوات الله على الأمين الحبيب ؛ لقد قام الليل حبا وشكراً حتى أدميت قدماه ؛ وحتى أشفقت عليه عائشة رضوان الله عليها ؛ فرجته الرفق بنفسه ؛ والرحمة بشوقه ؛ قائلة « لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؛ فترفق .

فقال الحبيب الأمين . صلوات الله عليه . ياعائشة . الا أكون عبدا شكورا . ذلك هو مقام الشكر . والليل المقامات بأسرها . فان للانسان فى الليل سبحا طويلا . لمن اراد أن يذكر أو أراد شكورا. ويقول محيى الدين: « اعلم أيدك الله بروح القدس منه . أن الله جعل الليل لأهله . مثل الغيب لنفسه ؛ فكما لا يشهد أحد فعل الله فى خلقه لحجاب الغيب الذى أرسله دونهم ؛ كذلك لا يشهد أحد فعل أهل الليل مع الله فى عبادتهم لحجاب ظلمة الليل التى أرسلها الله دونهم ؛ فهم خير عصبة فى حق الله ؛

وهم شر فتية فى حق أنفسهم ؛ ليسوا بأنبياء تشريع لما ورد من إغلاق باب النبوة ؛ ولا يقال فى واحد منهم عندهم إنه ولى . لما فيه من المشاركة مع اسم الله ؛ فيقال فيهم أولياء ؛ ولا يقولون ذلك عن أنفسهم وإن بشروا . فجعل الليل لباسا لأهله يلبسونه فيسترهم هذا اللباس عن أعين الأغيار ، يتمتعون فى خلواتهم الليلية بحبيبهم . فيناجونه من غير رقيب . لأنه جعل النوم فى أعين الرقباء سباتا ، أى راحة لأهل الليل الهية ، كما هو راحة للناس طبيعية فاذا نام الناس استراح هؤلاء مع ربهم وخلوا به حسا ومعنى فيما يسألونه من قبول توبة وإجابة دعوة ومغفرة وغير ذلك . فنوم الناس راحة لهم ، وأن الله تعالى ينزل إليهم بالليل إلى السماء الدنيا ، فلا يبقى بينه وبينهم حجاب فلكى ، ونزوله إليهم رحمة بهم ، ويتجلى لهم فى سماء الدنيا كما ورد فى الخبر ، يقول الله كذب من ادعى محبتى ، فاذا جنه الليل نام عنى . كل محب يطلب الخلوة بحبيبه ، فها أناذا قد تجليت لعبادى . هل من داع فاستجيب له . هل من تائب فأتوب عليه . هل من مستغفر فاغفر له حتى ينصدع الفجر ، فأهل الليل هم الفائزون بهذه الحظوة فى هذه الخلوة ، وهذه المسامرة فى محاربهم ، فهم قائمون يتلون كلامه ويفتحون اسماعهم لما يقول لهم فى كلامه سبحانه .

إذا قال : يا أيها الناس . يقولون : نحن الناس ، فما تريد منا يا ربنا فى ندائك هذا ، فيقول لهم عز وجل على لسانهم بتلاوتهم كلامه الذى أنزله . اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم . ويقول يا أيها الناس ، فيقولون لبيك ربنا فيقول لهم ، اتقوا ربكم الذى جعل لكم الأرض فراشا

والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، فيقولون ربنا خاطبتنا فسمعنا وفهمتنا ففهمنا ، فيا ربنا وفقنا واستعملنا فيما طلبته منا من عبادتك وتقواك ، إذ لا حول لنا ولا قوة إلا بك . ومن نحن حتى تنزل إلينا من علو جلالك وتنادينا وتطلب منا ، فيقول يا أيها الناس ، فيقولون لبيك . فيقول : ان وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فيقولون يا ربنا اسمعتنا فسمعنا ، واعلمتنا فعلمنا فاعصمنا وتعطف علينا ، فالمنصور من نصرته ، والمؤيد من أيدته ، والمخذول من خذلته ، فيقول يا أيها الإنسان . فيقول الإنسان منهم لبيك يا رب ، فيقول ما غرك بربك الكريم ، فيقول كرمك ، فيقول صدقت . ويقول يا أيها الذين آمنوا ، فيقولون لبيك ، فيقول اتقوا الله حق تقاته ، وقولوا قولا سديدا فيقولون . وأى قول لنا إلا ما تقولنا ، وهل لمخلوق حول ولا قوة إلا بك . فاجعل نطقنا ذكراً وقولنا تلاوة كتابك . فيقول . يا أيها الذين آمنوا . فيقولون لبيك ربنا ، فيقول . عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، فيقولون ربنا اغريتنا بأنفسنا لما جعلتها محلا لإيمانك ، فقلت « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقلت « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » والآيات ليست مطلوبة إلا لما تدل عليه ، وأنت مدلولها ، فكأنك تقول فى قولك عليكم أنفسكم ، أى الزمونا وثابروا علينا » .

ذلك هم رجال الليل الذين يقطعونه استغفارا وذكرا . ذكرا بقرآنه الحكيم . وفى الحديث أن المصلى الحاضر القلب ، هو من يقف فى صلاته

عند التلاوة ، وهو يحس أن الله يسمعه ، أو يتلو ، وكأن الله سبحانه هو الذى يتلو على لسانه . لأن القرآن كلام الله تعالى .

وهكذا أهل الليل . يقرأون وكأنهم يستمعون إلى ربهم ، يكلمهم بقرآنه ، فكل آية عندهم سؤال وجواب ، وذلك لون من التذوق ، هبة من هبات الرحمن لأهل الليل ومقدار تلك الهبة إنما يعرفها من ذاق .

ثم يقول « وأهل الليل تختلف طبقاتهم فى ذلك ، فالزاهد حاله مع الله فى ليله من مقام زهده . والمتوكل حاله مع الله من مقام توكله ، وكذلك صاحب كل مقام ، ولكل مقام لسان هو الترجمان الالهى فيهم ، وهم لهذا متباينون فى المراتب بحسب الأحوال والمقامات ، وأقطاب أهل الليل هم أصحاب المعانى المجردة عن المواد المحسوسة والخيالية ، فهم واقفون مع الحق بالحق ، فيعطى كل من المعانى والمعارف والأسرار بحسب منازلهم ، فهؤلاء هم حكماء القلوب ، وسادة الرجال ، أهل الوفاء والصفاء والذكر والسمر ، فاذا ادعت لك نفسك أنك من أهل الليل . فانظر . هل لك قدم مع من ذكر ؟ .

أسرار الروح

فاذا طاف بنا محيي الدين على أقسام المتصوفة ، داخل مملكتهم العظمى أخذ يعرض ألوانا من عجائبها وأسرارها الروحية .

وللروح فى عالم التصوف المكان الأعلى والسر الأعظم . ولست أغالى إذا قلت . أن المذاهب الروحية العالمية ، رغم ما وصلت إليه من كشوف عميقة فى هذا الميدان ، لا تزال تحبو . ولا تزال فتوحاتها اقزاما بجوار الجبابرة الأئمة من رجال التصوف . الذين راضوا أرواحهم على نور من هداهم ، فتحكموا لا فى ذواتهم عند اليقظة والسجود ، بل فى منامهم وعند الهجود ، حتى ليوجهون كما يقول محيي الدين خواطرهم فى المنام إلى ما أرادو وأحبوا . ولمسوا أسرارها . وتنقلوا فى آفاقها ، سخرت لهم قوى الأرواح وما أدراك ما قواها . وما أدراك ما تجلى لهم .

تقول دائرة المعارف لوجدى بك « ان كل من اطلع على كتب محيي الدين ، وكان واقفا على مرامى الفلسفة الروحانية العصرية . تحقق أنه سبق كل متكلم فى هذه المعارف العالية فلا يقال الآن مهما علا وغلا إلا ما هو مقتبس من كلامه . أو صدر ممن هو منتسه إلى ما انتهى إليه » .

الاذاعات الروحية

ولنمسك مرة أخرى بمصباح محيي الدين ولنتقدم على نوره خطوات لنشاهد تلك المحطات الروحية التى تذيع الأنباء الصوفية على رجال المملكة .

ولرجال التصوف إذاعاتهم الخاصة التى تربط أجزاء مملكتهم بعضها ببعض ، والتى تنقل أخبارهم إلى مشارق الأرض ومغاربها .

ولا تعجب ؟ ولا يضرب الانكار على بصيرتك غشاوة فتسخر ! فلقد كشف الله سبحانه الغطاء عن عينى عمر بن الخطاب رضوان الله عليه . وهو على منبر المدينة يخطب أصحابه . فرأى سارية وجيش سارية وهو بنهاوند بأرض العراق . يقاتل خصوم الرحمن . وقد أحيط به ولا نجاة له إلا بأن يعتصم بجبل بجواره . فهتف عمر : يا سارية الجبل . فسمع سارية الصوت فى لمحة ، على بعد المسافة التى يقطعها الراحل المجد فى عشرات الأيام . وعرف أنه صوت عمر ، فالتجأ إلى الجبل فنجا وانتصر ؛ كيف أبصر عمر ؟ وكيف سمع سارية ، ذلك سر الروح . وذلك سر الايمان . وذلك فضل الله وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

يقول محيي الدين « ومن علوم الكشف أن أى واحد أو جماعة قلت أو كثرت . لابد أن يكون معهم من رجال الغيب واحد عند ما يتحدثون فذلك الواحد ينقل أخبارهم إلى العالم .

ولقد عملت أبياتا من الشعر بمقصورة ابن مثنى بشرقى جامع تونس -

عند صلاة العصر فى يوم معلوم معين ، فجئت أشبيلية و بينهما مسيرة ثلاثة أشهر للقافلة ، فاجتمع بى إنسان لا يعرفنى فانشدنى بحكم الاتفاق تلك الأبيات عينها . فقلت له لمن تلك الأبيات فقال ، لمحمد بن العربى فقلت له ومتى حفظتها ، فذكر لى التاريخ الذى عملتها فيه . فقلت له ومن أنشدك إياها . فقال كنت جالسا ليلة بسوق أشبيلية فى مجلس ، ومر بنا رجل غريب فأنشدنا هذه الأبيات ، فقلنا له لمن هى ، فقال . لفلان » :

تلك هى محطات إذاعاتهم القلبية والروحية ، لا اللاسلكية والأثيرية ولهم أيضا فى مملكتهم ما يشبه ما نسميه « بالتلفزيون » وهو تسجيل المرئيات وقيدها ، ثم حملها إلى أطراف الأرض ، على أجنحة الأثير فى لحظات إلى شتى الأماكن والاتجاهات .

ولا تعجب أيضا ، ولا يضرب الإنكار على عينى بصيرتك غشاوة فتسخر ، فلقد عرض المسجد الأقصى بأبوابه ومقاصيره وساحاته ، على الرسول صلوات الله عليه يوم حدث قومه بحديث الاسراء وأنه صلى بانرسل إماما فى المسجد الأقصى ، فأنكروا وتعجبوا ثم طلبوا منه صلوات الله عليه أن يصف لهم المسجد الأقصى بأبوابه وعلاماته ، فأطلعه الله سبحانه وتعالى عليه مشاهدة ، وما كان معجزة لنبي ، جاز أن يكون كرامة لولى .

يقول محى الدين « ولقد كنت بجامع العديس بأشبيلية يوما ، بعد صلاة العصر ، وشخص يذكر لى عن رجل كبير من أهل الطريق من أكابرهم ، اجتمع به فى خراسان فذكر لى فضله وعمله حتى اشتقت إليه

فإذا الشخص إلى عن قرب . والجماعة لا تراه ، فقال لى أنا هو هذا الشخص الذى يصفه لك هذا الرجل . فقلت للرجل المخبر ، هذا الرجل الذى رأيته بخراسان . أتعرف صفته . فقال نعم فقلت له اسمع فأخذت أصفه له . فقال هو والله ما تذكر ، فقلت له هو ذا جالس يصدقك عندى فيما تخبر به »

ولرجال تلك المملكة الرؤيا الصادقة كفلق الصبح المبين . ولهم أيضا رؤية الرسول صلوات الله عليه فى المنام وسؤاله وتلقى الجواب منه للتعليم والارشاد .

يقول محيى الدين « كنت متحيرا فى مسألة العدد وأقل الجمع فيه. فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامى . وأنا بين يديه ، وقد سألنى سائل وهو صلى الله عليه وسلم يسمع ، ما أقل العدد ؟ فقلت عند الفقهاء أثنان . وعند النحويين ثلاثة . فقال الرسول . اخطأ هؤلاء وهؤلاء ، فقلت كيف إذن أقول . قال ؛ أن العدد شفع ووتر ، يقول الله تعالى « والشفع والوتر » والكل عدد ، فميز ؟ ثم اخرج صلوات الله عليه خمسة دراهم بيده المباركة فرمى درهمين بمعزل . ورمى ثلاثة بمعزل . وقال . لى ينبغى لمن سئل عن هذه المسألة أن يقول للسائل . عن أى عدد تسأل ، عن العدد المسمى شفعا أم عن العدد المسمى وترا ، ثم وضع يده على الثلاثة ، وقال هذا أقل الجمع فى عدد الوتر ، وهذا أقل الجمع فى عدد الشفع ، فما رأيت أحسن منه معلما .

الأرواح بعد الموت

وإذا كان العلم الحديث ، يقص علينا أنباء استحضار الأرواح

ومناجاتها بعد الموت ، وإذا كان الروحانيون من العلماء يقولون أن هم صلات تنتج معرفة بتلك الأرواح ، فان المتصوفة داخل مملكتهم لا يحجب بعضهم عن بعض كما يقولون ، شبر من تراب ، كناية عن القبر.

روى البخارى « أن النبى صلوات الله عليه ، مر بحائط من حيطان مكة أو المدينة . فسمع صوت إنسانين يعذبان فى قبورهما . فقال النبى . إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير . ثم قال . بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله . وكان الآخر يمشى بالنميمة ، وزاد الإمام أحمد رضى الله عنه ولولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » .

لولا تمرغ القلوب البشرية ، فى أهواء الحياة وشهواتها لكشفت عنها الحجب فرأت من آيات ربها الكبرى ما فيه شفاء للموقنين ، وهدى ورحمة لكل من كان له قلب يعى ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

يقول محيى الدين فى حديثه عن منازل يوم السبت « إنى كنت يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة بمكة ، قد دخلت الطواف ، فرأيت رجلا حسن الهيئة له هيبة . وهو يطوف أمامى ، فجعلت بالى منه أن أعرفه فما عرفته ، ولم أر عليه علامة قادم من سفر ، لما كان عليه من الغضاضة والنضرة . ثم رأيته يمر بين الرجلين المتلاصقين فى الطواف فيمر بينهما ، ولا يفصلهما . فجعلت أتتبع بأقدامى أقدامه ما يرفع قدما إلا وضعت قدمى فى موضع قدمه وذهنى فيه وعينى معه لئلا يفوتنى ، فكنت أمر بالرجلين المتلاصقين اللذين يمر بينهما فى أثره فأجوزهما ولا أفصل بينهما ، فتعجبت من ذلك . فلما أكمل طوافه وأراد الخروج ، مسكته وسلمت عليه ، فتبسم لى ورد السلام

على . وأنا لا أصرف نظرى عنه مخافة أن يفوتنى، فانى ما شككت إنه روح متجسد ، وعلمت أن البصر يقيده ، فقلت له إنى لا أعلم أنك روح متجسد . فقال صدقت . فقلت له . فمن أنت يرحمك الله ، قال . « أنا السبتى» لابن هاوون الرشيد قلت له، أريد أن أسألك عن حال كنت عليه فى أيام حياتك فى الدنيا ، قال .قل . قلت له ، بلغنى أنك ما سميت السبتى إلا لكونك كنت تحترف كل سبت بقدرما تأكله فى بقية الأسبوع ،فقال الذى بلغك صحيح، فقلت له، فلم خصصت يوم السبت وحده دون سائر أيام الأسبوع، فقال بلغني، إن الله ابتدأ خلق العالم يوم الأحد، وأكمله يوم الجمعة فلما كان يوم السبت ، قال أنا الملك لى الملك . هذا بلغنى فى الأخبار ، وأنا فى الحياة الدنيا، فقلت والله لأعملن على هذا ، فتفرغت لعبادة الله من يوم الأحد إلى آخر الستة الأيام لا أشتغل بشىء إلا بعبادته تعالى ، وأقول . إن الله تعالى كما اعتنى بنا فى هذه الأيام الستة ، فأنا أتفرغ لعبادته . ولا أمزجها بشغل نفسى ، فاذا كان يوم السبت أتفرغ لنفسى وانظر ما يفوتها فى سائر الأسبوع .

وفتح الله لى فى ذلك ، فقلت له، من كان قطب الزمان فى حياتك الدنيا ، فقال أنا . قلت بذلك وقع التعريف . قال صدق من عرفك ثم قال عن أمرك. يريد المفارقة . فقلت له ذلك إليك، فسلم على سلام محب وانصرف ، فلما فارقته وكان بعض أصحابى مع الجماعة فى انتظارى ، لكونهم كانوا يقرأون علينا إحياء علوم الدين [1] ، فلما فرغت من ركعتى الطواف

(١) للامام الغزالى

وجئت إليهم ، قال لى بعضهم رأيناك تكلم رجلا غريباً ، حسن الوجه ما نعرفه، فمن هو ، ومتى جاء ، قلت هذا ليس لكم ».

هذه قطرة من عالم الروح لديهم ؛ ولسنا بمستطيعين أن نجمع بحار الأسرار فى قطرة فنظرة إلى ميسرة ؛ عسى الله أن يوفقنا فنخصص لها كتابا .

وتلك صورة مصغرة لمملكة المتصوفة، الذين يعيشون فى ظلال الهدى والرضا ، ويفتاتون بالأشواق والمحبة ، المتصوفة الذين أحالوا الوجود إلى منابر ومنائر تهتف بالذكر والايمان ، وإلى محاريب للركوع والسجود ، المتصوفة الذين يعيشون بيننا فى مملكة من صفاء ونور ، ابتدعوها لأنفسهم واعتصموا داخلها، من تلك الغابة المسلحة ، غابة الأحزان والهموم والبغضاء والدماء والشهوات .

و بعد فان لهم لعادتهم وتقاليدهم ورموزهم التى يعرفونها ، وأن لهم نورا يتميزون به وعطرا يعرفون بشذاه ، ولا يعرف الشذى ولا يبصر النور إلا رجال الشذى والنور .

محى الدين . والحب الالهى

الحب هو روح التصوف . وهو شعاره ودثاره ، والحال المشترك بين المتصوفة جميعا ، هو بداية البداية . كما أنه نهاية النهاية . وكأس المحبة لديهم تكمن فيها كل الأسرار والأنوار .

والحب عند المتصوفة ، لا يمكن تحديده ولا تعريفه ، ولا شرح حقائقه وإنما يحد باللفظ فقط ، ويعرف بالعرف والاصطلاح ، أو كما يقول محي الدين « من حد الحب ما عرفه ؟ ومن لم يذقه شربا ما عرفه ؟ ومن قال رويت منه ما عرفه ؟ فالحب شرب بلا رى ، قال بعض المحجوبين . شربت شربة فلم اظمأ بعدها أبدا ، فقال أبو اليزيد ، الرجل من يحسو البحار ، ولسانه خارج على صدره عن العطش » .

وهكذا هو الحب ، حنين متجدد ، وشوق مستمر ، وظمأ دائم لاحد له ولا غاية ، لأنه متجدد مع الأنفاس ، فالشوق لا نهاية له ، لأن أمر الحق لا نهاية له ، فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن وراء ذلك ما هو أتم وأوفى ، ويقول الإمام الغزالى « أن تبلغ الحالة تعرف ما هى » .

ولكل محب من هواه على قدر همته . أو على قدر موهبته . قال الشبلى . شربت أنا والحلاج من كأس واحدة . فصحوت وسكر ، فسلك كل منا طريقا .

ولقد استمد المتصوفة ، أصول هذا الحب من نور القرآن الكريم ،

فالقرآن لمن يتدبره هتاف حار بالمحبة الالهية ، ودعوة صريحة إلى بذل كل طيبات الحياة ، فى سبيل الفوز بمحبة الله.

ولقد كان الرسول صلوات الله عليه فى مناجاته لربه يسأله الحب ويسأله أن تكون قرة عينه فى الصلاة ، وهى أسمى مراتب الوصول والمحبة « اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلى . وخشيتك أخوف الأشياء عندى ، واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك . وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم . فأقرر عينى فى عبادتك »

وأى مرتبة تسمو إلى مرتبة الحب الالهى ، يخلو المحب إلى ربه فى محاريبه ، يسمر بطاعته ويضيء ليله بنور وجهه ، ويقطع نهاره بجميل ذكره . ثم تأتى النشوة الكبرى ، بالأنس والرضا .

قال الجنيد « أشرف المجالس وأعلاها ، الجلوس فى الخلوة ، والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد ، ثم قال يالها من مجالس ما أجلها ، ومن شراب ما ألذه ، طوبى لمن رزقه » .

يقول محيى الدين » جرت مسألة المحبة بمكة أيام الموسم فتكلم فيها الشيوخ ، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا له هات ما عندك يا عراقى ، فأطرق برأسه ودمعت عيناه ثم قال . عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ناظر اليه بقلبه . أحرق قلبه أنوار هيبته ، وصفى شربه من كأس وده . وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فمن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله»

ومحيي الدين يرى أن الحب سبب إيجاد العالم . ففي الحديث القدسي « كنت كنزاً لم أعرف ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، وتعرفت إليهم فبي عرفوني» فاخبر أن الحب كان سبب خلق العالم ، فالعالم بالحب خلق و بالحب يعيش، وقد خلقنا لنعبد الله « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » وهذا هو سر الحياة .

وما في الموجودات عند محيي الدين إلا محب ومحبوب ، حتى السالب والموجب وهما قوام الوجود ، حتى ذرات الطبيعة إنما يمسكها الحب أن تزول أو تحول ، ولولا تعشق النفس للجسم ما تم وجودها ، ولولا حب المعاني ، للكلمات ما امتزجا ولا عرفا .

فالعالم بأسره إنما يتنفس بالحب ويعيش له و به ، والكون كله يتحرك بحب موجده ومبدعه ، ولكن صور الحب خداعة ، اتخذت ألوانها البراقة حجباً ومظهراً لحقيقة مضمرة ، فما تنفس الحب في قلب إنسان على الحقيقة لغير خالقه . ولكنه احتجب بحجب الصور الدنيوية بحسب المشاكلة . احتجب في الجنس بصور ، زينب وهند وليلى . وفي الشهوات ، بحب الدرهم والدينار والجاه . وكل مرغوب محبوب من شهوات الحياة «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة » .

وللحب سببان ، الجمال وهو في علاه لله ، والاحسان ، وما ثم إحسان إلا منه . فان أحببت للاحسان فما أحببت في الحقيقة إلا الله فأنه المحسن وأن احببت للجمال . فما أحببت الا الله ، فإنه الجميل نور السموات والأرض .

ومحيي الدين ، يرى أن الحب ليس دعوى يلفظها اللسان ، ويتصورها الخيال . بل للحب آيات وشهود وشروط ، فيطلب إلى المحب . أن يمسك سمعه فلا يستمع إلا لكلام محبوبه . ويغض بصره عن كل منظور سوى وجه محبوبه . ويخرس لسانه عن كل كلام إلا عن ذكر محبوبه ، ويرمى على خزانة خياله فلا يتخيل سوى صورة محبوبة ؛ فبه يسمع ويبصر ويتكلم وفى الحديث القدسى «ماتقرب إلى عبدى بمثل إداء ما افترضت ؛ ولا يزال يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع الذى به وبصره الذى يبصر به » وإذا أحب الله العبد ؛ أوحى إلى الملك . أن ينادى فى السموات ؛ إن الله يحب فلانا ؛ فأحبوه فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول فى الأرض ؛ فتقبله البواطن ؛ وإن أنكرته الظواهر .

ثم يقول . واعلم أنه كما ازدادت المشاهدة ازداد الحب ؛ لأن الاشتياق يهيج باللقاء ومن علامات المحب أنه يستقل الكثير من نفسه ؛ ويستكثر القليل من محبوبه . لأن المحبوب غنى ؛ فقليله كثير ؛ والمحب فقير فكثيره قليل . ومن نعته أيضاً . أنه يعانق طاعة محبوبه ويجانب مخالفته . ومن علاماته الكبرى ؛ أنه خارج عن نفسه بالكلية وموافق لمحاب محبوبه ؛ هائم القلب بهواه .

خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ومثواك فى قلبى فأين تغيب

ثم يقول . ولقد بلغ بى قوة الخيال ؛ إن كان حبى يجسد لى محبوبى من خارج لعينى كما كان يتجسد لرسول الله صلوات الله عليه ؛ فلا

أقدر أنظر إليه . ويخاطبنى وأصغى إليـــه . وأفهم عنه ولقد تركنى أياما لا أستطيع طعاما ؛ كلما قدمت لى المائدة يقول لى بلسان أسمعه بقلبى ؛ أتأكل وأنت تشاهدنى فامتنع عن الطعام ولا أجد جوعا ؛ وامتلىء حتى سمنت ؛ فقام لى حبى مقام الغذاء وكان أصحابى وأهل بيتى يتعجبون من سمنى مع عدم الغذاء ، فقد كنت أمضى الأيام الكثيرة لا أذوق طعاما ولا أجد جوعا ولا عطشا . واعلم أنه لا يستغرق الحب المحب إلا إذا كان محبوبه الحق تعالى ، ومشاهدة المحبوب كالغـذاء ، وكلما ازداد مشاهدة ازداد حباً .

ومقام المحبـة ، أربعة ألقاب . منها الحب ، وعلامته أن لا يكون للمحب غرض ولا إرادة مع محبوبه ثم الود ، وهو من اسمه تعالى . الودود ومن علامته أن يتودد المحب للمحبوب دائما بما يرضيه ويحبه ، والثالث العشق ، وهو إفراط المحبة ، ومنه قوله تعالى « والذين آمنوا أشد حباً لله » وقوله تعالى «قد شغفها حبا » أى صار حبها ليوسف على قلبها كالشغاف ، وهى الجلدة الرقيقة التى تحتوى على القلب ، فهى ظرف له محيط به. والرابع الهوى ، وهو استفراغ الإرادة فى المحبوب والتعلق به »

ثم يقول محيى الدين . وألطف ما فى الحب ما وجدته ، وهو أن تجد عشقاً مفرطا وهوى وشوقا مقلقاً ، وغراما ونحولا ، وامتناع نوم ، وعدم لذة بطعام ، ثم ذهول وذهاب وفناء . ثم تجلى وفيض ولذة لا توصف .

صفات المحبين

يقول ذو النون المصرى « إن لله عباداً ملأ قلوبهم من صفاء محبته . وأنار أرواحهم بالشوق إلى رؤيته ، فسبحان من شوقهم إليه . وأدنى منه همهم ، سبحان موقفهم ومؤنس وحشتهم وطبيب أسقامهم . إلهى لك تواضعت أبدانهم ، وإلى الزيادة منك انبسطت أيديهم فأذقتهم من حلاوة الفهم عنك ما طيبت به عيشهم وأدمت به نعيمهم ، ففتحت لهم أبواب سماواتك وأبحت لقلوبهم الجولان فى ملكوتك ، بك ما نسيت محبة المحبين ، وعليك معول شوق المشتاقين ، وإليك حنت قلوب العارفين وبك أنست قلوب الصادقين ، وعليك عكفت رهبة الخائفين ، وبك استجارت أفئدة المقصرين ، قد يئست الراحة من فتورهم ، وقل طمع الغفلة فيهم ، لا يسكنون إلى محادثة الفكرة فيما لا يعنيهم ولا يفترون عن التعب والسهر ، ويناجون ربهم بألسنتهم ويتضرعون إليه بمسكنتهم ، يسألونه العفو عن ذلاتهم ، والصفح عما وقع من الخطأ فى أعمالهم ، فهم الذين ذابت قلوبهم بفكر الأحزان وخدموه خدمة الأبرار » .

ويعقب محيى الدين على ذى النون فيقول « ومن صفاتهم رضى الله عنهم . النحول . وهو نعت يتعلق بأجسامهم تعلقه بأرواحهم .

فأما تعلقه بلطائفهم . فان أرواح المحبين وإن لطفت عن إدراك الحواس ، ولطفت عن تصوير الخيال ، فإن الحب يلطفها لطافة السراب ،

تعنى أذكره ، وذلك أن السراب يحسبه الظمآن ماء وذلك لظمأه ، لولا ذلك ما حسبه ماء ، لأن الماء موضع حاجته فيلجأ إليه لكونه مطلوبه . ومحبوبه لما فيه من سر الحياة ، فإذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده عوضا عن الماء ، فالمحب يجد عند كل شيء يقصده الله سبحانه : فكما أنه تعالى يمكر بالعبد من حيث لا يشعر . كذلك يعتنى بالعبد فى الالتجاء والرجوع اليه والاعتماد عليه بقطع الأسباب عنه عند مايبديها اليه من حيث لا يشعر ، فيجد الله دائماً عند فقد الماء المتخيل له فى السراب وهو رجوعه إلى الله لما تقطعت به الأسباب وانغلقت دون مطلوبه الأبواب ، ورجع إلى من بيده ملكوت كل شيء ، وهو كان المطلوب به من الله ، هذا فعله مع أحبائه يردهم إليه اضطراراً واختياراً بقطعهم من مطامع الدنيا و بتقطع الأسباب دونهم ، فكل شيء يطلبونه من الدنيا سراب .

وأما تحول أجسامهم فهوما يتعلق به الحس من تغير ألوانهم ، وذهاب حوم أبدانهم لاستيلاء الفكر عليهم فى أداء ما كلفهم المحبوب مما افترضه عليهم ، فبذلوا المجهود ليتصفوا بالوفاء بالعهود ، إذ كانوا عاهدوا الله على ذلك وعقدوا عليه فى أيمانهم به و برسوله . وسمعوه يقول آمراً . « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال « أوفوا بعهدى ولا تنقضوا الميثاق ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » فهذا سبب تحول أجسامهم .

ومن نعوتهم أيضاً — الذبول — وهو نعت صحيح لأرواحهم وأجسادهم . أما فى أجسامهم فسببه ترك ملاذ الأطعمة الشهية الدسمة وهى مستلذة للنفوس ، لأنهم رأوا أن الحبيب كلفهم القيام بين يديه ومناجاته

ليلا عند ، تجليه ونوم النائمين ، ورأوا أن الطعام يخدر الحواس ويدفع إلى النوم فهجروه ليكمل قيامهم بين يدى محبوبهم ، فحقق الله لهم غايتهم باعانتهم على ذلك .

وأما ذبول أرواحهم ، فإن لهم نعيما بالمعارف والعلوم ، لأن لهم نسبة بجبهم إلى أرواح الملأ الأعلى ، وأرواح الملأ الأعلى ذابلة ، ذلة وحبا ، وفى الخبر ، أن إسرافيل عليه السلام ، وهو من أرفع الأرواح العلوية ، يتضاءل فى نفسه كل يوم لاستيلاء عظمة الله تعالى على قلبه سبعين مرة حتى يصير كالنقطة المتوهمة .

ومن صفات المحبين الغرام ، وهو الاستهلاك والفناء فى المحبوب ، تلازمه الذلة والكمد قال تعالى «إن عذابها كان غراما» أى مهلكا ، لملازمة شهود المحبوب فان الغريم هو الذى لزمه الدين وبه سمى غراما ، ومقلوبه الرغام ، وهو اللصوق بالتراب ، ويقال رغم أنفه ، لأن الأنف يوصف بالعزة فالصقوه بالتراب وهو أذل الأذلاء .

ولما لازم الحب قلوب المحبين . والشوق قلوب المشتاقين ، والأرق نفوس الأرقين ، وكل صفة للحب موصوفها منه ، سمى صاحب هذه الملازمات كلها مغرما ، وسميت صفته غراما ، فهو اسم يعم جميع ما يلزم المحب من صفة الحب ، فليس للحب صفة أعظم إحاطة من الغرام .

ويذكر محيى الدين للمحبين أكثر من عشرين صفة ، ثم يقول «لقد أعطانا الله منها الحظ الأوفر إلا أنه سبحانه قوانا على أشواق الحب وكمده

والله إنى لأجد من الحب ما لوضع فى ظنى على السماء لانفطرت وعلى النجوم لانكدرت وعلى الجبال لسيرت ، هذا ذوقى لها . لكن قوانى الحق فيها قوة من فضله ومنحه .

ولقد رأيت فى نفسى من عجائب المحبة مالا يبلغه وصف واصف ، والحب على قدر التجلى . والتجلى على قدر المعرفة ؛ وكل من ذاب فيها وظهرت عليه أحكامها عرف قصدى هنا» .

حب العارفين

يقول محيي الدين « إن الله سبحانه هو الذى بدأنا بالمحبة تفضلا منه فخلقنا وهو تعالى لا يخلق إلا ما أحب ؛ ومن حبه لنا بعث الرسل إلينا لتعلمنا الأعمال التى تؤدى إلى سعادتنا ؛ ثم أخبرنا أن رحمته سبقت غضبه : وإن أشقى الأشقياء مشمول بالرحمة والعناية وإلا هلك »

قال. ذو النون المصرى « كنت فى الطواف فسمعت صوتا حزينا : وإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول « أنت تدرى يا حبيبى . يا حبيبي أنت تدرى . ونحول الجسم والروح يبوحان بسرى . ياحبيبي قد كتمت الحب حتى ضاق صدرى .

قال ذو النون . فشجانى ما سمعت حتى انتحبت وبكيت ؛ ثم سمعتها تقول، إلهى وسيدى ومولاى بحبك لى ، إلا غفرت لى، قال .فتعاظمني ذلك، وقلت ياجارية. أما يكفيك أن تقولى نحبى لك حتى تقولى بحبك لى ؟ فقالت إليك ياذا النون ، أما علمت أن لله قوما يحبهم قبل أن يحبوه ، أما سمعت الله يقول « فسوف يأتى بقوم يحبهم ويحبونه » فسبقت محبته لهم قبل محبتهم له، فقلت ومن أين علمت أنى ذو النون ، فقالت يا بطال . جالت القلوب فى ميدان الأسرار فعرفتك . ثم قالت أنظر من خلفك فأدرت وجهى ، فلم أدر السماء اقتلعتها ، أم الأرض ابتلعتها »

ويروى محيي الدين فى الفتوحات ، صفات المحبة عند العارفين فيقول. «إن المحبين لله شق لهم عن قلوبهم فأبصروا بنور القلوب عن جلال الله . فصارت أبدانهم دنيوية ، وأرواحهم حجبية، وعقولهم سماوية ، تسرح بين.

صفوف الملائكة ، وتشاهد تلك الأمور باليقين ، فيعبدون بمبلغ استطاعتهم حبا له ، لا طمعاً فى جنة ولا خوفاً من نار »

ويقول ذو النون، فى محبة العارفين «وصفاتهم» هم الذين أنار الحب لهم آفاق السماء فلما ذاقوا ، أمطرت عليهم سحب الأشجان . فتسربلوا بالخوف والأحزان . وشربوا بكأس اليقين وراضوا أنفسهم رياضة الموقنين . فكانت قرة أعينهم فى مشاهدة محبوبهم ولهذا كحلوا أبصارهم بالسهر وغضوها عن النظر ، وألزموها الصبر ، وأشعروها الفكر ، فقاموا لليلهم أرقا واستهلت دموعهم تترى. صحبوا محبوبهم بأبدان ناحلة، وشفاه ذابلة ودموع زائلة، وزفرات فاتلة، فكأن زفير النار تحت أقدامهم وكأن وعيده نصب أعينهم.

يقول محيى الدين « والحب الإلهى هو أسمى ما فى عالم المعانى . ولهذا يستغرق الطاقة كلها ، فيذهل المحب عن نفسه ، ويفنى فى محبوبه ، فناء معنويا ، لايمكن تصوره ، وكيف نتصورما ليس بصورة وليست للمعنويات صور . وهذا هو حب العارفين ، الذين يمتازون به عن العوام أصحاب الاتحاد الذين تخيلوا الفناء ، اتحاداً ذاتياً لا معنوياً، وتخيلهم هذا دل على نقص فطرتهم .

فالمحب العارف . إنما يفنى فى محبوبه فناء افتقار وذلة . ورجاء وعبودية ، وحنينا وشوقا مع كمال الأدب والمعرفة»

ثم يحذر محيى الدين ويحذر ، هؤلاء الذين تذهلهم بروق المحبة . أو تخدعهم بشاشات القرب والأنس فى بساط الحضرة ، فيقول .

« لا يحور من بهن فوصل . ترك الحرمة عند الخدمة . فمن جلس على بساط الأنس ، والمحبة فللحضرة آدابها وأذواقها . وإلا حرم فطرد .

وكلما ازداد الحب، ازداد الإيمان، وعلى مقدار الحب وبه، نفهم غاية الحياة وسرها والمراد منها.

ماخلقنا إلا للعبادة والمحبة، فحب الله روح العبادة، وهو رجوع بالنفس إلى الفطرة، وهو وفاء بعهد سابق، حينما أخذ العهد والميثاق على الأرواح.

وحب الله تعالى، يحول الأرواح إلى لطائف راضية مطمئنة، لا يصدر عنها شر ولا عدوان، بل رضا وإيمان. وأخاء وصفاء. لأنه يسمو بالانسان إلى محبة كل شيء في الوجود فحينما يتصور الإنسان، إن كل شيء في هذا الكون من صنع المحبوب، يرى الوجود، خيراً وجمالا وكمالا. وحينما يتصور أن أقدار الحياة، من إرادة المحبوب، يرى كل قدر رحمة وخيراً، وبركة وفضلا. لأن هوى المحب مع إرادة المحبوب أبدا.

الحب ولقاء الله

يقول محيي: إن المحب في أشواق دائمة إلى ربه، فهو متبرم بالبقاء في هذا الهيكل الذي يحجبه عن النقلة الكبرى إلى الدار الأخرى، حيث اللقاء والبقاء، لهذا تنغصت عليه حياته الدنيا شوقا إلى ذلك اللقاء، فهو صافي العيش كدره. طيب الحياة، متبرم بها في نفس الأمر، لا في نفسه، قد ذهب عنه كل مخلوق وهابه كل ناظر، ذو أنس بالله، دائما وقور خجول، في قلبه ذكر وتعظيم، مرآة للحق حليم، صابر محتمل. فارغ من الدنيا والآخرة لا يأسف على شيء إذا لا يرى غير الله، تبكي عينه ويضحك قلبه، لا يشتغل عن الحق طرفة عين، عرف ربه بربه، مهدي في أحواله، مستوحش من الخلق بحبه. جامع للتجليات، مضنون به، مستور بوله، محبوس في المواقف رضي عن الله، ورضي الله عنه، وذلك هو الفوز العظيم.

163

محي لدين ووحدة الوجود

قمة الحب الالهي عند العارفين من أئمة المتصوفة هى حال الفناء . فناء المحب فى محبوبه فناء معنويا لا يمكن تصوره . وكيف نتصور ما ليس بصورة ، وليس للمعنويات صور محسوسة ملموسة . وهذا هو حب العارفين كما يقول محي الدين ، الذين يمتازون عن العوام أصحاب الاتحاد .

ولقد ملأ الشعراء والأدباء ، أصحاب الحب الأرضى الدنيا بألحان حبهم وصور غرامهم ، فجعلوا الحياة هى الحب ؟ وجعلوا الحب ملكا من ملائكة السماء بل إلها وربا ، وجعلوا الغرام إتحادا واستغراقا وفناءا ، وصوروه بشتيت الصور المعنوية والحسية ، واطلقوا فى آفاقه استعارات المبالغه ، وتشبيهات مهولة ، فصفقوا لهم اكبارا ، واقاموا لهم التماثيل اعجابا ، وسجدوا وتبتلوا ، فى محاريبهم الشهوانية .

وقال الشعراء والأدباء من أصحاب الهوى الجنسي . إن المحب يرى محبوبه فى كل شيء . ويتلون به كل شيء ، يراه فى الماء والسماء والهواء ، يراه فى كأس شرابه ، ويشاهده فى ألوان طعامه وفى بسمة الفجر وأشراقة الشمس ، وشعاع البدر . بل يراه فى كل جهة يولى وجهه إليها .

يقول المترنمون بالجنس هذا . فتصفق لهم الدنيا أعجابا وأجلالا ، وتخفق لهم القلوب رحمة وحنانا ، وتدمع العيون رثاء واشفاقا .

أما العابد المتطهر ، المؤمن الصوفى الزاهد الساجد الغارق فى حبه العظيم .

والمحبة على قدر المحبوب، إذا استغرق الصوفى فى حبه، فنسى الوجود، وغاب عن الشهود، ونسى نفسه، ولم ير إلا الحبيب العظيم، ولم يشاهد فى الألوان والصور الكونية. إلا الخالق المحبوب. فهو زنديق وهو متفلسف؟ وهو هائف بالحلول؟ وداعى إلى وحدة الوجود؟ والأمر أيسر وأهون من هذا. فما هناك إلا محب ومحبوب.

أنهم لقوم غمرهم النور الالهى الاسنى. فتعلقت أبصارهم به ورفرفت أرواحهم حوله. وذهلت عقولهم من التجلى والمشاهدة. فما رؤا فى الوجود سواه، تعالى الله.

أنهم بعين حبهم وشوقهم. ليرون الله فى كل شىء. هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ووحدة الوجود. وفكرة الحلول. فكرة الحادية قديمة. عريقة فى العبادات الهندية والبوذية وخلاصتها. إن أصحابها انقسموا إلى فريقين. فريق يرى الله سبحانه روحا. ويرى العالم جسما لذلك الروح. وإن الإنسان إذا صفا وتطهر. سما وارتفع فالتصق بالروح التى هى الله ففنى فيها فذاق السعادة الكبرى.

وفريق يرى أن جميع الموجودات. لا حقيقة لوجودها. غير وجود الله. فكل شىء هو الله. والله هو كل شىء. أى أن الله سبحانه. يتجلى تجليا حقيقيا فى كل شىء فى الكون بذاته. فلا موجود إلا الوجود الواحد ومع ذلك يتعدد يتعدد الصور تعددا حقيقيا واقعيا فى نفس الأمر. ولكن

ذلك التعدد لا يوجب تعددا فى ذات الوجود . كما أن تعدد أفراد الإنسان لا يوجب تعددا فى حقيقة الإنسان .

وهى سفسطة . لا يقبلها منطق ولا عقل ولا شرع . سفسطة تذهب بالشرائع والأديان ، وتنال من الجلال والكمال الواجب لله سبحانه . وتبطل الجزاء والعقاب والجنة والنار . والحياة الأخروية كما تبطل الحدود . بين الخالق والمخلوق . فتجعل الخلق والخالق شيئا واحدا .

تلك هى خلاصة فكرة وحدة الوجود . التى قذف بها القدامى من خصوم المتصوفة رجال الحب الالهى . متخذين من حب المتصوفة لربهم تكئة ومقعدا لهذا الاتهام .

ثم جاء بعض رجال الاستشراق . الذين أغرموا أكبر الغرام بتجريح الثقافة الاسلامية والفكرة المحمدية، بتجريح رجالها والطعن فى علمائها . فغمسوا أقلامهم فى محراب المتصوفة . ولبسوا ثوب العلم بالاسلام والدفاع عنه . فرموا المتصوفة بهذا الافك . والذى تولى كبره منهم هو « جولد سهير» هذا اليهودى المفكر . الذى فكر وفكر . ثم فكر وقدر . فالهم أن أخوان الصفا بشامخ علمهم . استمدوا فلسفتهم وفكرتهم من قصة الحمامة المطوقة . فى كتاب كليلة ودمنة . ولا أجد لهذا الاكتشاف العظيم شبيها إلا أن تقول مثلا . إن علماء القنبلة الذرية . قد استمدوا فكرتهم . من قصة الزير سالم . أو الزناتى خليفة .

جولد سهير هذا وأمثاله . من عباقرة رجال الاستشراق هم الذين أثاروا غبار وحدة الوجود على رجال التصوف الاسلامى والحب الإلهى

وجرى فى أعقابهم ، بعض المتعالمين من كتابنا ، الذين تعيش أفكارهم على فتات الموائد الأوربية . فرموا بالكلم المسموم ، والاتهام الشائن .

ويتفلسف المستشرقون ، ويتفلسف المتعالمون . فيقولون : إن للتصوف الاسلامى ، علاقة وثيقة ببوذا والهند ، وإن وحدة الوجود عند متصوفة الاسلام ، أقباس من الصوفية البوذية ، ولمحات من صوفية المدرسة الاشراقية .

ونسوا أن التصوف الاسلامى ، قام على كتاب الله وهدى نبيه ، وإن الصوفى المسلم يقرأ فى كتاب ربه — ليس كمثله شىء — وهو السميع البصير — فيقرأ خلاصة العلم الذى يتعلمه طلاب اللاهوت فى سائر الملل والنحل ، ويطوى تحت هذا البلاغ المبين ، والنور الغلاب ، كل فلسفة تتشدق ببحث الصفات والذات .

يقول الشعرانى فى اليواقيت « ولعمرى أن عباد الأوثان لم يتجرؤا أن يجعلوا آلهتهم عين الله ، بل قالوا . ما نعبدهم إلا ليقربون إلى الله زلفى . فكيف يظن بأولياء الله أن يدعون الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال فى حقهم رضوان الله عليهم » .

ومحيى الدين ، وهو شيخ المتصوفة الأكبر ، وفيلسوفهم الأشهر ، الذى رمى فيمن رمى من المتصوفة بهذا الافك ، تشهد كتبه ، وتشهد آثاره . ويشهد إيمانه ، وتشهد تقواه ، وينطق حبه لله بأنه أكبر المدافعين عن التوحيد ، وأشد الناس قسوة على من مرق من نطاقه ، فنادى أو هتف بوحدة الوجود ، وما إلى وحدة الوجود من حلول والحاد ، بل محيى الدين

لا يبيح للشاطحين والمحبين أن يقولوا حتى الألفاظ التى تحتمل التأويل أو الشك ، مع براءة الشاطح والمحب، من الاتجاه والقصد .

يقول محيي الدين فى عقيدته الوسطى : « أعلم أن الله تعالى واحد بإجماع . وقيام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء ، أو يحل هو فى شيء ، أو يتحد بشيء» .

ويقول فى الباب الثالث من الفتوحات : « أعلم أنه ليس فى أحد من الله شيء ولا يجوز ذلك عليه بوجه من الوجوه » .

وقال فى باب الأسرار : « لا يجوز لعارف أن يقول أنا الله . ولو بلغ أقصى درجات القرب وحاشا العارف من هذا حاشاه » .

وقال فى الباب التاسع والتسعين ومائة : « القديم لا يكون قط محلا للحوادث ، ولا يكون حالا فى المحدث ، وإنما الوجود الحادث والقديم مربوط بعضه ببعض ؛ ربط إضافة وحكم ، لا ربط وجود عين بعين ، فان الرب لا يجتمع مع عبده فى مرتبة واحدة أبدا » .

وقال فى لواقح الأنوار : « من كمال العرفان ، شهود عبد ورب ، وكل عارف نفى شهود العبد فى وقت ما ، فليس بعارف ، وإنما هو فى ذلك الوقت صاحب حال ؟ وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده » .

ويقول فى الباب السابع والستين وثلاثمائة من الفتوحات: «اجتمعت روحى بهارون عليه السلام فى بعض المشاهدات . فقلت له يا نبى الله . كيف قلت « فلا تشمت بى الأعداء » ومن الأعداء حتى تشهدهم ، والواحد منا يصل إلى مقام لا يشهد فيه إلا الله . فقال لى هارون عليه السلام . صحيح

ما قلت فى مشهدكم ، ولكن إذا لم يشهد أحدكم إلا الله ، فهل زال العالم فى نفس الأمر ، كما هو فى مشهدكم ، أم العالم باق ، لم يزل . وحجبتم أنتم عن شهوده لعظيم ما تجلى لقلوبكم . فقلت له العالم باق . فى نفس الأمر لم يزل . وإنما حجبنا نحن عن شهوده ، فقال قد نقص علمكم بالله فى ذلك الشهد ، بقدر ما نقص من شهود العالم ، فأنه كله آيات الله ، فاذادنى عليه السلام ، علما لم يكن عندى » .

هذا موقف من المواقف ، التى يجب أن نقف لديها ونرصد الفكر عليها ، لأنه موقف يشرح لنا أدق مسألة فى التصوف ، هى مسألة المشاهدة والتجلى ، والفناء والذهاب بالحق عن الخلق ، أو كما يقول الجنيد من شهد الحق ، لم ير الخلق .

فالمتصوف المحب الغارق فى حبه ، عند المشاهدة وما أدراك ما المشاهدة يذهب عنه شهود الخلق والعالم ، لعظيم ما تجلى لقلبه من أنوار ربه ، وهو موقف عظيم رهيب .

ولكن ليس معنى هذا ، أن العالم قد زال أو تلاشي ، أو عدمت عينه وذاته ، وإنما هو ذهول بما هو أعلى عما هو أدنى ، كمن يشاهد الملك مثلا . فيذهل عند رؤيته عن رؤيته ما سواه ، فلا يرى غيره لأن جلاله قد حجب من حوله ، ولا قياس ولا تشبيه بين المثلين .

وليس فى هذا ما يعاب ، فهو موقف عظيم من مواقف الرجال ، ولكن الكمال يكون أتم وأعلى إذا اقترنت مشاهد الأنوار الربانية مع الموجودات

الكونية ، لأن كل موجود آية من آيات الله . فالحجاب عنها حتى عند المشاهدة العظمى، نقص فى المعرفة .

ويشرح لنا محيي الدين الحديث القدسى المشهور « ما تقرب إلى عبدى بمثل اداء ما فترضت، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به،و بصره الذى يبصر به،ويده التى يبطش بها . . . الخ » .

يشرح محيي الدين هذا الحديث ، الذى توهم فيه بعض الأغرار ما يفيد الوحدة فيقول : « أى أن من تقرب إلى ربه فأحبه . أفاض عليه أنوار المعرفة ، فانكشفت له الحقائق . فرأى كل شىء بنور هذه المعرفة .

ثم يقول :

لا حلول ولا اتحاد.فان القول بالحلول مرض لا يزول . ومن فصل بينك وبينه ، فقد أثبت عينك وعينه . ألا ترى إلى قوله ، كنت سمعه الذى يسمع به، فأثبتك بإعادة الضمير إليك ، ليدلك عليك،وما قال بالاتحاد إلا أهل الالحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول »

ما قال بالاتحاد إلا أهل الالحاد . وما قال بالحلول ، إلا أهل الجهل والفضول ، أيرمى صاحب هذا القول بالاتحاد والحلول . سبحانك ربى ، وأنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ويقول فى باب الأسرار : « أنت أنت . وهو هو . فإياك أن تقول كما قال العاشق أنا من أهوى ومن أهوى أنا . فهل قدر هذا،أن يرد العين واحدة ؟ لا والله ما استطاع ، فانه جهل ، والجهل لا يتعقل حقا » .

وقال أيضا : « أياك أن تقول أنا هو . وتغالط فأنك لو كنت هو - لاحطت به ، كما أحاط تعالى بنفسه »

ثم يقول وهو من الآيات فى توضيح فكرته : « أعلم أن العاشق ، إذا قال أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، كان ذلك كلام بلسان العشق والمحبة لا بلسان العلم والتحقيق ، ولذلك يرجع أحدهم عن هذا القول إذا صحا من سكره » .

إذا قال القائل : أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، فهذا لسان الحب ، ولسان الخيال لا الحقيقة، لسان المعنويات التى لا صور لها ، والمحبة لسان معذور ، لأنه مقهور بحاله .

يروى محيى الدين فى الفتوحات « أن سليمان صلوات الله عليه ، كان فى قبته يوما، وفى أعلاها عصفور يناجى عصفورة ، فقال لها : أنا أحبك . حبا لا أعصى لك معه أمرا ، حتى لو قلت لى حطم هذه القبة على رأس سليمان لحطمتها عليه . فأمره سليمان أن يهبط فلما هبط قال له . ماذا تقول ؟ قال يا نبى الله لقد تكلمت بلسان المحبة ، والسنة المحبين لا حساب عليها ، فتبسم سليمان وعفا عنه . . . »

ويقول محيى الدين فى الباب الثانى والتسعين ومائتين : من أعظم الأدلة على نفى الحلول والاتحاد، الذى يتوهمه بعضهم ، إن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شىء ، وإن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها وانما كان القمر محلا لها ومشرقا بها ، فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شىء ولا حل فيه » .

ثم يقول : « وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق . ولا حل فيه الحق ، إذ لو كان عين الحق ، أو حل فيه ، لما كان تعالى قديما ولا بديعا .

ثم يرد محيي الدين على هؤلاء الذين تنادوا بالترقى والفناء فى الذات العلية فيقول : « لو صح أن يرقى الانسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى . لصح انقلاب الحقائق ، وخرج الاله عن كونه الها . وصار الحق خلقا ؟ والخلق حقا ؟ وما وثق أحد بعلم . وصار المحال واجبا فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدا »

ويقول فى الباب الثامن والأربعون من الفتوحات : « لا يصح أن يكون الخلق فى مرتبة الحق تعالى أبدا . كما لا يصح أن يكون المعلول فى رتبه العلة ، ثم يقول : وأين أذن تذهب التكاليف ومن ترك التكاليف كان معانداً أو جاحداً ، فمن كمال التخلق باسماء الحق ، الاشتغال بالله وبالخلق .

ويقول فى لواقح الأنوار : « لا يقدر أحد ولو ارتفعت درجات مشاهدته . أن يقول أن العالم عين الحق أو اتحد به أبدا . ومن فهم ما أومأنا إليه فهم معنى قوله تعال « قل الروح من أمر ربى » فلم يحدث بابتداعه العالم فى ذاته حادث . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا » .

ثم يأتى محيي الدين بكلمة الفصل فيقول : « وبالجملة فالقلوب به تعالى هائمة . والعقول فيه حائرة ، يريد العارفون أن يفصلوه تعالى بالكلية عن العالم من شدة التنزيه فلا يقدرون . ويريدون أن يجعلوه عين العالم من شدة القرب ، فلا يتحقق لهم ، فهم على الدوام متحيرون ، فتارة يقولون

هو؟ وتارة يقولون ما هو؟ وتارة يقولون هو ما هو؟ و بذلك ظهرت عظمته تعالى »

وهذا كلام العارف الحكيم المؤمن الكامل ، وهو هدى ونور لمن يريد الهدى والنور .

يريد العارفون أن يفصلوه سبحانه وتعالى عن العالم من شدة التنزيه فلا يقدرون . و يريدون أن يجعلوه عين العالم من شدة القرب فلا يتحقق لهم ما يقولون .

فالقلوب حائرة ، والعقول هائمه ، و بذلك ظهرت عظمة الله تعالى . الذى ليس كمثله شيء والذى لا تدركه العقول ، ولا الأبصار ، وهو يدرك العقول والأبصار،وهو على كل شيء قدير . وسبحان ربك رب العزة عما يصفون

محيي الدين المفترى عليه

لم يشهد تاريخ الفكر الاسلامى جدلا وحوارا . أشد ولا أعنف من الجدل والحوار الذى أثير حول محيي الدين . ولست أغالى إذا قلت . إن محيي الدين هو الراية التى دارت حولها المعارك بين المتصوفة وخصومهم من شتيت الفرق والطوائف والمذاهب ، منذ القرن السابع الهجرى إلى يومنا .

فمحيي الدين ، قد فتن به قوم وهاموا بآثاره حبا وغراما ، وطافوا حول تراثه إجلالا و إكبارا وتنادوا بأن الفتوحات ، هى أعظم آثار الفكرى الاسلامى ، وأعلى ذرى للعطايا اللدنية ، والمنح الالهيه فى نهج التصوف والمتصوفة ، و إنه القطب والغوث والإمام والشيخ الأكبر .

وغضب قوم على محيي الدين ، وثاروا به وتفننوا فى تجريحه والنيل منه وألحدوا بكل ما قال وظنوا السوء . بل وأكثر من السوء فى كتبه وآرائه .

وخصوم محيي الدين على لونين . فريق لم يفهم محيي الدين ، وقصرت أجنحته عن التحليق فى آفاقه ، وعجزت أقدامه وسواعده عن الجرى مع عبابه وأمواجه ، فأنكر وجحد ، ورماه بالغموض والإبهام والتقنع بمآرب وأغراض .

وفريق آخر ، أنكر التصوف جملة ، وجحد المتصوفه كافة . وروّا فى محيي الدين . الحصن الأكبر والصرح الممرد الشاهق للتصوف والمتصوفة .

فوجهوا ريحهم إليه ، وأجروا سفنهم بالكيد له، والتطاول عليه ، حتى ينتقض الصرح من أساسه ، وينفض السامر ، وتخلو ساحاته من البطل والزعيم .

بل لقد تعرض محيي الدين لمحنة أشد ، بل لمؤامرة من تلك المؤامرات التى تدبر تحت أجنحة الظلمات ، والتى طالما أودت بالعلماء ورجال الإيمان وطالما جرحت أئمة الفكر والهدى مؤامرة بدأت فى حياته ثم جرت فى أعقابه ولاحقته إلى يومنا .

يقول الشعرانى ، فى مقدمة اليواقيت « إن أفاقا من أهل اليمن غير واضح العقيدة ، اسمه ابن الخياط ، كتب مسائل فى درج وأرسلها إلى العلماء بسائر أنحاء العالم الإسلامى ، وقال هذه عقائد الشيخ محيي الدين ، وذكر فيها عقائد زائفة ، ومسائل خارقة لإجماع المسلمين ، وخدع العلماء ووقع كثير منهم فى الشرك ، فكتبوا بحسب السؤال وشنعوا على من يعتقد ذلك من غير تثبت ، والشيخ عن ذلك بمعزل »

ويعقب الفيروزابادى على حادثة ابن الخياط قائلا « فلا أدرى أوجد ابن الخياط تلك المسائل فى كتاب مدسوس على الشيخ ، أو فهمها هو من كلام الشيخ، على خلاف مراده . أو ابتكرها من عند نفسه » .

وإنه للون من أعجب ألوان التشهير ، يتفق تماما مع أحدث أساليب الدعاية الحديثة . وما الفناه من الاقلام المأجورة المعاصرة التى تطلقها الأمم لتنال من خصومها ، ومن أفكارهم ومذاهبهم ، بالتلفيق والاختراع والتمويه .

ولا عجب إذا رأينا الكثير من العلماء الذين وجه إليهم السؤال من ابن الخياط ، وقد وقعوا فى الشرك الذى نصب لهم بمهارة ودهاء ، فقد رؤا بين أيديهم مسائل خطيرة تمس الدين وما انعقد عليه الرأى بالإجماع ، فملؤا الدنيا صياحا وتشهيرا ، ولا يزال صياحهم وتشهيرهم تحمله أجنحة التاريخ ، وتقذف به إلى الأذهان .

ويحدثنا الشعرانى أيضا ، فيقول « إنه عند ما أخذ فى تأليف مختصر للفتوحات ، رأى فيها أشياء كثيرة ، لا تتفق مع ما عليه أهل السنة والجماعة فحذفها وتوقف فيها ثم يقول « لم أزل كذلك أظن أن المواضيع التى حذفتها ثابتة عن الشيخ محيي الدين ، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف الشيخ شمس الدين محمد بن السيد أبى الطيب المدنى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ فذاكرته فى ذلك ، فأخرج لى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيي الدين نفسه « بقونيه » فلم أر فيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته ، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت عن النسخة التي دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة ، كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص وغيره » .

والشعرانى وهو من أخلص تلامذة محيي الدين ومن أكبر من كتبوا عنه وترجموا له ، يقرر هنا فى صراحة لا تقبل الجدل أن كل ما فى الفتوحات مخالفا لعقائد أهل السنة والجماعة مدسوس على محيي الدين ، وإن محيي الدين ضحية لمؤامرة دنيئة سلاح الخصوم فيها التلفيق والتزييف .

ويتابع الشعراني بحثه فيقول . إنه لمقتنع كل الاقتناع بأن خصوم

محيي الدين أضافوا إلى مؤلفاته زيادات كبيرة وانطقوه بما لم يقله ، ليصرفوا الجمهور من حسن الظن به » .

ونحن ولا شك أمام حادث خطير من أحداث التاريخ يجب أن تجتمع له عصبة من أولى القدرة والإيمان لدراسته وبحثه وصون هـذا التراث الاسلامي العظيم من التشويه الزائف الخطير المتعمد .

ويرى كثير من رجال التاريخ وأهل الرأى ، إن الزائف فى الفتوحات والفصوص وغيرهما من كتب محيي الدين ، لم يتوله خصومه من رجال الفقه ولا من أهل السنة ، وإنما تولى أمره بعض رجال الباطنية الذين عجزوا عن الجهر بآرائهم فأضافوها إلى محيي الدين ، لإيمانهم بأن شخصيته الجبارة ، بمكانتها وجلالها كفيلة بحماية تلك الآراء ، أو تدعيمها وتقويتها .

والتاريخ حافل الصفحات بألوان من الخصومات والافتراءات ، على الرجال والأئمة ، بل وعلى الرسل والأنبياء .

يقول جلال الدين السيوطى « ما كان كبير فى عصر قط ، إلا كان له عدو من السفلة ، إذ الأشراف لم تزل تبتلى بالأطراف ، ثم يضرب الأمثال من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم الذين ابتلوا بالخصومات والافتراءات ثم بكبار الصحابة ، كسعد بن أبى وقاص الذى نسب إليه أهل الكوفة أنه لا يحسن الوضوء ولا الصلاة ، وهو من هو فى كماله وإيمانه ، وأحمد بن حنبل الذى ضرب حتى مزق جسده ، وهكذا ، ثم يقول ولقد اختص المتصوفة بالنصيب الأكبر من هذا الابتلاء » .

والسيوطى هنا يقرر حقيقة من حقائق التاريخ التى لا يرقى إليه

الشك . فما من صوفى إلا وأحاطت به عصبة السوء والأفك، تجريحا وتشهيرا ودسا وافتراء ، لقد نفوا البسطامى سبع مرات من بلده بتهمة الكفر والزندقة . واحلوا دم ذا النون المصرى ، وشهدوا على الجنيد بالكفر والإلحاد ودسوا على الغزالى فى الاحياء ، عدة مسائل تنبه لها القاضى عياض فأرشد إليها وأمر بإحراقها .

ولم يكتف خصوم محيى الدين بالدس عليه فى كتبه ، والتشهير بألسنتهم به ، بل أضافوا إلى جريمتهم ، جريمة أخرى أشد وأنكى ، فقد أخذوا يؤلفون على ألسنة شيوخ الإسلام الكلمات القاسية الجارحة الموجهة إلى محيى الدين ، ليزيدوا فى تدعيم مؤامرتهم ، وليزيدوا النار اشتعالا .

ووقع كثير من رجال التاريخ فريسة سهلة لهذا اللون الجديد ، فأخذوا يرددون أمثال هذه الافتراءات وينسبونها إلى هؤلاء الأعلام ، ولا عجب فى هذا فكتب التفسير مثلا تموج موجا بالإسرائيليات التى تنسب ظلما إلى ابن عباس رضى الله عنه، وأنه منها للبرىء المطهر، نسبوا فيما نسبوا إلى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام . أنه قال عن محيى الدين ، أنه زنديق ؟ ورواها عنه أكثر من مؤرخ ، ثم نرى كتب التاريخ الصحاح تقص علينا حادثة أبعد ما تكون عن الرواية الأولى على لسان مريد من تلامذة شيخ الإسلام يقول .

كنا فى مجلس الدرس بين يدى الشيخ عبد السلام ، فجاء فى باب الردة لفظة زنديق ؟ فقال بعضهم هل هى عربية . أم أعجمية ؟ فقال بعض الفضلاء ، إنما هى فارسية معربة أصلها — زن . دين — أى على دين المرأة

وهو الذى يضمر الكفر ويظهر الإيمان . فقال بعضهم مثل من. فقال آخر إلى جانب الشيخ ، مثل ابن عربى . بدمشق فلم ينطق الشيخ ولم يرد عليه ووجم لها من فى المجلس .

قال المريد . وكنت صائما ذلك اليوم . فاتفق أن الشيخ دعانى للافطار معه فحضرت ووجدت منه إقبالا ولطفا . فقلت له يا سيدى . هل تعرف القطب الغوث الفرد فى زماننا . فقال مالك ولهذا . فعرفت أنه يعرفه ، فرجوته وألححت فى الرجاء . فقال لى . هو، ابن عربى . فعجبت وقلت يا سيدى . لقد حدث اليوم أن رماه بعضهم فى مجلسك بالزندقة ولم ترد عليه . فتبسم الشيخ وقال . اللجاجة مع المتعنت لا تنتج إلا ضررا . وقائل تلك الكلمة ، لجوج حقود ، يريد بابا للجدل ، حتى يفرغ ما فى جوفه .

وخصوم ابن عربى على لونين . لون صناعته الدس وسوء القصد ، وقد توصلوا إلى أغراضهم بتزييف الآراء على ألسنة الأئمة والعلماء ، وتزييف القول وبثه فى كتب محيي الدين ، كما حدث فى الفتوحات والفصوص والمشاهد ، وقد تنبه رجال التصوف كالشعرانى ، والمؤرخين الثقاة كالفيروزابادى وصاحب نفح الطيب إلى ذلك .

والفريق الآخر ، خصومته أساسها سوء الظن . أو سوء الفهم لكلمات محيي الدين . يقول الشعرانى سمعت سيدى عليا الخواص يقول «لو أن كمال الدعاة إلى الله تعالى كان موقوفا على أطباق الخلق على تصديقهم لكان رسل الله صلوات الله عليهم أولى بذلك . وقد خاصمهم الناس فريقاً يقتلون ، وفريقاً يأسرون ويكذبون » .

ولقد صدق الخواص ، فحتى الرسل ، لم تسلم دعوتهم الربانية من المؤلين والمكذبين ، ومن الأمور التى نسبت إلى محيي الدين عن طريق التأويل أو سوء الفهم مسألة المفاضلة بين النبي والولى ، فلقد هتف المرجفون بأن محيي الدين ، قد فضل الولى على النبى ، وأنه قال أن النبى للعامة والأولياء للخاصة .

وهو افتراء ، أو سوء فهم من أعجب الأعاجيب ، فمحيي الدين لم يقل هذا ولا ينبغي له أن يقوله ، ولا يمكن أن يصدر منه .

محيي الدين الذى اتهم بأنه سما بمقام النبوة المحمدية سموا اعتبروه

عيباً من عيوبه ، حتى رموه بالغلو ، كما غالى رجال المسيحية فى عيسى ، حتى أوشكوا أن يخرجوه من بشريته . بل لقد فعلوها

محيي الدين الذى عيب عليه هذا ، يرمى بأنه يفضل الولى على النبى ! ومن عجب أن يتهم رجل بمتناقضين فى وقت واحد .

وحقيقة الأمر ، أن محيي الدين ، يرى أن الولى كلمة اصطلاحية تضم كل الرسل والأنبياء ، فالرسول عنده ، ولى عهد اليه فى تبليغ رسالة عن الله سبحانه . والنبى ولى متميز عن غيره من الأولياء مفضل بسبب خصوصيته بالنبوة ، فالولاية هى أساس كل المقامات الروحية وعنصرها الأول ، ولا يسمو الولى سمو النبى والرسول أبداً ، فكل نبى أو رسول . هو فى الأصل ولى لله ، وليس كل ولى نبياً أو رسولا .

وإنما المفاضلة بين الولاية فى النبى والنبوة . أى الفضيلتين أفضل وأدوم يقول ابن عربى أن النبوة طارئة وأن الولاية دائمة ، فولاية النبى — لا ولاية غيره — أفضل من نبوته لأنها أدوم وأسبق فالكلام إذن . منصب على رسالة النبي وولايته ، لا على المفاضلة بينه وبين غيره فى النبوة والولاية .

المتشابهات فى كلام محيي الدين

للصوفية اصطلاحات ورموز ، ولغة اختصوا بها ، فاذا اختلف فى معانيها، يجب أن ترد إلى أصحابها وأولى العلم بأسرارها ، يقول محيي الدين « اعلم أن أهل الله لم يضعوا الإشارات التى اصطلحوا عليها فيما بينهم لأنفسهم . فانهم يعلمون الحق الصريح فى ذلك ، وإنما وضعوها منعا للدخيل حتى لا يعرف ما هم فيه ، شفقة عليه ، أن يسمع شيئاً لم يصل إليه فينكره على أهل الله فيعاقب » .

ويقول « إن من أعجب الأشياء فى الطريق ، أن ما من طائفة تحمل علماً من المنطقيين والنحاة ، وأهل الهندسة والحساب والمتكلمين ، إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم . إلا بتوقيف منهم ، إلا أهل هذا الطريق، فإن المريد الصادق إذا دخل طريقهم وما عنده خبر بما اصطلحوا عليه وجلس معهم وسمع ما يتكلمون به من الإشارات فهم جميع ما تكلموا به ، حتى كأنه الواضع لهذه المصطلحات » .

ويقول مجد الدين الفيروزابادى « كما أعطى الله الكرامات للأولياء أعطاهم من العبارات ما يعجز عن فهمه فحول العلماء » .

ويقول محيي الدين « كثيرا ما يهب على قلوب العارفين نفحات إلهية، فإن نطقوا بها جهلهم من لا يعلم. وردها عليهم أصحاب الأدلة من أهل الظاهر ، وغاب عنهم أن الله تعالى ، كما أعطى أولياءه الكرامات أعطاهم العبارات المعجزة » .

لكل علم من العلوم اصطلاحاته الفنية . ولغته الخاصة ، فيجب

الإحاطة أولا بلغة التصوف ورموزه ، قبل الجحود والإنكار .

يقول محيي الدين « من لم يقم بقلبه التصديق لما يسمعه من كلام هذه الطائفة فلا يجالسهم ، فإن مجالسهم سم قاتل » .

يحذر محيي الدين من سوء الفهم أو سوء التأويل ، لكلمات العارفين ، الذين أوتوا الكرامات كما أوتوا الكلمات المعجزة ، والرقائق الغالية ، والدقائق المشرقة .

وسوء الفهم ، وسوء التأويل ، هو الذى دفع بالكثير من رجال الفكر إلى مخاصمة محيي الدين والصياح به . والانكار عليه ، ولو ردوا ما أنكروه إلى أهله ورجاله . لعرفوا اليقين ، ولمسوا النور المبين .

ومن تلك المتشابهات . فى كلام محيي الدين ، إنهم نسبوا اليه وحدة الوجود ، ونسبوا إليه أنه جعل الحق والخلق شيئاً واحداً حين قال :

فيحمدنى وأحمده ويعبدنى وأعبده

يقول الشعرانى ، هذا منطق عربى مبين ، على نهج الأسلوب القرآنى ، وعلى صحة نسبة هذا القول إليه ، فمعنى يحمدنى ، انه يشكرنى إذا أطعته ، كما فى قوله تعالى ـ اذكرونى أذكركم ـ وأما قوله ـ ويعبدنى وأعبده ـ أى يطيعنى باجابته دعائى كما فى قوله تعالى — لا تعبدوا الشيطان — أى لا تطيعوه ، وإلا فليس أحد يعبد الشيطان كما يعبد الله سبحانه » .

ومن المتشابهات أيضا عنده . والتى فسرها هو بنفسه ، وعلى ضوء هذا التفسير يمكننا أن نمسك بمفتاح محيي الدين الذى يرشد إلى إدراك حقيقة معانيه وحقيقة الفاظه أو حقيقة نهجه الذى تميز به ، كما تميز كل كاتب بأسلوبه وتراكيبه ، قال محيي الدين :

183

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

فسأله بعض صحبه لما سمع هذا البيت ، كيف تقول انه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ، فقال محيي الدين على البديهة فوراً :

يا من يراني مجرما ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما ولا يراني لائذا

قال المقرى ، صاحب نفح الطيب ، تعقيبا على هذا القول « من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه الله مؤول وأنه لا يقصد ظاهره ، وانما له محامل تليق به ، فأحسن الظن به ، بل اعتقد ، وللناس فى هذا المعنى كلام كثير ، والتسليم أولى . والله بكلام أوليائه أعلم » .

ذلك قول المؤرخ العظيم المقرى ، صاحب نفح الطيب ، فى وجوب الفهم والتذوق . أولا ، ثم حسن الظن وجمال التسليم ، لأن لكلام العارفين الكمل ، محامل تليق به وتليق بهم . ورضوان الله على العارف القائل :

تركنا البحار الزاخرات وراءنا فمن أين يدرى الناس أين توجهنا

ولقد ذهب خصوم محيي الدين ، الذين ملؤا الدنيا حوله صياحا فى حياته ، ولاحقوه فى تاريخه ، ذهبوا . وبقى محيي الدين ، لأن الحق يبقى ، وما كان خصومه بالنسبة إليه كما قيل . بأكبر من ناموسة نفخت على جبل تريد إزالته . وتذهب الرياح بأمم من الناموس ، وتبقى الجبال شوامخ راسيات ، يثبت الله بها الأرض ، وينفع بها الناس ، وتتدفق منها الكنوز والخيرات .

المستشرقون

ووحـــدة الوجود

يقول العلامة «ليوبولد فايس» النمسوى الذى أسلم وتسمى باسم «محمد أسد» فى كتابه . الإسلام على مفترق الطرق .

« قد لاتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية، ولـكنها تحتفظ دائمـا فيما يتعلق بهذين المذهبين . بموقف عقلى متزن ، إلا أنها حالمـا تتجه إلى الإسلام . يختل التوازن . ويأخذ الميـل العاطفى بالتسرب حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين . جعلوا من أنفسهم فريسة للتحزب غير العلمى فى كتابتهم عن الإسلام » .

ثم يقول

« إن بعض المستشرقين يمثلون مع الإسلام ، دور المدعى العام ، الذى يحاول دائماً إثبات الجريمة» إلى أن يقول

« وعلى الجملة فان طريقة الاستقراء والاستنتاج . التى يتبعها أكثر المستشرقين . تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش تلك الدواوين التى أنشأتها الـكنيسة الـكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى. أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً إن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد . ولـكنها كانت فى كل دعوى . تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل قد أملاه عليها تعصبها لرأيها . ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذى يقصدون أن يصلوا اليه

مبدئيا . و إذا تعذر عليهم الاختيار العرفى للشهود . عمدوا إلى اقتطاع أقسام من الحقيقة التى شهد بها الشهود الحاضرون . ثم فصلوها من المتن . أو تأولوا الشهادات بروح غير علمى من سوء القصد .

وليست نتيجة تلك المحاكمة سوى صورة مشوهة للإسلام ، وللأمور الإسلامية. تواجهنا فى جميع ما كتبه مستشرقوا أوربا » .

تلك شهادة من أهلها ، شهادة عالم عالمى . بدأ حياته مستشرقا يفكر بتفكير رجال الاستشراق، وينظر بنظرتهم إلى الإسلام والمعارف الإسلامية حتى أنقذه الله فهداه ، إلى الإسلام وكلمة الحق .

كلمة يشهد لها الواقع . تشهد لها تلك الكتب المتلاحقة المتتابعة التى يقذف بها رجال الاستشراق وجه العالم الإسلامى ومحورها الإسلام . والمعارف الإسلامية . ظاهرها البحث العلمى الحديث الذى يقوم على الاستقراء والاستنتاج . و باطنها تجريح الإسلام والنيل منه .

فرجال الاستشراق . كما يقول « ليوبولد » تحدوهم دائما روح صليبية تجعلهم يمثلون مع الإسلام . والإسلام وحده . دور المدعى العمومى . الذى يحاول دائما إثبات الجريمة ! ! !

دور محاكم التفتيش ، التى تبدأ المحاكمة باستنتاجات متفق عليها من قبل و بشهود مدربين مأجورين. وحتى إذا أخطأ الشاهد . فنطق بكلمة حق، فلا بد من تأويل تلك الكلمة لتجنح إلى الهدف المرسوم المحدد .

ورجال الاستشراق . خصوم للاسلام بصفة عامة . وللتصوف الإسلامى بصفة خاصة .

لأنهم علموا عن معرفة ، إن التصوف هو قلب الإسلام الحى. وفلسفته المؤمنة المبصرة . هو المصباح الذى يضىء للقلوب المحمدية . الطريق إلى خالقها . فقالوا كما قال المشركون من قبل «لاتسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه لعلكم تغلبون » .

عبث رجال الاستشراق بمحاريب التصوف . عبثاً علمياً منظما . عبثاً خبيثاً متعمداً . فتنادوا أول ما تنادوا — باسم الاستنتاج العلمى الحر — بأن التصوف ليس من الإسلام . لأن الإسلام لا يعرف الروحانية. كما لا يعرف المثالية والترفع عن ماديات الحياة ، وإنما هو وليد تمت بنسب صريح إلى البوذية الهندية، و بنسب صريح أيضاً إلى الفلسفة الإشراقية اليونانية، و بنسب صريح للمرة الثالثة إلى الروحانية المسيحية ، و إلى شخصية المسيح بالذات .

واستدلوا على دعواهم بأدلة أقرب إلى العبث والفكاهة . منها إلى مناهج العلماء . ورجال الفكر . وما قيمة الدليل إذا كان المدعى العمومى . قد أضمر الحكم سلفا .

فالمستشرق اليهودى «جولد تسيهر» مثلا يبرهن فى كتابه — العقيدة والشريعة فى الإسلام [1] على صلة التصوف الإسلامى — بالبوذية الهندية بقول أبو العتاهية الشاعر .

يا من ترفع للدنيا وزينتها ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك فى زى مكسين

ثم يقول . أو ليس هذا هو — بوذا
هذا منطقهم . وتلك أدلتهم . . ؟

(١) ص ١٤٢ .

187

فإذا انتهى رجال الاستشراق ، من نشأة التصوف . ونسبتها العجيبة إلى كل دين فى الأرض سوى الإسلام . عمدوا إلى تشويه أئمة رجال التصوف . تشويها عجبا ؟ إنهم ليرمونهم بالكفر . و بماذا يكفرون . إنهم يكفرون بالإسلام . الاسلام الذى يدافع عنه رجال الاستشراق المؤمنون البررة ، من يهود ومسيحيين .

ثم تتضخم التهمة وتكبر مع الزمن . حتى يجعلوا من رجال التصوف الاسلامى زنادقة فجرة ، يلحدون فى ذات الله تعالى ، بجعلهم . الحق . والخلق شيئاً واحدا . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

نيكولسون ووحدة الوجود

والمستشرق — نيكولسون — عميد المستشرقين الأكبر . هو قارع طبل تلك الفرية الكبرى . ومن عجب أنه أوقف طبوله الضخمة المرعدة على محيى الدين . ومحيى الدين وحده . من دون رجال التصوف الإسلامى .

يقول الدكتور عفيفى فى مقدمته لكتاب — فى التصوف الإسلامى — الذى ترجمه عن نيكولسون .

« وقد نفى نيكولسون القول بوحدة الوجود . حتى عن الحلاج الذى أثر عنه قوله — أنا الحق — وعن عمر بن الفارض — الذى أثر عنه قوله « أنا هى » — أى الحقيقة الالهية — بل عن أبى يزيد البسطامى الذى أثر عنه قوله « سبحانى ما أعظم شأنى » .

لأن هذه الكلمات جميعها ، قد قيلت فى حالة جذب روحى . لا عن فكرة فلسفية أصيلة . لأن مذهب وحدة الوجود لم يظهر فى التصوف

الإسلامى إلا منذ زمن ابن عربى . لأنه وحده بطل تلك الفكرة » .

وكأنما عز على نيكولسون أن يجرح التصوف الاسلامى وحده، بتجريح شيخه الأكبر . فرمى بتهمة وحدة الوجود على رجال الكلام الإسلاميين بأعجب دليل فى عالم الفكر .

يقول نيكولسون فى كتابه — فى التصوف الاسلامي — [1] عند حديثه عن فكرة الشخصية فى التصوف .

« حالة الوجد أو الفناء الصوفى . تتضمن أمرين متناقضين . الأول تنزيه الله عن جميع صفات الخلق . والثانى الشعور بأن وجوده سار متغلغل فى جميع الخلق . وكل من هذين الطرفين يؤدى إلى القول بوحدة الوجود من طريق يخالف طريق الآخر . فإن القول بوحدة الوجود فى التصوف الاسلامى يرجع إلى عاملين . الأول شعور الصوفى فى حال وجده بأنه متحقق بالوحدة الوجودية مع الحق . والثانى فهمه التنزيه حسبما عرفه المتكلمون . فهما أدى به إلى القول بأن الإرادة الالهية المطلقة ، هى وحدها العلة فى وجود كل شىء فى العالم .

وبهذه الطريقة كاد الصوفية والمتكلمون يجعلون من الاسلام مذهبا فى وحدة الوجود » .

وإذن فقد وضح غرض نيكولسون . فهو يريد عن عمد أن يتهم الاسلام جملة ، بأنه دين يجنح إلى وحدة الوجود .

فهو يقول فى صراحة أن المسلم أذا عبد الله بحالة الوجد والفناء الصوفى فهى عبادة . أساسها وحدة الوجود . وأذا عبده على أساس التنزيه حسبما

(١) ص ١١٩

عرفه المتكلمون من رجال الاسلام . بأن الإرادة الإلهية المطلقة هى وحدها العلة فى وجود كل شيء فى العالم . فهى عبادة أيضا أساسها وحدة الوجود .

وهو نفسه يشهد بأن القولين المتناقضين ، كل منهما ينتهى إلى وحدة الوجود من طريق يخالف الآخر .

ويقول أيضا فى نفس الكتاب [1] معلقا على متشابهات ابن الفارض التى توهم وحدة الوجود .

« ومع ذلك لا نستطيع أن نقول إن ابن الفارض قد تعدى عقيدة التوحيد الاسلامية التى عليها أهل السنة . أى العقيدة القائلة . بأن الله هو الفاعل الحقيق لكل شيء . والواقع أنها عقيدة أشبه ما تكون بمذهب وحدة الوجود » .

وبذلك يضيف نيكولسون أهل السنة أيضا إلى أصحاب وحدة الوجود أى إلى محيي الدين . ورجال الكلام من علماء المسلمين .

وأخيرا يرفع نيكولسون القناع عن وجهه سافرا . فيقول فى كتابه « وأننا لنرجح أن النبى العربى كان شموليا يعتقد بوحدة الكون «أينما تولوا فثم وجه الله » .

تلك هى الغاية التى يهدف إليها نيكولسون منذ وجه سهامه المسمومه إلى محيي الدين أنه يريد أن يمحى الاسلام . أن يطفىء نور الله . أن يلصق تلك الأكذوبة الضخمة بالاسلام و بنبى الاسلام ، ويتخذ لذلك

---

(١) ص ١٢٤

سبيلا ملتويا نائما . فهو يقدم بين يدى هدفه براءة ابن الفارض والبسطامى والحلاج من وحدة الوجود، بدعوى أن كلامهم أساسه الجذب الروحى . والفناء المعنوى . فناء الحب والوجد .

فإذا انشرح صدر المسلم . صدر الصوفى المؤمن لهذا القول الكريم النبيل فآمن بالنزاهة العلمية لنيكولسون ، قادة الداهية إلى أزقة الظلمات والريب ، ليلقى فى عقله . ويلقى فى قلبه ، الشك تلو الشك . والريبة بعد الريبة فى محيى الدين أولا . لأنه الشيخ الأكبر . ثم فى رجال الكلام من علماء الإسلام . ثم فى أهل السنة جميعا . وأخيرا النبى الأعظم الذى كان كما يقول هذا المستشرق الغيور على الإسلام . شموليا ينادى بوحدة الكون . والشمول عنده ، صورة مصغرة من صور وحدة الوجود .

الدكتور ابو العلا عفيفى

ويأتى فى أعقاب نيكولسون ، تلميذه الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى فنشاهد فيه صورة مكررة لأستاذه ، يردد أقواله حرفيا .

يقول الدكتور فى مقدمته لكتاب الفصوص [١] « إن القضية الكبرى التى تدور حولها فلسفة محيي الدين . والتى ملكت عليه زمام تفكيره . هى نظرية وحدة الوجود » ثم يقول

« ولم يكن لمذهب وحدة الوجود . وجود فى الإسلام فى صورته الكاملة . قبل ابن عربى ، فهو الواضع الحقيقى لدعائمه . والمؤسس لمدرسته والمفصل لمعانيه ومراميه . والمصور له بتلك الصورة النهائية التى أخذ بها كل من تكلم بهذه المذاهب من المسلمين من بعده » .

ثم يقول « إن الأقوال المأثورة عن أبى يزيد البسطامى والحلاج بل عن أبى الفارض المعاصر لابن عربى [٢] ليست فى نظرى دليلا على اعتقادهم فى وحدة الوجود بل على أنهم كانوا رجالا فنوا فى حبهم لله عن أنفسهم . وعن كل ما سوى الله فلم يشاهدوا فى الوجود غيره . وهذه وحدة شهود . لا وحدة وجود . وفرق بين فيض العاطفة وشطحات الجذب . وبين نظرية

---

(١) ص ٢٥ و ٢٦

(٢) حكى المقريزى فى ترجمة عمر بن الفارض أن محي الدين . بعث إلى عمر فى شرح (التائية . . أو نظم السلوك) فقال الشاعر . كتابك المسمى بالفتوحات شرح لها .

فلسفية فى الإلهيات . أى فرق بين الحلاج الذى صاح فى حالة من أحوال جذبه بقوله « أنا الله » أو بين بن الفارض الذى أفناه حبه لمحبوبه عن نفسه فلم يشعر إلا بالاتحاد التام به فقال :

متى حلت عن قولى «أنا هى» أو أقل وحاشا لمثلى إنها فى حلت

أقول فرق بين هذين الرجلين . وبين ابن عربى الذى يقول فى صراحة لا موارية فيها ولا لبس . معبراً لا عن وحدته بالذات الإلهية . ولا عن فنائه فى محبوبه . بل عن وحدة الحق والخلق » .

ومن عجب أن الدكتور يأتى بمشهد لمحيى الدين . من كتابه . شجرة الكون . بمشهد يتكلم فيه محيى الدين على لسان العرش . وهو يسبح بحمد الله . ويتغنى بمحامده وجلاله . وكل شىء فى الكون يسبح بحمد الله . سيده ومولاه . ليتخذ منه دليلا عجبا على وحدة الوجود (١) .

يقول محيى الدين على لسان العرش .

« أقسم بعلىّ عزته ، وقوى قدرته ، لقد خلقنى ، وفى بحار أحديته غرقنى . وفى بيداء أبديته حيرنى . تارة يطلع من مطالع أبديته . فينعشنى وتارة يناجينى بمناجاة لطفه فيطربنى ، وتارة يواصلنى بكاسات حبه فيسكرنى وكلما استعذبت من عربدة سكرى . قال لسان أحديته « لن ترانى » فذبت من هيبته فرقا . وتمزقت من محبته قلقا ، وصعقت عند تجلى عظمته . كما خر موسى صعقا ، فلما أفقت من سكرة وجدى به . قيل لى . أيها العاشق .

---

(١) مقدمة النصوص . طبع عفيفى .

هـذا جمال قد صناه ، وحسن قد حجبناه ، فلا ينظره إلا حبيب قد اصطفيناه » .

يأتى الدكتور بهذا المشهد الإيمانى العظيم ليستدل به على عقيدة محيى الدين فى وحدة الوجود . وإنه لدليل من نوع أدلة أساتذته رجال الاستشراق ، دليل أعد الاتهام فيه . حتى قبل قراءة البيان والبرهان .

يقول الامام البوصيرى رضى الله عنه .

وإذا لم يصحب العلم ذوق وجد الشهد من الجهل صابا

وإلى هنـا والدكتور يردد أقوال أستاذه نيكولسون تماما . ولا يتمرد على تلك الأستاذية المحببة . ولـكن التلميذ يجزع ويتمرد. فقد أوشك أستاذه فى جذبة روحية ، على تبرئة محيى الدين . من وحدة الوجود . والتلميذ أحرص من أستاذه على تجريح شيخ المتوصوفة الأكبر.

يقول نيكولسون . فى كتابه « فى التصوف الإسلامى » (والصوفى لا يدين بوحدة الوجود ، ما دام يقول بتنزيه الله تعالى . مهما صدر عنه من الأقوال المشعرة بالتشبيه . فاذا راعى جانب التنزيه . شاهد الله فى كل شىء . واعتبره فى الوقت نفسه ، فوق كل شىء وهذه وحدة شهود ، لا وحدة وجود » .

وبهذا الشرط الذى اشترطه نيكولسون خرج محيى الدين من التهمة دون أن يدرك المستشرق الـكبير . ولـكن الدكتور التلميذ أدرك خطورة الأمر فأسرع يعقب على أستاذه قائلا :

« ولـكننا يجب أن نتذكر أن محيى الدين . وهو من أساطين مذهب

وحدة الوجود بل واضع أساس هذا المذهب فى الاسلام . قد قال بالتنزيه والتشبيه معا ولم يغفل لحظة واحدة عن قرن أحدهما بالآخر . فهل كان هذا الصوفى من أصحاب وحدة الشهود . لا وحدة الوجود على حد تعبير الأستاذ ... ؟ » .

ولم يجب الأستاذ ولا التلميذ على هذا السؤال الخائر . لأنه بنى على حقيقة علمية . وحقيقة صوفية . بنى على الحقائق التى أدت إلى براءة محيى الدين من هذا الأفك المتهالك .

والحقائق دائما تهدى إلى الصواب ، وترشد إلى الصراط المستقيم دائما الصراط المستقيم . الذى هو شعار الصوفية . وإليه يتحاكمون . وإليه يجب أن يحاكمهم العلماء وأحرار الفكر الذين ينشدون الحقائق .

ابن تيمية ووحدة الوجود :

ولقد أخطأ فى فهم تلك القاعدة . رجل أكبر من الأستاذ وتلميذه . رجل من رجال الفكر الإسلامى . هو العلامة ابن تيمية . فلقد اهتدى إلى تلك القاعدة العلمية . قبل أن يهتدى إليها نيكولسون . ولكنه أخطأ كما أخطأ نيكولسون وتلميذه . لأنه أيضاً لم يجب على السؤال الخائر .

أخطأ ابن تيمية . لأنه تمسك بحرفية النصوص الدينية وهو من أساطينها ، وحرفية الألفاظ ، وهو من علمائها ، فلم يطلق عقله من قيودها ، ولم يستعمل الذوق الوجدانى ، أو الذوق القلبى فى تفهمها ، كان من رجال العقول ، لا القلوب ، من رجال الألفاظ ، لا المعانى فلم يفهم لغة القلب ، ولم يتذوق مواجيد الروح .

يقول نيكولسون : « إن الصوفى لا يدين بوحدة الوجود ما دام يقول بتنزيه الله تعالى ، مهما صدر عنه من الأقوال المشعرة بالتشبيه ، فإذا راعى جانب التنزيه ، شاهد الله فى كل شىء . واعتبره فى الوقت نفسه فوق كل شىء » .

الصوفى المحب الفانى يشاهد الله فى كل شىء ، وفى الوقت نفسه يعتبره فوق كل شىء ، تلك هى الحقيقة الصوفية التى عجز عباد الألفاظ ، عبيد القوالب والتراكيب الكلامية عن فهمها فظنوا بالمتصوفة وحدة الوجود ، وهم عباد الرحمن الذين تطوعوا لعبادة ربهم فوق الفرائض والنوافل ، حتى ليعتبرون العبادة واجباً عليهم فى كل نفس من أنفاسهم .

الصوفى الحقيقى المحب الفانى فى مولاه ، لا يرى فى الوجود إلا الله ، وأن كل شىء لله ، ومن الله و بالله ، فنسب كل شىء إلى الله ورأى الله فى كل شىء ، هو الفاعل والمدبر . رأى الله فى كل شىء ، رؤية معنوية لا مادية ، تؤدى إلى الحلول أو وحدة الوجود .

يقول تعالى « وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام » فهل الجوارى لله أم لعباده ؟

و يقول جل جلاله « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون »

و يقول تبارك وتعالى « وما تشاؤن إلا أن يشاء الله » « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

آيات بينات تنطق بنسبة كل شىء إلى الله . أى النسبة الحقيقية لا الظاهرية ، فهل فى هذا أيضاً وحدة وجود ؟ أم هو التوحيد الصافى الطاهر المقدس .

يقول الإمام ابن تيمية فى كتابه العبودية (١) متحدثا عن مقام الفناء.

الفناء فى المحبة الإلهية .

(الفناء عن إرادة ما سوى الله . بحيث لا يحب إلا الله . ولا يعبد إلا إياه . ولا يتوكل إلا عليه . ولا يطلب من غيره . وهو المعني الذى يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال : أريد أن لا أريد : أى المراد المحبوب المرضى، وهو المراد بالإرادة الدينية . وكمال العبد . أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله . ورضيه وأحبه . وهذا معنى قولهم فى قوله تعالى — إلا من أتى الله بقلب سليم — قالوا هو السليم مما سوى الله . أو مما سوى عبادة الله أو مما سوى إرادة الله . أو مما سوى محبة الله . فالمعنى واحد . وهذا المعنى إن سمى فناء أو لم يسم . هو أول الإسلام وآخره . و باطن الدين وظاهره) .

ثم يتحدث ابن تيمية عن المقام الثانى من مقامات الفناء فيقول :

« وأما النوع الثانى . فهو الفناء عن شهود السوى . وهذا يحصل لكثير من السالكين . فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد . وترى غير ما تقصد . لا يخطر بقلوبهم غير الله . بل ولا يشعرون . كما قيل فى قوله تعالى — وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كانت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها — قالوا فارغا من كل شىء إلا من ذكر موسى . وهذا كثيرا ما يعرض لمن دهمه . أمر من الأمور إما حب . وإما خوف وإما رجاء . يبقى قلبه

---

(١) ص ٩٦

منصرفا عن كل شيء إلا مما قد أحبه أو خافه أو طلبه . بحيث يكون عند استغراقه فى ذلك لا يشعر بغيره فاذا قوى على صاحب الفناء هذا ، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده و بمشهوده عن شهوده . وبمذكوره عن ذكره. و بمعروفه عن معرفته حتى يفنى من لم يكن . وهو المخلوقات المبعدة عن سواه . ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى . والمراد فناؤها فى شهود العبد وذكره . وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها . وإذا قوى هذا . ضعف الحب حتى يضطرب فى تميزه . فقد يظن أنه هو محبوبه . كما يذكر أن رجلا ألقى نفسه فى اليم فألقى محبه نفسه خلفه . فقال : أنا وقعت فمن أوقعك خلفى : قال : غبت بك عنى . فظننت إنك إنى) .

أليست تلك المقامات من حالات الفناء . هى المقامات التى يرمى فيها المتصوفة بوحدة الوجود .

يقول ابن تيمية خصم التصوف الأكبر . وخصم محيي الدين (فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد . وترى غير ما تقصد) .

وهل قال المتصوفة أكبر من هذا القول . ومن عجب أن ابن تيمية يهاجم التصوف والمتصوفة لأنهم يقولون إنهم فى نشوتهم الكبرى لا يرون إلا الله ويذهلون عما سواه أى نفس ما يقول ابن تيميه .

إنهم ليرون الله فى كل شيء . ومع ذلك يوقنون بأنه سبحانه فوق كل شيء . وهذا أكمل درجات التوحيد .

ويقول ابن تيمية أيضا فى مجموعة رسائله[1] وأما قول الشاعر فى شعره .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوى . كاتحاد أحد المحبين بالآخر . الذى يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغضه . ويقول مثل مايقول ويفعل مثل ما يفعل . وهذا تشابه وتماثل . لا اتحاد العين بالعين . إذ كان قد استغرق فى محبوبه . حتى فنى به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر .

غبت بك عنى فظننت أنك أنى

فهذه الموافقة . هى الاتحاد السائغ .

ويقول ابن تيميه أيضا فى الرسائل[2] « روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى بقوله تعالى — من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة — فقوله من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة . فجعل معاداة عبده الولى . معاداة له فعين عدوه . عين عدو عبده . وعين معاداة وليه . عين معاداته . ليسا هما شيئين متميزين » .

ويذكر أيضا ابن تيمية حديثا رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى . يقول الله تعالى «عبدى مرضت فلم تعدنى . فيقول يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلو عدته لوجدتنى عنده . عبدى جعت فلم تطعمنى . فيقول : رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى » .

---

(١) ص ٥٢

ولم أجد ردا على أبن تيمية فى هجومه على المتصوفة وعلى شيخهم الأكبر أبلغ من قوله . ولم أجد شاهدا أكبر دلالة مما استشهد به هو من القرآن الكريم « وأصبح فؤاد أم موس فارغا » ولا أعظم من تفسيره إذ يقول أصبح فؤادها فارغا مما سوى موسى .

- وقلب الصوفى يا شيخ الاسلام ويا أمام من يتسمون بأهل السنة . ومن يحاربون المتصوفة أصبح فارغا مما سوى الله فلا يرون فى الوجود سواه . وربنا سبحانه وتعالى أكبر وأعظم من أن يشبه بعبد من عباده أو برسول من رسله ، تلك كلمة الفل فى وحدة الوجود . ومقامات الفناء عند الصوفية وحقيقة توحيدهم الاكبر . والله يهدى الى الحق يرشد إلى سواء السبيل .

عقيدة محي الدين الالهية

بقلمه

وكأنما نظر محي الدين بلحاظ الغيب . فعلم أن الخصومات العمياء ستلاحقه بعد موته بالأفك والبهتان . فسجل فى مقدمة الفتوحات عقيدته إلا إلهية فى الذات العلية لتكون الحجة الكبرى على من يتقول عليه ظلما وجهلا . . قال :

فيا إخوتى ويا أحبائى رضي الله عنكم أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى فى كل لحظة وطرفة وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئه أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله تعالى وملائكته ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولا وعقدا أن الله تعالى إله واحدا لا ثانى له فى ألوهيته منزه عن الصاحبة والولد مالك لا شريك له ملك لا وزير له صانع لا مدبر معه موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى فى وجوده فالعالم كله موجود به وهو وحده متصف بالوجود لنفسه لا افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه ليس بجوهر متحيز فيقدر له المكان ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء مقدس عن الجهات والأقطار مرئى بالقلوب والأبصار إذا شاء أستوى على عرشه كما قاله وعلى المعني الذى

أراده كما أن العرش وما سواه به استوى وله الآخرة والأولى ليس له مثل معقول ولا دلت عليه العقول لا يحده زمان ولا يقله مكان بل كان ولا مكان وهو على ما عليه كان خلق المتمكن والمكان وأنشأ الزمان وقال أنا الواحد الحي لا يؤوده حفظ المخلوقات ولا ترجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعة المصنوعات تعالى أن تحله الحوادث أو يحلها أو تكون بعده أو يكون قبلها بل يقال كان ولا شيء معه فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذى أبدعه فهو القيوم الذى لا ينام والقهار الذى لا يرام ليس كمثله شيء خلق العرش وجعله حد الاستواء وأنشأ الكرسى وأوسعه الأرض والسموات العلى اخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتبا بعلمه فى خلقه إلى يوم الفصل والقضاء أبدع العالم كله على غير مثال سبق وخلق الخلق وأخلق الذى خلق أنزل الأرواح فى الأشباح أمناء وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح فى الأرض خلفاء وسخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه فلا تتحرك ذرة إلا إليه وعنه خلق الكل من غير حاجة إليه ولا موجب أوجب ذلك عليه لكن علمه سبق بأن يخلق ما خلق فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا يعلم السر وأخفى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور كيف لا يعلم شيئا هو خلقه؟ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟ علم الأشياء منها قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما علمها فلم يزل عالما بالأشياء لم يتجدد له علم عند تجدد الانشاء بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها وبه حكم عليها من شاء وحكمها علم الكليات على الاطلاق كما علم الجزئيات بإجماع

من أهل النظر الصحيح واتفاق فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى الله عما يشركون فعال لما يريد فهو المريد الكائنات فى عالم الأرض والسموات لم تتعلق قدرته بشىء حتى أراده كما أنه لم يرده حتى علمه إذ يستحيل فى العقل أن يريد مالا يعلم أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل مالا يريد كما يستحل أن توجد نسب هذه الحقائق فى غير حى كما يستحل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها فما فى الوجود طاعة ولا عصيان ولا ربح ولا خسران ولا عبد ولا حر ولا برد ولا حر ولا حياة ولا موت ولا حصرل ولا فوت ولا نهار ولا ليل ولا اعتدال ولا ميل ولا بر ولا بحر ولا شفع ولا وتر ولا جوهر ولا عرض ولا صحة ولا مرض ولا فرح ولاترح ولا روح ولا شبح ولا ظلام ولا ضياء ولا أرض ولا سماء ولا تركيب ولا تحليل ولا كثير ولا قليل ولا غداة ولا أصيل ولا بياض ولا سواد ولا رقاد ولا سهاد ولا ظاهر ولا باطن ولا متحرك ولا ساكن ولا يابس ولا رطب ولا قشر ولا لب ولا شىء من هذه النسب المتضادات منها والمختلفات والمتماثلات إلا وهو مراد للحق تعالى وكيف لا يكون مرادا له وهو أوجده فكيف يوجد المختار مالا يريد ؟ لاراد لأمره ولا معقب لحكمه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويضل من يشاء ويهدى من يشاء ماشاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئاً لم يرد الله تعالى أن يريدوه ما أرادوه أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله تعالى إيجاده وأرادوه عند ما أراد منهم أن يريدوه ما فعلوه ولا استطاعوا على ذلك ولا أقدرهم عليه فالكفر

والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمه وإرادته ولم يزل سبحانه موصوفا بهذه الإرادة أزلا والعالم معدوم غير موجود وإن كان ثابتاً فى العلم فى عينه ثم أوجد العالم من غير تفكر ولا تدبر عن جهل أو عدم علم فعطيه التفكر والتدبر علم ما جهل جل وعلا عن ذلك بل أوجده عن العلم السابق وتعيين الارادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان وأكوان وألوان فلا مريد فى الوجود على الحقيقة سواه إذ هو القائل سبحانه وما تشاؤن إلا أن يشاء الله وأنه سبحانه كما علم فاحكم وأراد فخصص وقدر فأوجد كذلك ورأى ما تحرك أو سكن أو نطق فى الورى من العالم الأسفل والأعلى لا يحجب سمعه البعد فهو القريب ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد يسمع كلام النفس فى النفس وصوت المماسة الخفية عند اللمس ويرى السواد فى الظلماء والماء فى الماء لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور وهو السميع البصير تكلم سبحانه لا عن صمت متقدم ولا سكوت متوهم بكلام قديم أزلى كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته كلم به موسى عليه السلام سماه التنزيل والزبور والتوراة والانجيل من غير حروف ولا أصوات ولا نغم ولا لغات بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات فكلامه سبحانه من غير لهاة ولا لسان كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان كما أن إرادته فى غير قلب ولا جنان كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر فى برهان كما أن حياته من غير غتر بخار أو تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان فسبحانه سبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عميم الاحسان جسيم

الامتنان كل ما سواه فهو عن جوده فائض وعدله الباسط له والقابض أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه لا شريك له فى ملكه ولا مدبر معه فى ملكه إن أنعم فنعم فذلك فضله وإن أبلى فعذب فذلك عدله لم يتصرف فى ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف ولا يتوجه عليه لسواه حكم فيصتف بالجزع لذلك والخوف كل ما سواه تحت سلطان قهره ومتصرف عن إرادته وأمره فهو الملهم نفوس المكلفين التقوى والفجور وهو المتجاوز عن سيئات من شاء والآخذ بها من شاء هنا وفى يوم النشور لا يحكم عدله فى فضله ولا فضله فى عدله أخرج العالم قبضتين وأوجد لهم منزلتين فقال هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى ولم يعترض عليه معترض هناك إذ لا موجود كان ثم سواه فالكل تحت تصريف أسمائه فقبضة تحت أسماء بلائه وقبضة تحت أسماء آلائه ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان أو شقياً لما كان من ذلك فى شأن لكنه سبحانه لم يرد فكان كما أراد فمنهم الشقى والسعيد هنا وفى يوم المعاد لا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه القديم وقد قال تعالى فى الصلاة هى خمس وهى خمسون ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد لتصرفى فى ملكى وإنفاذ مشيئتى فى ملكى وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر إلا بوهب إلهى وجود رحمانى لمن اعتنى الله به من عباده وسبق له ذلك بحضرة إشهاده فعلم حين أعلم أن الألوهة أعطت هذا التقسيم وأنه من رقائق القديم فسبحان من لا فاعل سواه ولا موجود لنفسه إلا إياه. والله خلقكم وما تعملون . ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين .

أثر محيي الدين فى النهضة الاوربية

يقول كلود فاريرا ، أحد مؤرخى فرنسا وأدبائها . ان هزيمة العرب فى بواتيه، قد أخرت المدنية الغربية ثمانية قرون .

ويستطيع كلود فاريرا . أيضا أن يقول . إن فتح العرب لأسبانيا ، والتقاء أوربا بالحضارة الاسلامية فى الاندلس ، هو الذى غير مجرى التاريخ الأوربى . وهو الذى بعث أوربا ووضع أقدامها على الطريق العريض ، الذى ذهب بها، إلى حضارتها العلمية الحديثة .

لقد كانت المعاهد العلمية الاسلامية فى الأندلس . هى المنارات التى ترسل الهدى والنور إلى أرجاء أوربا ، وهي المناهل العذبة التى هرع إليها رجال الطليعة الأوربية ، ليتزودا من معارفها ويقتبسوا من نورها ، ثم يعودون إلى بلادهم مبشرين ومنذرين وداعين إلى العلم والفكر الاسلامى يقول « جونس » المؤرخ المعاصر لفولتير ، لقد كانت تعاليم ابن رشد هى الراية التى يتقاتل حولها الأحرار من رجال الفكر الأوربى ، وكانت كتب الرازى وابن سينا هى القمم العليا فى معاهد الطب ومدارس العلم فى ايطاليا وفرنسا .

بل أعظم من هذا فى الدلالة وأعجب . إن النهضة الدينية نفسها فى أوربا ، تدين لمعلمى الأندلس عامة ومتصوفة الأندلس خاصة ، بالبعث والحياة .

لقد كانت المعارف الدينية فى أوربا، طلاسم وأحجية وأسرار، تظللها أردية الرهبان المقدسة، وتحتكرها طوائفهم أصحاب القسوة العالمية. معارف مظللة لاتقبل جدلا ولا حوارا ولا تطيق علما، ولا ترضي منطقا. بل تسخر كل ما ترى لأهوائها ونزواتها، متغالية مترفعة لا تعلل. ولا ترضى أن يسألها إنسان عما تفعل.

وكان رجالها، يبيعون الجنة، ويهبون الفردوس الأهلى. لكل من يدفع مالا، أو يرضى شهوة، أو يعين على مآرب من مآرب السياسة والهوى.

ثم نظرت أوربا بعين الاجلال والدهشة إلى المعارف الدينية الاسلامية فى الأندلس، وهى ثروة مباحة لكل قاصد، ومنهل يتدفق لكل راغب. وساحة للآراء، ومنتدى للمناظرة، ومجالا لكل صوال وقوال. فلاأسرار ولاأقنعة، ولا، لاهوت مخبوء تحت أردية الكهان والرهبان محاط بالأسرار والظلمات بل معارف وعلوم تساهم فى احداث الحياة، وتشرح مواقف العقول ومعضلات الفكر، وتلين لكل مجتهد، وتفتح صدرها لكل متفنن مبتكر، وتهب نورها بالقسط لكل مؤمن.

نظرت أوربا إلى تلك الحرية الهائلة، التى يتمتع بها العرب فى النظر إلى الدين الاسلامى، والى تلك القوة الهائلة المتفجرة من ينابيع الهدى المحمدى، فأقبلت عليه تسترشد وتتزود ثم تعيد نظرها فى لاهوتها المسيحى، محاولة أن تنفخ فيه الحياة وأن تلقحه بالمنعشات وأن تمسه بسحر الحرية، وأن تنقله من أبراجه إلى الأفق العام، ليكون آية للناس كافة. لاحماية للقسس والرهبان فحسب.

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه « أثر العرب فى الحضارة الأوربية »
«ان الفلسفة الصوفية الاسلامية،هى الطريق التى ظهر منها ما ظهر من آثار التفكير الجديد فى العالم المسيحى وفى العقائد الأوربية على الاجمال . ونظرة واحدة إلى أرقام السنين التى ازدهر فيها اللاهوت المسيحى ونجحت فيها دعوة الاصلاح الدينى، ترينا أن ذلك لم يحدث قبل احتكاك أوربا بالحضارة الاسلامية فى الاندلس » .

ويشير العلامة « نيكولسون » فى مجموعة تراث الإسلام،إلى المشابهات بين أقوال الصوفية المسلمين ، وأقوال الصوفية الأوربيين من الأقدمين ، مثل اكهارت الألمانى ، والمحدثين مثل،ادوارد كاربنتر الانجليزى . ثم يقول « أن النهضة الأوربية لم تظهر لها علامة واحدة قبل الاحتكاك بينهم وبين المسلمين . فإن دروس العرب فى جامعات الأندلس حضرها رجال الدين والدنيا من سائر أنحاء أوربا ... »

تلك شهادة كاتب أوربى معاصر ، صريحة فى أن النهضة الأوربية لم تظهر لها علامة واحدة،قبل الاحتكاك بينهم وبين المسلمين ، وصريحة أيضاً فى أن دروس العرب فى جامعات الأندلس قد حضرها رجال الدين والدنيا من سائر أنحاء أوربا ، ثم انقلبوا إلى شعوبهم مبشرين وداعين إلى العلم الجديد المشرق فى سموات الأندلس .

ثم يواصل « نيكلسون » بحثه فى أثر الأندلس فى البعث الأوربى فيقول « أن ابن عربى عبقرى الإسلام فى الأندلس ، بدراساته الجريئة فى الالهيات ، ومشاهداته الكبرى فى عالم الروح ، قد عبد السبل أمام

اللاهوت المسيحى، للنهوض والتحلل من القيود » . ثم يقول « وأثر ابن عربى فى النهضة الأوربية لم يقتصر على هذا ، بل له آثاره فى بعث الأدب الأوربى أيضاً . فاذا قابلنا بين ما كتبه دانتى مثلا حينما نظم الكوميديا الالهية وبين ما كتبه ابن عربى نرى أن دانتى، قد تتلمذ على ابن عربى تلمذة واضحة فى النهج والأسلوب والطريقة . بل وفى الصور والأمثال والاصطلاحات والأساليب الفنية » .

وليس « نيكلسون » وحده هو الذى يقول هذا بل نرى أيضاً المستشرق الكبير « آسين بلاسيوس الأسبانى » يشهد بأن نزعات دانتى الصوفية فى كتبه . وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من ابن عربى بغير تصرف كبير ، ثم يقول بعد ذلك « أن ابن عربى هو الأستاذ الحقيق للنهضة الصوفية الدينية فى أوربا » . ولنستمع إليه إذا يحدثنا قائلا :

« ومن المعلوم . أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين وهو — جوهان اكهارت الألمانى — قد نشأ فى القرن التالى لعصر ابن عربى ، ودرس فى جامعة باريس وهي الجامعة التى كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية فى الحكمة والعلوم ، واكهارت يقول كما يقول ابن عربى بأن الله هو الوجود الحق ولا موجود على الحقيقة سواه . وأن الحقيقة الالهية تتجلى فى جميع الأشياء ، ولا سيما روح الإنسان التى سعادتها الكبرى فى الاتصال بالله عن طريق الرياضة والمعرفة ، والتسبيح والتحميد . وأن صلة الروح بالله ، ألزم من صلة المادة بالصورة ، والأجزاء بالكل . والأعضاء بالأجسام .

ومن هذه الفلسفة قبسات واضحة فى مذهب « سبينوزا » الذى نشأ

فى هولندا وأصله من يهود البرتغال الذين أكرهوا على الدين المسيحى ، فقد كان كلامه عن الذات والصفات ، وتجلى الخالق فى مخلوقاته وتلقى الخلق نور المعرفة الصحيحة بالبصيرة والإلهام ، نسخة من فلسفة ابن عربى .

والفيلسوف المتصوف الأسبانى — رايموند لول — قد اقتبس معارفه عن أسماء الله تعالى وأثرها فى الكون من كتاب ابن عربى « أسماء الله الحسنى » وكان رايموند يحسن العربية وعاش بعد ابن عربى فانتحل الكثير من تراثه ، وراح يزود المكتبة الأوربية بالروائع التى تدل معانيها فى وضوح وجلاء على صحة أبوة محيى الدين لها ، لا سيما وهذا اللون من العلوم لم تعرفه من قبل الديانة المسيحية .

ولسنا هنا نتصيد الدلالات على أثر محيى الدين فى النهضة الأوربية الحديثة بشقيها الدينى والأدبى ، فكتب التاريخ الأوربى عامة ، وكتب رجال الاستشراق خاصة ، تشهد بأن ابن عربى الفيلسوف الصوفى ، كما يسمونه . كان له أكبر الأثر فى عقول النساك ورجال الاصلاح الدينى والمتصوفة من فقهاء المسيحية الذين ظهروا بعده ، بل إن مذهبه العالمى فى المحبة الذى يمثله قوله .

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وأيمانى

قد اتخذه فقهاء المسيحية، بل ورجال الإصلاح فيها لهم، شعاراً ودثاراً .

ولقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن أثر ابن عربى فى الإصلاح الدينى فى اللاهوت المسيحى ، لا يقل عن أثر مارتن لوثر نفسه . أو على الأقل هو الذى مهد له الطريق ، وأنار الجادة بهتافه الحار ، للحرية الفكرية ، والحرية

العلمية فى تناول المعرفة ، وبدعوته إلى الاجتهاد، وفتح بابه للناس كافة ، وعدم تقديس الآراء السابقة ، بل وعدم التقيد بقيودها ، مادامت قد صدرت من عقول بشرية، لا من حقائق إلهية .

كما كان له أكبر الأثر فى الأدباء الربانيين ، من أمثال دانتى وغيره، حتى ليقول المستشرق «آسين» الأسبانى « أن أوصاف الجنة والنار والعروج إلى السماء والأقباس الروحية والنشوة القلبية فى الأدب الأوربى الحديث ، كلها تستمد أصولها الأولى من ابن عربى وفلسفته الكبرى ، التى نشرت أجنحتها الفضية قرونا على الأفق الغربى .

ذلك بعض ما يقال فى أثر محيى الدين فى النهضة الأوربية . وذلك بعض ما يقوله أئمة القلم فى أوربا عن محيى الدين . وعن فلسفته الكبرى التى نشرت أجنحتها الفضية قرونا على الأفق الغربى .

الأفق الغربى ، الذى يأتى من ضفافه أحد المعجبين ببروقه اليوم . من المتعلمين من رجالنا . فينظر إلى محيى الدين ويبتسم ، ويقول . من محيى الدين . ؟

فيعيد من جديد قصة الناموسة التى تنفخ على الجبال . .

الشيخ الأكبر

التصوف ، هو قلب الاسلام الخافق بالشوق والمحبة . وهو أيضا فلسفة الإيمان ، التى ظفرت بالعلوم الكونية ، وآمنت فى الإلهيات لاعتمادها على الدين والوحى .

و بالتالى فالتصوف الإسلامى ، هو صاحب العلم المحيط الشامل لجميع الحقائق . هو الفيلسوف العالمى ، الذى جمع المعارف كافة . وتميز بإيمان ، يمشى فى مواكب الأنبياء ، وهدى الرسل ، ورضاء الله ومحبته .

وإذا قلنا التصوف هو الفلسفة الكاملة . فإننا نقصد إلى هذه الكلمة قصدا ، ونتجه إليها عن عمد ، ونحن نعلم أن السفهاء من الناس سيقولون كما قال بعض أربابهم من رجال الاستشراق ، إن قيود الاسلام قد حجرت على العقول فى المجتمعات الإسلامية ، فباعدت بينها و بين ألفكر والفلسفة وسيقولون أيضا ، كما قال بعض أربابهم من متعصبى اوروبا ، إن الأمة الاسلامية عامة ، والعربية خاصة لم تعرف التفكير الفلسفى ، والنهج العلمى ، ولن تعرفهما ، لقصورها الذاتى ، وحياتها الفاترة الجامدة ، على شواطىء الأوهام والخيالات .

لقد جالت العقول الاسلامية ، فى المعارف الكونية ، جولاتها الموفقة الفاتحة ، وتناولت فيما تناولت المسائل الفلسفية الكبرى على ضوء إيمانها

وكتابها الرباني . كما جال المتصوفة بصفة خاصة فى آفاقها وسمواتها ومعارجها .

وأنما الفرق بينهم وبين فلاسفة اليونان ، أنهم لم ينظروا فى المسائل الفلسفية لذاتها، كموضوعات علم مستقل مرتبط الأجزاء . بل اعتبروها مسائل دينية منطويه تحت أجنحت رسالتهم الكبرى فعالجوها على هذا الضوء وتناولوها على هذا الهدى .

وأذن فالفلسفة عندهم ، لم تجرد من الدين ولم تفصل عنه . ولم ترتب مسائلها فى علوم مستقلة قائمة بذاتها خارجة عن دائرة الوحى والايمان ، ولهذا لم يؤلف المتصوفة الاسلاميون كتبا فى المنطق والجدل لبيان أصولها وطرقها ولم يتركوا دراسات فى المناهج العلمية التى تصعد بالاستقراء من الجزئى إلى الكلى ، وتنزل بالقياس من الكلى إلى الجزئى . ولكنهم مع ذلك جادلوا وتحاكموا إلى المنطق ، وأوضحوا الطرق ، ومهدوا السبل ، وقاسوا جريا مع فطرة العقل ، دون تقيد بحرفية القواعد ، ما دامت روح تلك القواعد ، قد سلمت وعاشت ، وترعرعت تحت ظلالهم .

ولم يؤلف المتصوفة الاسلاميون . كتبا فى علم النفس والأخلاق ، ولا فى تعريف الجسم والحركة والزمان والمكان ، على نحو المنهج اليونانى والنهج الأوربى .

ولكنهم بلا ريب . قد تركوا مكاتب الاسلام عامرة زاخرة بأروع الدراسات النفسية والخلقية، وأنضج الآراء فى تعريف الأجسام والحركات ، وخصائص الزمان والمكان .

فالذى يجرد الاسلام من الفلسفة ، هو الذى يتمسك بقشور الفلسفة — أو وثنياتها . أما من ينشد الروح والجوهر والايمان ، فقد بلغ بهم المتصوفة الاسلاميون ، أعلى قمم التصعيد والتفوق .

ومحيي الدين ، هو المثل الكامل للصوفى الفيلسوف المسلم ، الذى أحاط بمعارف عصره بل وسبق ذلك العصر ، إلى آفاق لا تزال الانسانية ، تجهد قواها ، وتحشد مواهبها للوصول إليها .

كما اختص محي الدين بفيض دافق من الينابيع والالهامات القلبية ، أو بلغة التصوف ، بالهبات والعطايا الربانية ، وهى موارد إلهية لا تنفد ولا تحد ، ولا تسابقها عزمات ، ولا تطاولها معارف ، وانما هى فيوضات تتنزل من لدنه تعالى ، على قلوب عباده ، والسنة محبية ، وأقلام من اصطفاهم واجتباهم لحمل أمانة العلم ، ورسالة المعرفة .

ولا يمكننا ، ونحن نؤرخ لعبقرية محي الدين وفلسفته . أن نطبق عليه ما اصطلحت عليه الأقلام من استنطاق الهيئة ، وتقصى الدراسات التى تزود بها ، والدوافع والكوامن النفسية إلى أحاطت به . وتفاعلت مع عواطفه وأحاسيسه فكونته وصاغته .

لا يمكننا هذا . لأن محي الدين ، عجيبة من عجائب التصوف ، وصنيعة من صنائع الايمان . ولطيفة من لطائف التقوى ، وقبسا من إقباس النور الذى يشرق فى الأرواح المتطهرة العابدة .

إن محي الدين ، لم تكونه عوامل المحبة الجنسية ، التى تكون الشعراء والأدباء . ولم تصقله الشكوك والريب والقسوة ، التى تلهب الأذكياء . ولم

تدفعه عوامل البيئة والزمان والمكان ، إلى الوثوب والاعتلاء .

وانما صاغته سبحات الروح ، وكونته الهامات القلب ، وأبرزته الجلوة والخلوة ، والحضرة والمحبة . ورعته وحبته عناية الله . التى ترعى وتحبوا المؤمنين . وتعلم وتلقن العابدين الساجدين . الذين قعدوا على بابه الأسنى . مجردين حتى من أنفسهم فى انتظار النفحات والهبات . فدخلوا تحت ظلال الآية الكريمه « عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » .

طريقته فى التأليف

يقول محيى الدين

« فإن تأليفنا هذا وغيره ، لا يجرى مجرى التآليف ولا نجرى فيه نحن مجرى المؤلفين . فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره ، وإن كان مجبورا فى اختياره . أو تحت العلم الذى تعلمه خاصة ، فيلقى ما يشاء ويمسك ما يشاء ، أو يلقى ما يعطيه العلم وتحكم عليه المسألة التى هو بصددها ، حتى يبرز حقيقتها ، ونحن فى تأليفنا لسنا كذلك . إنما هى قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية . مراقبة لما ينفتح له الباب ، فقيرة خالية من كل علم ، لو سئلت فى ذلك المقام عن شىء ، ما سمعت لفقدها إحساسها فهما برز لها من وراء ذلك الستر أمر ما ، بادرت لامتثاله وألقته على حسب ما حد لها فى الأمر »

قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية . مراقبة لما ينفتح له الباب . هذا هو صفوة ما يقال فى عبقرية أهل الله ، ومن هذا الباب كانت معارف محيى الدين . معارف متلاحقة متدفقة ، ممتزجة متداخلة متشابكة ، أشبه بدائرة المعارف ، التى ليست لها أبواب ولا مناهج ، بل هى بحار زاخرات متلاطمة المعانى جبارة الأمواج .

يقول رجال الدنيا . إن العبقرية صبر طويل وكفاح مرير . أما رجال التصوف فالعبقرية عندهم سجود القلب الطويل ، فى محراب النور والهدى . والمجاهدة المريرة الشاقة ، التى توصل إلى الباب الأسنى .

العبقرية العلمية عند رجال التصوف ، منحة وخلعة ، وهبة مستفادة من

صفاء الروح وطهارة القلب . ومراعاة الله مع الأنفاس ، فلا يصعد نفس ولا يهبط إلا بذكر الله وخشيته ، والشوق الحار المشبوب بمحبته . وسجود القلب تحت ظلال رؤيته .

وسجود القلب عزم عظيم . لا يطيقه إلا الفحول من أهل الحظوة والفتوة . وملازمة الباب مجردا من كل شيء حتى من نفسه ، مجردا لربه قاصدا إليه ، فحينئذ تهبط الخلع والمنح ، وتترى الهبات والنفحات . وتتنزل العلوم . وتتدفق فى القلب ينابيع من المعارف لا تحد ولا تحصر . « وأتقوا الله ويعلمكم الله »

كتب محيي الدين، إلى فخر الدين الرازى، الإمام العلامة صاحب التفسير المعروف ، رسالة يبين له فيها نقص درجته فى العلم عن أهل الله .

« إعلم يا أخى وفقنا الله وإياك ، أن الرجل لا يكمل عندنا فى مقام العلم حتى يكون علمه عن الله عز وجل ، بلا واسطة من نقل أو شيخ ، فان كان علمه مستفادا من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ من المحدثات ، وذلك معلول عند أهل الله عز وجل ، ومن قطع عمره فى معرفة المحدثات وتفاصيلها فاته حظه من ربه عز وجل ، لأن العلوم المتعلقة بالمحدثات يفنى الرجل عمره فيها ولا يبلغ إلى حقيقتها ، ولو أنك يا أخى سلكت مسلك أهل الله عز وجل لأوصلك الله تعالى إلى حضرة شهوده، فتأخذ عنه العلم ، وما أدراك ما هذا العلم « الذى من رجاله الخضر عليه السلام » .

ذلك هو علم المتصوفة . وهذا هو المصدر الأعلى لمعارف محيي الدين . ومن يرد أن يعرف محيي الدين ، فليلتمس له بابا إلى تلك المعارف ، ويومئذ يعرف محيي الدين . وما أدراك ما محيي الدين ، ثم ما أدراك ما محيي الدين .

مكانته من الفكرة والأسلوب

محي الدين . هو المثل الأعلى للارستقراطية العقليـة . كما هو المثل الكامل للأديب المثالى ، وإذا كان الشعرانى ، يمثـل معارفه بالنسبة إلى معارف المتصوفة بإكسير الذهب ، بالنسبة إلى الذهب . فإن أسلوبه البيانى كما يقول بعض رجال الاستشراق . يشبه عمل الفنان المدقق الذى يتخير الدرر الغالية ، بأكبر عناية ، وأقصى حساسية ، أكثر مما يشبه الثمار الأولى لنوبة من نوبات النشوة الروحية .

أسـلوب محي الدين ، أسلوب الفنان المدقق ، الذى يتخير جواهره ولآلئه . بعناية المتذوق الخبير ، وحساسـية الفنان القدير . فهو لا يشغلك بالألفاظ مع روعتها عن المعانى . ولا بالمعانى على سموها عن الألفاظ . بل لكل نصيبه ومكانه . فهو العالم الأديب ، والأديب العالم ، فى كل جملة له ، معركة عقليـة . وصورة بيانية . والقوة لديه ، قوة فكر وبيان . لا قوة زخرف وتهويل .

ولقد قسم علماء البلاغة تأثيرها إلى قسمين . فالتأثير فى العقول عمل لموهبة المعلمة المفسرة . والتأثير فى القلوب ، عمل الموهبة المشرقة الجاذبة .

ولقد جمع محي الدين بين الموهبتين . فهو لدى العقول المعلم المفسر الذى يعرض عليك ألوانا متتابعة من شتيت الصور والمعانى . على سنان قلم عبقرى ، يحلل ويفصـل . وهو لدى القلوب العازف الماهر ، المترنم بالألحان والمواجيد ، الذى يهبط المعارف من خدورها فيزفها إليك ، مجلاة محلاة ، بالإشراق والنور .

ولمحي الدين أكبر الأثر في لغة التصوف ، فلقد نقلها من لغة القلوب إلى لغة العقول . ومزج بينهما ، فكان منهما معا . أسلوب محي الدين . أسلوب محي الدين الذي تميز به وعرف عنه . وعاش به وله . والذي وثب به وثبات عقلية ولغوية جبارة ، تضيفه إلى المبتكرين العالميين .

ثم تأتي بعد ذلك خصوصية لمحي الدين ، لا يشاركه فيها سواه . وهي سره كما أنها مفتاحه . وذلك أن قارىء محي الدين ، يحس بعد قراءته بأنه قد خلق خلقا جديدا وإنه اطلع على آفاق من الفكر والبيان لم يكن له بها عهد . ثم يشعر بعد ذلك ، بحب غلاب قهار ، يربطه بمحي الدين ، ويمسكه لديه ، ثم يرى إذ كان من أهل الرضا . في كل كلمة من كلام محي الدين محرابا ، وبابا للسماء .

شخصيته

مقام محيي الدين . بين رجال التصوف ، هو مقام السلطنة ، ولعل هذا هذا المقام ، قد أشتق من مكانته وشخصيته .

ولقد أجمع رجال التاريخ على أن محيي الدين ، قد تميز بشخصية جبارة غلابة ، لها جلال ورواء وبهاء ، وسمت ووسامة ووقار . تخشع لديه الطغاة ، ويرجف منه المتكبرون .

حتى إن خصومه ، كانوا إذا واجهوه ، خنعوا والتمسوا لديه عفواً . ومنه تسامحا . وأقبلوا يتمسحون بأطرافه ، ويتبركون بنجواه . ويرجون مغفرة ورضا .

ولقد مر بنا ، أن محيي الدين كان فى مجالسه مع الملوك الناصح الموجه ، الذى يقرع بكلمة الحق القوية أسماعهم ، فيسارعون إلى الاجابة والانابة

ورأينا ملك قونية يلقبه بالوالد . وملك حلب يخاطبه بالمولى . والملك العادل الأيوبى يلتمس منه أجازة بخطه ، تبيح له قراءة كتبه وروايتها .

ثم يحدثنا التاريخ ، إن ملك الروم سعى يوما اليه ، ليزوره وينتفع بعلمه فلما خرج من عنده ، خرج مصفر الوجه مرتعد الجوارح ، فسأله بعض رجاله عن حاله . فقال . هذا رجل تذعر منه الأسود .

وسئل محيي الدين عن سر ذلك الرعب الذى يأخذ بالملوك والأمراء والسادة فى مجالسه فقال . « لقد خدمت بمكة رجلا صالحا ، فدعا الله أن يذل لى أعز خلقه »

محيي الدين الذى سعى اليه الملوك ، وذل له الأمراء والسادة ، صاحب السلطنة والشخصية الآخذة الزاحفة ، كان آية الآيات ، فى الزهد والقناعة والتواضع ، لأنه مؤمن . والمؤمن يعرف أول ما يعرف ، قبر نفسه، وحقيقة واجباته ، ولون رسالته .

هو العزيز القوى ، لدى الملوك والأمراء والسادة . لأنه يجب أن يقرع أسماعهم بكلمة الحق ، يجب أن ينتزع من مخالبهم حقوق الضعفاء . ولا سبيل إلى ذلك ، إلا بالقوة والعزة .

كان محيي الدين آية التواضع للضعفاء . بل الخادم الساعى فى ركاب الصالحين والأولياء . خدم فى أشبيلية امرأة عجوزا عابدة ، وخدم فى مكة رجلا صالحا فقيراً ، وكان يسعى دائماً إلى أمثاله خادما ومعينا ، وهذا فرق ما بين عظماء المتصوفة ، وعظماء الدنيا .

ولعل من أسرار قوته الروحية العظمى ، التى هى أساس بناء الشخصية الكاملة . عزمه القوى . الذى تميز به ، عزمه الذى سلطه على نفسه ، فاخضعها وسيرها وتولاها حتى فى منامها .

يقول ابن شودكين عنه « كان محيي الدين يقول » ينبغى للعبد أن يستعمل همته فى الحضور فى مناماته ، بحيث يكون حاكما على خياله يصرفه بعقله نوما ، كما كان يحكم على يقظته ، فاذا حصل للعبد هذا وصار خلقا له ، وجد ثمرة ذلك ، وانتفع به فى كل شىء »

ولقد كان من ثمرات هذا العزم الجبار المساهمة فى بناء هذه الشخصية الجبارة المهابة التى تحكمت فى خيالها فى يقظتها ومنامها .

رجل الأسرار

معارف محيي الدين أمة قائمة بذاتها ، معارف شاملة ، محيطة بكل ما في هذا الكون من ألوان العلوم والمعارف .

ومحيي الدين ، مقتحم غواص ، يدفع بقلمه العبقرى إلى النقطة الصغيرة التى تكاد لا ترى فيجول بقلمه فيها . فاذا بها تكبر وتتسع حتى تتحول إلى دائرة كبرى . تضم بين محيطها أقصى ما يتصور الخيال من ألوان وفنون

وإذا تناول هذا الملهم الفياض ، مسألة من المسائل ، عرض لها من وجهة العلم الظاهرى ثم ينتقل إلى أسرارها فى الباطن . فترى عجبا ؟ وسواء لديه أكانت أحاديثه فى الفقه والتوحيد أم فى السحر والهندسة ، فلكل علم ظاهره وباطنه ، وواضحه وسره ، وخيره وشره .

فاذا حدثك عن الطهارة فى الفقه مثلا ، لخص لك أقوال علماء الظاهر ثم انتقل إلى معارف الباطن حيث يقول « أعلم أن الطهارة فى طريقنا طهارتان . طهارة غير معقولة المعنى . وهى الطهارة من الحدث ، والحدث نفسى للعبد ، فكيف يمكن أن يتطهر الشىء من حقيقته . فانه لو تطهر من من حقيقته ، انتفت عينه . ؟ وإذا انتفت عينه فمن يكون مكلفا بالعبادة ، ولهذا قلنا أن الطهارة من الحدث غير معقولة المعنى ، فصوره الطهارة من الحدث عندنا ، أن يكون الحق سمعك وبصرك فى جميع عباداتك .

وإذا حدثك عن السحر ، وهو علم مرقوم فى رق الكون . عرض عليك أقوال رجاله . ثم ولى بوجهه إلى مملكة الباطن . فاذا السحر هناك

مشتق من السحر . أى الوقت الذى بين الظلمة والنور ، ولهذا فهو باطل وحق ، ومباح وحرام ، وهدى وضلال ، والفيصل فى الأمر ، ميزان الشرع فكل ضرر محرم ، وكل نفع مشروع .

فاذا تهادن محيي الدين مع العلم الظاهر . وأقبل على الاسرار اللدنية وحدها فهذا هو المحراب والهيكل الذى لا يلجه إلا أربابه . وما لآذاننا طاقة بما يتلى فيه .

وإذا أردت قطرة من هذا البحر ، فلمحيي الدين كتاب مخطوط بدار الكتب المصرية يسمى « بالشجرة النعمانية » وما أدراك ما الشجرة النعمانية ، كتاب بين دفتيه أسرار وأسرار من بعضها حديثا عجبا عن ملوك الإسلام من عصره إلى قيام الساعة ؟ والأحداث الكبرى التى تمر بالأمة الإسلامية وغير هذا وذاك مما تضيق عنه معارفنا . وقد تضيق عنه عقولنا .

ولقد خلف محيي الدين ثروة من كتب الاسرار لم تطبع إلى يومنا ، ثروة بددتها الأعاصير ، وذهبت بها غفلة العالم الإسلامى ، فضاع جانب لا يعوض من تراث أكبر عباقرة رجال التصوف ، وأعظم كتاب الأسرار فى المحيط المحمدى .

223

الشيخ الأكبر

محيي الدين اعترف له رجال التصوف وأئمته منذ القرن السابع الهجرى إلى يومنا بأنه الشيخ الأكبر، الذى لا يرقى إلى معارج قلمه قلم.

فهو كاتب المتصوفة وامامهم، يقول عنه الشيرازى، «كان شيخ الطريقة، حالا وعلما، وامام الحقيقة، حقيقة ورسما، ومحيي رسوم المعارف معنى واسما إذا تغلغل فكر المرء فى طرف من بحره، غرقت فيه خواطره. عباب لا تدركه الدلاء، وسحاب تتقاصر عنه الانواء، كانت دعواته تخترق السبع الطباق، وتفترق بركاته فتملأ الآفاق.

وأما كتبه ومصنفاته، فالبحور الزواخر، التى لكثرتها وجواهرها، لا يعرف لها أول ولا آخر، ما وضع الواضعون مثلها، وانما خص الله بمعرفة قدرها أهلها. ولا غرو فهو صاحب الولاية العظمى، والصديقة الكبرى، وإنى أصفه، وهو يقينا فوق ما وصفته».

وابلغ كلم الشيرازى قوله — وإنى أصفه وهو يقينا فوق ما وصفته — أجل. فجماع ما يقال فى محيي الدين، أنه لا يوصف إلا بالعجز عن وصفه، فهو دائما، وهو دائما أبدا فوق وصفه ونعته.

وبعد. فلعلنا قد وفقنا إلى أن نضع فى يدك المنظار المكبر، الذى وعدناك به فى مقدمة هذا الكتاب. المنظار الذى يجلو ويوضح. ما يمكن أن يرى من قمة الشيخ الأكبر.

الشيخ الأكبر. الذى سيشغل العالم الإسلامى، بل عالم الفكر العالمى

مادام فى الدنيا رواد للفكر والبحث ، وما دام فى العقول ، استشراف إلى رؤية القمم العالية . وتطلع إلى الوقوف على ما صنع الايمان والالهام من أعاجيب ، فى دراسة أسرار الوجود .

وسواء لدينا ، أن يقول رجال الفكر ، أخطأ الشيخ الأكبر ، أو أصاب ، فلن يستطيع رجل من رجال الفكر ، أن ينكر على شيخنا الأكبر ، أنه قضى العمر كله ، فى المناجاة والطاعة ، والتطهر والعبادة ، وجعل من الكون مسجدا ، فلا محل لعمل لايليق بقداسة المسجد ، واتخذ من الوجود محرابا ، يرشد إلى الله ، ومعراجا يهدى إلى آياته ، وجعل الحب شرعة الحياة . وسبيلا إلى الله ، وطريقا سلطانيا ربانيا للدنيا والآخرة ومن أحسن قولا ، ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ، وقال إننى من المسلمين .

طه عبد الباقى سرور نعيم

فهرس

صحيفة

أفق ونجم ٣
مولده ونشأته ١٢
بين ابن رشد ومحيي الدين ١٦
العلم النظرى والعلم اللدنى ٢٠
مكانة الشيخ فى الطريق ٢١
الخضر وشيوخه فى الطريق ٢٣
المقامات والأحوال ٢٨
مقام النور ، مقام الوجد والوله ٢٩
مقام الفتح فى العبارة ٣٠
مقام القيومية ٣١
مقام حلاوة الفتح ٣٣
مقام الفناء ٣٤
مقام العبودية — أو الصديقية ٣٦
مقام القربة ٣٧
شعرة محمدية ٤١
محيي الدين والكرامات ٤٢
بين الشطح والفتوة ٤٤
محيي الدين وملك المغرب ٤٦
إلى الأرض المقدسة ٥٤
فى بيت الله الحرام ٥٦
المرأة فى حياة ابن عربى ٥٩

صحيفة

السائح الإسلامى ٦٥
صلاته بالملوك ٦٧
المعراج الأخير ٧٢
النهج الصوفى ٧٣
العلم اللدنى ٧٧
مكانة محيى الدين من العلم اللدنى ٨٢
أقسام العلوم ومراتبها ، علم العقل ٨٦
علم الأحوال ، علم الأسرار ٨٧
علم التجليات ٩٢
الطريق الأعظم ٩٥
محيى الدين والفرق الإسلامية ٩٨
الجدل فى الإسلام ٩٩
صفات الله تعالى ١٠١
صفات الله عند العارفين ١٠٦
العقل لا يدرك الله ١٠٧
القضاء والقدر وأفعال العباد ١١١
بين الفلسفة والتصوف ١١٦
مملكة التصوف ١٢٥
الكون الحى ١٢٨
أقسام المتصوفة ، الأقطاب والأئمة والأبدال . . ١٣٢
الملامتية ١٣٦
رجال الليل ١٣٩

صحيفة

أسرار الروح ١٤١
الاذاعات الروحية ١٤٥
الأرواح بعد الموت ١٤٧
محيي الدين والحب الإلهي ١٥١
صفات المحبين ١٥٦
حب العارفين ١٦٠
الحب ولقاء الله ١٦٢
محيي الدين ووحدة الوجود ١٦٣
محيي الدين المفترى عليه ١٧٣
النبي والولى ١٧٩
المتشابهات فى كلام محيي الدين ١٨١
المستشرقون ووحدة الوجود ١٨٤
نيكولسون ووحدة الوجود ١٨٧
الدكتور عفيفى ووحدة الوجود ١٩٠
ابن تيمية ووحدة الوجود ١٩٤
عقيدة محيي الدين بقلمه ٢٠٠
أثر محيي الدين فى النهضة الأوربية ٢٠٥
الشيخ الأكبر ٢١١
طريقته فى التأليف ٢١٥
مكانته من الفكرة والأسلوب ٢١٧
شخصيته ٢١٩
رجل الأسرار ٢٢١

بعض مصادر الكتاب

الفتوحات المكية	لابن عربى	فصل المقال	لابن رشد
فصوص الحكم	« «	تفسير الطبرى	للطبرى
ترجمان الأشواق	« «	الفرق بين الفرق	للبغدادى
عنقاء مغرب	« «	الرسالة القشيرية	للقشيرى
مسامرات الأبرار	« «	مفتاح السعادة	لطاش كبرى زاده
إحياء علوم الدين	للغزالى	حجة الله البالغة	للدهلوى
منهاج العارفين	«	دائرة المعارف الاسلامية	
جواهر القرآن	«	العقيدة والشريعة فى الاسلام	لجولد تسهير
ميزان العمل	«	فى التصوف الاسلامى لنيكولسون	ترجمة عفيفى
اللمع	للطوسى	الطواسين	لماسنيون
حلية الأولياء	لأبى نعيم	ظلال الكنيسة	لبلاسكوا أبانيز
عوارف المعارف	للسهروردى	تاريخ المسلمين باسبانيا	لدوزى
العبودية	لابن تيمية	مجموعة تراث الاسلام	
الصراط المستقيم	«	اليواقيت والجواهر	للشعرانى
خمس رسائل	لابن تيمية	الشفا	لابن سينا
منهاج السنة	«	كشف الظنون	لحاجى خليفه
الروح ، دار الهجرتين	لابن القيم	الفصل فى الملل والنحل	لابن حزم
تلبيس إبليس	لابن الجوزى	البداية والنهاية	لابن كثير
شرح ديوان ابن الفارض		الاسلام على مفترق الطرق	لمحمد أسد
الانسان الكامل	للجيلى	أثر العرب فى الحضارة الأوروبية	لعقاد

Restored through a grant from

T.S. Matthews '22
in memory of
Juliana Cuyler Matthews

BOUND BY
HNM